عمر حلمي الغول

عُصبة التحرّر الوطني في فلسطين

نشأتها وتطوّرها ودورها

١٩٤٣ - ١٩٤٨

مختارات

الكتاب: عصبة التحرّر الوطني في فلسطين
نشأتها وتطوّرها ودورها ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨
المؤلف: عمر حلمي الغول
الموضوع: سياسة
الصفحات: ٢٠٨
القياس: ١٤,٥ × ٢١,٥ سم.
الطبعة: الأولى
تاريخ الصدور: كانون الأول ١٩٨٧
المنشورات: مختارات
التوزيع: مختارات
الزلقا ـ ١/٨٩٠٣٣٣
ص . ب . ٦٠٢١٦

المحتويات

الصفحات

الى شعبي..
الى حزبي..
الى الشيوعيين الأوائل، الذين ما زالوا في الخندق الأمامي..
الى الساعين ابدأ صوب الشمس.. والحرية..

مدخل

بالعودة لمعالجة موضوع « نشوء عصبة التحرر الوطني وتطوّرها ونشاطها في فلسطين من ١٩٤٣ — ١٩٤٨ » نعود لمعالجة الأوضاع كافة التي كانت قائمة في فلسطين. آنذاك، الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. عودة لرؤية تداخل الصراع الطبقي والقومي؛ عودة لمعرفة ماهية عصبة التحرر الوطني نفسها؛ لملامسة الجديد النوعي، الذي اضافته لنضال الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية.

ان الفترة التاريخية التي نقف أمامها، كما هو واضح، فترة قصيرة جداً، فهي لا تتجاوز الخمس سنوات، ولكن رغم قصرها، حملت في ثناياها العديد من الأحداث الهامة والخطيرة في حياة الشعب العربي الفلسطيني، وشكلت في تاريخه نقطة انعطاف حادة، ومحطة فاصلة من محطات الصراع الدائر منذ عام ١٨٨٢ بين الشعب الفلسطيني بكل طبقاته وفئاته الاجتماعية الوطنية ومعه جماهير الشعوب العربية ممثلة بقواها الوطنية والتقدمية من جهة، وبين الامبريالية بكل فروعها والصهيونية العالمية والرجعية العربية من جهة أخرى.

ولأهمية هذه الفترة واستثنائيتها في حياة الشعب الفلسطيني، ونتيجة الخلافات والتناقضات العميقة بين القوى الوطنية والقومية والتقدمية الفلسطينية والعربية، وحتى بين المستشرقين الذين اهتموا بتاريخ شعوب

المنطقة انطلاقاً من مواقعهم الايديولوجية والطبقية المختلفة، ارتأينا اعادة قراءة هذه الفترة ومحاكمتها، لعلنا نتمكن من تصويب ما حاول الآخرون تحريفه، وتخطئة ما حاولوا تزيينه لشعبنا على اعتبار انه في مصلحته.

وبعودتنا لدراسة تجربة عصبة التحرر الوطني، والتي عالجها أكثر من كاتب، نعود لنقوّم تلك التجربة بما لها وعليها، ومن خلال ذلك نحدد تصورنا للحل الديمقراطي لمأساة الشعب العربي الفلسطيني، التي تكرست في أيار (مايو) ١٩٤٨ باقامة إلكيان الصهيوني على حساب تهجير الفلسطينيين وتشريدهم من ديارهم وأرضهم، وبمحاولة تبديد هويتهم الوطنية.

الفصل الأول

نشوء — تأسيس — عصبة التحرر الوطني في فلسطين

عصبة التحرر الوطني في فلسطين، اسم لفصيلة من فصائل العمل الوطني في فلسطين، انبثقت من رحم الأحداث، من عمق التفاعلات الموضوعية والذاتية التي عاشتها البلاد — فلسطين —. ولدت العصبة في مرحلة شديدة التعقيد والتشابك حيث أن ملامح الجريمة البشعة ضد الشعب الفلسطيني كانت قد اتضحت، وكانت كل مقومات المشروع الكولونيالي الصهيوني قد تبلورت، وكان الشعب العربي الفلسطيني بكل طبقاته الوطنية ينيخ تحت ثقل الاضطهاد والقمع المثلث الامبريالي، الصهيوني والرجعي العربي.

العصبة، هذه الفصيلة المناضلة، أصابت وأخطأت، نجحت وفشلت تقدمت وتراجعت، هاجمت وهوجمت، ولكنها رغم كل شيء، بقيت في الصفوف الامامية وعلى أكثر من جبهة وصعيد.

وقبل أن نسترسل كثيراً حول عملية ولادة العصبة، وبالتالي نميط اللثام عن وجهها وهويتها الطبقية، لا بد من أن نتعرف مسبقاً وأولاً على

المقدمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن ثم مجمل عملية مخاض ولادة هذا الفصيل المناضل، مقروناً بذلك، التعرف على ماهية (جوهر) العصبة من خلال الاطلالة على برنامجها السياسي ونظامها الداخلي وكذلك النقابي الاجتماعي. حتى تستقيم عملية المتابعة والدراسة لتجربة عصبة التحرر الوطني في فلسطين.

أولاً: المقدمات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية لتأسيس العصبة

١ ـــ هزيمة ثورة ١٩٣٦ ـــ ١٩٣٩

على الرغم من أن الذي يعنينا في هذه النقطة، هو الحديث عن عوامل هزيمة الثورة بنتيجة افتقادها عنصراً أساسياً، ألا وهو، نضوج العامل الذاتي، أي القيادة التقدّمية، التي لو كانت متوافرة وموجودة آنذاك، لكثير من القضايا الشائكة والمعقّدة، التي نناضل في أيامنا الراهنة لحلّها، كانت قد حُلَّت منذ ذلك الزمن.. رغم ذلك، ونحن نعالج عوامل هزيمة الثورة، نرى من المفيد أن نقدّم لمحة ولو سريعة ومكثّفة عن حيثّيات انفجار الثورة، التي شكّلت بحق علامة بارزة ومضيئة في النضال الوطني الفلسطيني، رغم نتيجتها المأساوية. لارتباط ذلك بما تلاها من أحداث، ولأهمية تلك العوامل والحيثيات لدراستنا، موضوع البحث.

لقد ادى اخضاع فلسطين، في أعقاب الحرب (العالمية الأولى) لسيطرة دولة امبريالية ـــ بريطانيا العظمى ـــ إلى ادخال التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية « شبه الاقطاعية »، التي كانت سائدة في فترة ما قبل الحرب، في إطار سيطرة نمط الانتاج الرأسمالي وذلك عبر إخضاع الاقتصاد الوطني لسيطرة البرجوازية الرأسمالية السائدة في المتروبول (في بريطانيا)[١].

وهذا بدوره أوصل حدة التناقض في عملية انتقال المجتمع الفلسطيني

---

(١) د . ماهر الشريف ـــ مساهمة في دراسة آلية نشوء الحركة العمالية العربية في فلسطين مجلة الطريق اللبنانية ـــ العدد ٤/٣ ـــ آب (أغسطس) ١٩٨٠ بيروت ص ٦٢ .

من الاقتصاد الزراعي ـــ الاقطاعي ـــ الديني، العربي، الى الاقتصاد الصناعي البرجوازي اليهودي (الغربي) الى ذروتها[١].

واهتمام بريطانيا ومصلحتها في إخضاع فلسطين يفسرهما في المقام الأول موقع فلسطين الاستراتيجي الممتاز، ففلسطين تقع على مقربة من حلقة هامة للغاية من حلقات المواصلات العالمية، عنينا بها قناة السويس، ... وعبر فلسطين كانت تمر الخطوط الجوية الرئيسية من أوروبا الى جنوبي شرقي آسيا والشرق الأقصى أما وكذلك الطرق البرية التي تربط ساحل البحر الأبيض المتوسط بالخليج العربي[٢].

ولتأمين السيطرة الكلية على فلسطين، ذات الموقع الاستراتيجي الخاص، قامت الامبراطورية البريطانية بإعلان وعد بلفور[٣] في نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩١٧، الذي تتعهد فيه بريطانيا بـ « اقامة وطن قومي » لليهود في فلسطين، انطلاقاً من المصالح المشتركة، التي تربط بين البرجوازية اليهودية الكبيرة المتعددة الجنسية وبين الأمبريالية البريطانية. واستناداً الى ذلك، والى صك الانتداب شجعت بريطانيا بجميع الوسائل تغلغل الرأسمال اليهودي في فلسطين، وأسهمت في توسيع الهجرة اليهودية اليها. وكانت المادة الرابعة من صك الانتداب، تنص على إنشاء « وكالة يهودية » هدفها تطبيق الاجراءات اللازمة لأجل إنشاء « الوطن القومي » اليهودي في فلسطين.

كما ضمنت بريطانيا للمهاجرين اليهود الجنسية الفلسطينية، ومنحت الهيئات الصهيونية مختلف الامتيازات[٤]. فتميزت الفترة الممتدة من

---

(١) أسعد صقر ـــ الحركة العمالية في فلسطين منذ عهد الانتداب البريطاني وحتى عام ١٩٨٠. منشورات دار الجرمق للطباعة والنشر ـــ الطبعة الأولى. أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠ ص ١٤٣ .

(٢) أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي ـــ معهد الاستشراق ـــ تاريخ الأقطار العربية المعاصرة ١٩١٧ ـــ ١٩٧٠ ـــ الجزء الأول ـــ دار التقدم ـــ موسكو ١٩٧٥ ص ٢٠٥ .

(٣) بلفور : هو وزير خارجيّة بريطانيا آنذاك.

(٤) المصدر السابق ص ٢٠٧ ـــ ٢٠٨ .

١٩١٩ حتى ١٩٢٩، بأنها الفترة التي جرىٰ خلالها تثبيت الأسس والقواعد المادية والبشرية للمشروع الصهيوني في فلسطين.

فالمندوب السامي البريطاني يقدر أن (١٥٠) مشروعاً اقتصادياً (حتى سنة ١٩٢٥) تأسّس في فلسطين منذ الحرب العالمية الأولىٰ، وبلغت رؤوس الأموال الموظفة فيها ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه مصري[١].

وتدفقت الأموال الرأسمالية (البريطانية والأميركية) آنذاك الى فلسطين حيث وصلت في الثلاثينات الى ٣٠ مليون جنيهاًاسترلينياً. وكان يجري توظيف هذا التدفق الرأسمالي الى فلسطين لتدعيم أسس بناء المشروع الصهيوني، وبخاصة ركيزتيه الأساسيتين: الهجرة وشراء الأراضي[٢].

وحتى أوائل الثلاثينات، توصل الصهاينة الى انتزاع أكثر من مليون وربع المليون دونماً[٣] من الأراضي من أيدي العرب، وصادروا ملكية آلاف العائلات الفلاحّة، وأقاموا مستوطنات صهيونية فوق الأراضي التي انتزعوها من العرب[٤]..

وأما على صعيد الهجرة، فارتفع عدد اليهود (المهاجرين الى فلسطين).. من ١٧٠ الفاً في آخر سنة ١٩٣١ الى نحو ٤٠٠ الف في أواخر سنة ١٩٣٦[٥].

---

(١) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي في فلسطين ــ الطبقة والشعب في مواجهة الكولونيالية. دار الفارابي ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ــ تشرين الثاني ١٩٧٩ ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤.

(٣) الدونم: يساوي ألف متر مربع.

(٤) د. ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين ١٩١٩ ــ ١٩٤٨ الصادر عن مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ــ بيروت ــ الطبعة الأولى اكتوبر ١٩٨١، الملحق الخامس ــ وهو عبارة عن مقالة بقلم مصطفى السعدي (يافا) ــ بعنوان، المسألة القومية في المؤتمر السابع للحزب الشيوعي في فلسطين ــ من المراسلات الصحافية الأممية (La Correspondance Internationale) العدد الخامس، ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٣١ ص ١٥٢ .

(٥) محمد عزة دروزه ــ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ــ الجزء الأول ــ منظمة التحرير الفلسطينية ــ دائرة الاعلام والثقافة ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٤ ص ١٩٣ .

من المعطيات الواردة أعلاه، نرىٰ ان مجمل عملية التحول في الهيكل الاقتصادي والاجتماعي في فلسطين، والتي كانت تحدث بسرعة مذهلة، كانت تصيب بالدرجة الأولىٰ القطاع اليهودي على حساب البورجوازية الفلسطينية المتوسطة والصغيرة وبالأساس على حساب الطبقة العاملة العربية[١] وفقراء الفلاحين، الذين تم تدمير الحد الأدنىٰ الذي كانوا يمتلكونه من الأرض، وازداد وضعهم سوءًا فوق سوء.

ولم يدخر البريطانيون أي جهد من أجل تجسيد وعدهم لليهود « بوطن قومي » في فلسطين، لدرجة ان البريطانيين لم يكونوا على استعداد للاعتراف بأصحاب البلاد الاصليين، الفلسطينيين العرب، بأنهم يشكلون شعباً أو أمة، اذ كانوا يعرفون الفلسطينيين في الوثائق الرسمية « بالجماعات غير اليهودية » وكانوا يبررون رفضهم منح القيادة الوطنية الفلسطينية صفة تمثيلية، بأن المجتمع الفلسطيني لا يملك بنية طبقية منتظمة[٢]!!.

هذا هو النذر اليسير من الذي كان يجري في فلسطين آنذاك، ففي كل يوم من أيام الانتداب البريطاني لفلسطين، كان يضاف قانون جديد أو إجراء قمعي جديد أو ارهاب مضاعف على جماهير الشعب العربي الفلسطيني، فمثلاً، بلغ عدد العاطلين عن العمل في يافا ــ التي كانت تعدُّ واحداً وسبعين الف نسمة ــ في أواخر ١٩٣٥. منهم نحو ٢٢٧٠ عاملاً وعاملة؛ وترافق ذلك مع انخفاض الأجور وارتفاع مستوى المعيشة وتدهور صناعات الرأسماليين العرب (المحدودة)، وأما الفلاح فكان يدفع ربع دخله ضرائب مباشرة وغير مباشرة. هذا فضلاً عن أنه في ربيع ١٩٣٧ اصبح ربع القرويين بلا أرض[٣].

---

(١) روز ماري صايغ ــ الفلاحون الفلسطينيون ــ من الاقتلاع الى الثورة. ترجمة خالد عايد ــ صادر عن مؤسسة الأبحاث العربية ــ بيروت ص ٥١ .

(٢) غسان كنفاني ــ ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ في فلسطين ــ خلفيات وتفاصيل وتحليل ــ صادر عن لجنة الاعلام المركزي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ص ٤ .

(٣) عبد القادر ياسين ــ كفاح الشعب الفلسطيني حتى العام ١٩٤٨ ــ صادر عن دار الجليل ــ دمشق ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٤ ص ١٦٢ ــ ١٦٣ .

مجموع هذه العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية تداخلت جميعها ببعضها البعض، بحيث انها كانت تضغط يوماً بعد يوم على كاهل الشعب العربي الفلسطيني بكل طبقاته وفئاته الوطنية المعادية للانتداب البريطاني وحلفائه الصهاينة، مما أوصل البلاد الى حالة من الغليان والسخط الشعبي الذي لم يسبق له مثيل، وأصبحت الظروف الموضوعية ناضجة جداً، أي ان مقومات الحالة الثورية أضحت قائمة (وان لم تكن كلها)، فالجماهير الشعبية تتظاهر وتنتفض دونما حاجة لاستنهاضها وحيث يكفي حادث بسيط تقتل فيه عناصر صهيونية عاملين عربيين على طريق بتاح تكفا لكي يفجر ثورة ١٩٣٦، التي تمتد وتتفاعل وتتسع على امتداد ثلاث سنوات متتالية رغم كل العقبات[1] لكن العامل الذاتي للثورة لم يكن متوفراً ولم يكن ناضجاً، فالحزب الشيوعي الفلسطيني، كان ضعيفاً ومحدود التأثير في صفوف العمال والفلاحين، ومحصوراً في إطار المدن، وبعيد كلياً عن الريف الفلسطيني. أما قادة الحركة الوطنية — اعضاء اللجنة التنفيذية — أبناء العائلات الاقطاعية وشبه الاقطاعية البرجوازية فلم يكن لهم أي مصلحة بالثورة، وكان بعضهم منحازاً كلياً لصالح سياسة الانتداب. ففي اوائل سنة ١٩٣٣ وبنتيجة السياسة المنحازة للصهاينة، التي كان يعتمدها المندوب السامي واكهوب بخصوص ازدياد الهجرة، تحمست اللجنة التنفيذية للحركة الوطنية وقررت وجوب عدم التعاون مع الحكومة ووجوب انسحاب اعضائها من اللجان الحكومية بسبب فتح السلطات أبواب فلسطين لتيار دافق من الهجرة اليهودية، فأعلن (بعض أعضاء اللجنة) انه يفضل التعاون مع الحكومة على البقاء في اللجنة التنفيذية[2].

رغم ذلك، أي رغم سياسة المهادنة من قبل تلك القيادات، انطلقت الثورة من عقالها وبدأت أولاً من وسط الجماهير الشعبية، وبطريقة فرضت نفسها (فرضاً) على الزعامات البرجوازية بحيث لم تسمح لها بالانسحاب

---

(١) سميح سمارة — العمل الشيوعي... المصدر السابق ص ١٨٧ .

(٢) محمد عزة دروزة — القضية الفلسطينية — مصدر سابق ص ٩٢ .

من المعركة. حدث هذا (على الرغم من أن) البرجوازية لم تكن على استعداد للاستمرار بالثورة التي كانت تعتمد على ثلاثة آلاف مجاهد متفرغ فقط[1].

وفي مجرى تقييمه لثورة ١٩٣٦، ارجع الحزب الشيوعي الفلسطيني أسباب فشل الثورة الى خمسة أسباب رئيسية: ١ — غياب القيادة الثورية، ٢ — فردية قادة الثورة وانتهازيتهم، ٣ — عدم وجود قيادة مركزية لقوات الثورة، ٤ — ضعف الحزب الشيوعي الفلسطيني، ٥ — عدم ملاءمة الوضع العالمي[2].

ومن البديهي القول، ان الوضع الدولي في الفترة الواقعة ما بين الحربين (العالميتين) لم يكن مؤاتياً لانتصار حركات التحرر الوطني في العالم، فالدول الاستعمارية كانت تهيمن على العلاقات الدولية، كما ان الظاهرة الاستعمارية لم تكن قد بلغت مرحلة الانحسار. أما الدولة الرئيسية الوحيدة المعادية للاستعمار (الاتحاد السوفييتي) فقد كانت في مرحلة الدفاع عن النفس... (فضلاً عن استحالة اقدام زعامة الوجاهات الفلسطينية على التعاون مع البلشفيك)[3]، وذلك بسبب واقعهم الطبقي والأيديولوجي، وبناءً عليه، فهم من حيث المبدأ لم يفكروا باقامة مثل هذه العلاقة، لأنهم (القيادات) ان لم يكونوا جزءاً من خدم الامبريالية البريطانية، فهم لن يخرجوا عن إطار سياستها والعمل على كسب ودها ورضاها. ومن الأدلة الاضافية على ارتهان القيادات الاقطاعية البرجوازية الرجعية لبريطانيا، تخليها عن الثورة، بل تآمرها عليها، فهي كما أسلفنا لم تساهم في التحضير والاعداد للثورة، لا بل أن الثورة فاجأتها، فركبت الموجة (موجة الثورة) طمعاً

---

(١) لطف غنطوس — أثر التركيب الطبقي في القضية الفلسطينية — مجلة « دراسات عربية » مجلة فكرية — اقتصادية — اجتماعية — السنة الثانية. العدد الأول — تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٥ ص ١١٤ .

(٢) عبد القادر ياسين — « حول تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني » مجلة الكاتب، القاهرة — نيسان (ابريل) ١٩٧١ — العدد ١٢١ ص ١١٤ — ١١٥ .

(٣) د . عبد الوهاب الكيالي — تاريخ فلسطين الحديث — المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت — الطبعة السابعة ١٩٧٩ ص ٣٦٥ .

في استغلال الثورة من أجل مصالحها الخاصة، وهذا ما جعلها تتفق مع السلطات البريطانية[١] ضد الثورة. والى ذلك، كانت سياسة المنافسة غير المشروعة بين أبناء العائلات ومراكز قواها يشكل خطراً لا يقل عن خطر سياسة الانتداب البريطاني، إذ كادت هذه السياسة أن تؤدي إلى حرب أهلية في البلاد، فكان حزب الدفاع الوطني[٢]، يقود «المعارضة» ضد الحركة الوطنية. وكان الصراع بينه وبين الحزب العربي، أو حزب المفتي (الحاج أمين الحسيني)، يزداد حدة كل يوم[٣].

كما أن غياب البرجوازية الوطنية — المتوسطة والصغيرة لعب دوره التاريخي السلبي في الحركة الوطنية الفلسطينية، بحيث ترك بصماته السّيئة على مسار الثورة ونتائجها، فهذه البرجوازية بحكم امكانياتها المتواضعة، وبالتالي ضعفها، لم تتمكن من أن تؤثر في الثورة وبالتالي في قرارها السياسي. ومثال ذلك، القادة الميدانيون — قادة المناطق — وهم من أصول طبقية مختلفة ومتباينة تماماً عن القيادات التقليدية. ومعظمهم من صغار ومتوسطي الفلاحين وبعض المثقفين الثوريين من البرجوازية الصغيرة، وبعضهم من العمال، لم يستطِع هؤلاء من أن يؤثروا بالقرار السياسي للثورة، ولا أن يرتقوا بنضالهم الى مستوىٰ المفهوم الطبقي العلمي، فبقيت نضالاتهم وانتفاضاتهم عرضة للانفعالات العاطفية والفورات المؤقتة، التي اتّسمت بالطابع الارهابي. وقد أدّى عدم وعيها الطبقي لتحويل قيادة الثورة لعام ١٩٣٦ من أيدي الجماهير المنظمة في اللجان المحلية الى

(١) ف . ب . لاديكين — مصدر الأزمة الخطيرة — ترجمة هاشم حمادي — منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي — سوريا — دمشق ١٩٧٥ ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٢) هذا، « وللعلم »، فإن حزب الدفاع، الذي يتزعّمه راغب النشاشيبي كان يلعب دور الممثل الشرعي لنظام شرق الأردن العميل داخل الحركة الوطنية الفلسطينية (...) وهو عبارة عن حشد صغير من أفندية المدن يمثّلون بالدرجة الأولى مصالح البرجوازية الكمبرادورية الصاعدة، والتي بدأت تكشف، عن أن وجودها ونموّها رهن بارتباطها ليس فقط بالاستعمار البريطاني ولكن أيضاً بالحركة الصهيونية، التي كانت تسيطر « على عملية التحوّل الصناعي للاقتصاد الفلسطيني ».

(٣) ناجي علوش — المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧ — ١٩٤٨) — دار الطليعة للطباعة والنشر — بيروت — الطبعة الثالثة — آب (أغسطس) ١٩٧٥ ص ١٠٢ .

اللجنة العليا[١]، المكونة من رؤساء الأحزاب السابقين، أي احزاب العائلات الاقطاعية وشبه الاقطاعية البرجوازية، والتي كانت بمثابة القيادة السياسية للثورة!؟.

كما شكلت الفوضىٰ الناشئة من اساءة استعمال وسائل جمع التبرعات والضرائب من أقوىٰ أسباب تشويه سمعة الثوار ونفوذهم. يضاف الى ذلك المبالغة — دون مبرر — للاغتيالات السياسية، مما شجع العناصر العربية الموالية للحكومة (حكومة الانتداب) على تحدّي الثوّار علناً[٢] بخلاف الفترة الأولى من الثورة، فترة النهوض الثوري، التي عمت البلاد، ودفعت أغنياء فلسطين وسماسرة الأراضي والوجهاء الموالين للحكومة للهرب من البلاد بأعداد كبيرة[٢].

ومن البديهي التأكيد، أن وجود حكومات عميلة تابعة للأستعمار في الدويلات المحيطة بفلسطين كان عاملاً هاماً من عوامل اجهاض ثورات شعب فلسطين[٣] فمثلاً الاضراب العام، الذي اندلع في ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٣٦ واستمر طيلة ستة أشهر، والذي فاجأ القيادة العربية والأمبريالية البريطانية والحركة الصهيونية بالارادة والصمود العاليين، اللذين تختزنهما الجماهير الشعبية الفلسطينية، مما حدا بهؤلاء جميعاً، وفي المقدمة منهم الحكام العرب، بالالتفاف على هذه الارادة وافراغها من خلال الوعود الكاذبة، واجهاضها حين تمكنوا من ايقاف الاضراب، دون أن يحققوا أيّ مكاسب للجماهير العربية، ليس هذا فحسب، بل أدىٰ (الى) التعنت البريطاني[٥] ومن ورائه الصهيوني.

ومن أجل هزيمة الثورة، استخدمت السلطات البريطانية ابشع وسائل

(١) لطف غنطوس — أثر التركيب... مصدر سابق ص ٢٠ .

(٢) د . عبد الوهاب الكيالي — تاريخ فلسطين... مصدر سابق ص ٣٤٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٥) د . موسى البديري — تطور الحركة العمالية العربية في فلسطين (مقدمة تاريخية ومجموعة وثائق) ١٩١٩ — ١٩٤٨ — دار ابن خلدون — بيروت — الطبعة الأولى ١٩٨١/١٢/١

التنكيل والقمع والابادة والتدمير ضد الشعب العربي الفلسطيني، وذلك من أجل اخماد الثورة والحد من أيّ آثار لها لاحقاً. فخلال الفترة الأولى من الاضراب وحسب تقرير حكومة الانتداب البريطاني استشهد من العرب خلال الاصطدامات ضد الجيش والبوليس أكثر من الف مقاتل، هذا عدا القتلى والجرحى الذين سقطوا عند مهاجمة القرى وتطويقها[1].

في الوقت ذاته أدت عمليات التنكيل والأرهاب بدون محاكمة أو تحقيق، والمشانق والسجون والنفي على أساس « قرار الطوارىء » لعام ١٩٣٧، والذي لجأت اليه المحاكم الميدانية، والمقاطعة الاقتصادية التي نظمتها المؤسسات والنقابات الصهيونية، واعلان الأحزاب العربية السياسية وزعماءها بأنها خارجة عن القانون[2]. كل هذا أدّى الى ضعضعة الثورة وارباكها ومن ثم تفككها.

وفضلاً عن كلّ ما سبق، فإن تعديل قوانين الطوارىء أعطى سلطات الانتداب صلاحيات أوسع وأكبر في ممارسة القمع والأرهاب، بحيث اصبحت الحيازة على بضع رصاصات أو قطعة من سلاح، مهما كان نوعه، تكفي للحكم بالاعدام أو السجن المؤبد أو المديد على حامله. هذا وأصبحت كل عمارة في مدينة أو قرية وكل بيارة أو بستان عرضة للمصادرة والنسف والتدمير لمجرد صدور نار ما من جهتها أو وقوع حادث قربها، حتى بلغ عدد الذين شنقوا مائة وستة وأربعون، وتجاوز عدد المحكومين بمدد أبدية أو مديدة الالفين، منهم شيوخ طاعنين وفتيان مراهقين، ومنهم نساء. هذا وبلغ عدد المنازل والحوانيت، التي نسفت وهدمت وتصدعت نحو خمسة آلاف. كما نسفت أحياء وشوارع برمتها في بعض المدن ومنها جنين التي نسف أكثرها[3]، كما ونسف الحي القديم في يافا[4].

---

(١) د . اميل توما ــ ستون عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية ــ منشورات دار الأسوار ــ عكا ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤ ص ١٢٧ .
(٢) ف . ب . لاديكين ــ مصدر سابق ص ١٤٤ .
(٣) محمد عزة دروزة ــ القضية الفلسطينية... مصدر سابق ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ .
(٤) د . اميل توما ــ ستون عاماً... مصدر سابق ص ١٢٧ .

وخلال سنوات الكفاح المسلح الثلاث، حولت الامبريالية البريطانية فلسطين كلها الى معسكر اعتقال ضخم، ففي ظل قوانين الطوارئ خسر سكان البلاد القليل من الحقوق الديمقراطية التي كانوا يتمتعون بها سالفاً، وتوقفت كل أشكال النشاط السياسي والنقابي.. وكذلك نفي الكثيرون، بينما اختار آخرون ترك البلاد[1].

ومن العوامل البارزة في إخماد الثورة، انزال الجيوش البريطانية الى فلسطين في نهاية ١٩٣٨، وكانت بمثابة اجتياح جديد لها، وقد شاركت الـ « هاجاناه » (المنظمة العسكرية الصهيونية) في ذلك، هذا بالاضافة الى الطائرات التي بدأت تقصف مواقع الثوار[2]. فضلاً عن الضغط العسكري المتواصل الذي سبّب تعب الثوّار من القتال وافتقادهم الأسلحة والذخائر (...) ثم ان اقتراب العالم من حافة الحرب العالمية الثانية حمل الفرنسيين على قمع مقر رئاسة الثوار في دمشق قمعاً تاماً[3].

ولم تكتف سلطات الانتداب البريطاني بأسلوب الضغط العسكري، بل اتبعته بأسلوب المناورة السياسية، فأعلنت انها تخلت عن اقتراح تقسيم فلسطين، ودعت الى مفاوضات حول مائدة مستديرة تعقد في لندن باشتراك ممثلي الحركة القومية العربية التقليديين وحكومات عربية مختارة من ناحية والوكالة اليهودية من ناحية ثانية. ولم تخطىء الحكومة البريطانية في تقديرها ردود فعل القيادة التقليدية (...) التي أبدت، ارتياحها لعدول بريطانيا عن سياسة التقسيم، وأخذها بخطة المفاوضة، واقتناعها بأن قضية فلسطين يجب أن تحل سياسياً لا حربياً[4].

هذا هو المنطق الصحيح والمنسجم ومتطلبات تلك القيادة، ولو اتخذت موقفاً غير ذلك لكان لا بد من وجود خلل غير طبيعي في مواقفها أو في بنيتها، لكن القيادة التقليدية مارست قناعاتها، اتخذت الموقف

---

(١) د . موسى البديري ــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٢٩ ــ ٣٠ .
(٢) ف . ب . لاديكين ــ مصدر سابق ص ١٤٣ ــ ١٤٤ .
(٣) د . عبد الوهاب الكيالي ــ تاريخ فلسطين... مصدر سابق ص ٣٥٩ .
(٤) د . اميل توما ــ ستون عاماً... مصدر سابق ص ١٥٥ ــ ١٥٦ .

الذي يتناسب وتفكيرها المرتبط أشد الارتباط بواقعها الطبقي. لقد كانت وفية لطبقتها وفكرها بمقدار ابتعادها وانحرافها أو خيانتها لمصالح جماهير الشعب الفلسطيني، أي للثورة، ثورة الجماهير الفقيرة والمعدمة من العمال والفلاحين والبرجوازية الصغيرة. وعندما نخلص لذلك، لا نكون قد تجنينا على تلك القيادة، فهذا جورج انطونيوس ـــ الذي كان جزءاً من تلك القيادة، يؤكد استنتاجنا، فعندما اتهمت الحكومة البريطانية الوجهاء بتدبير الثورة، صحح لها (جورج انطونيوس ـــ السياسي العربي المعاصر) هذه المعلومات، حين قرر أن الثورة « انما هي ثورة الفلاحين... وليست من تدبير الزعماء بل انها ـــ من نحو ظاهر ـــ تحد لسلطاتهم واتهام لاساليبهم.[1]

وبناءً عليه، فإن هذه القيادة لم تفكر، ولم تكن على استعداد للتفكير بمواجهة قوات الانتداب البريطاني، وكانت ترى في ذلك ضرباً من ضروب الجنون و « عدم الواقعية »!. ولهذا كان العرض البريطاني عرضاً « واقعياً »، وبالتالي، أبدت الاستعداد الشديد للتعاطي الايجابي معه، لأنه جاء لينقذها (القيادة) من بعبع الثورة وآفاقها اللاحقة، جاء العرض البريطاني ليعفيها من تلك المهمة التي لا ترغب بتحملها، وعليه كان الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ (ايار ـــ مايو) الذي حمل اسخى العروض البريطانية بصورة مغرية مشبوهة وخصوصاً اذا ربطت بالجو السياسي الدولي آنذاك. ووجدت اللجنة العربية العليا طريقة ضمن هذا الكتاب للتنصل من الثورة، التي أرهقتها... وقررت ايقاف الثورة في أيلول ١٩٣٩.[2]

وهكذا نجد، ان تلك القيادة ساوت بين الثورة الشعبية، التي انتشرت في البلاد كانتشار النار في الهشيم، ببعض الوعود التي وردت في الكتاب الأبيض الانكليزي الصادر في أيار ١٩٣٩، ومن بين أبرز الوعود، التي حملها الكتاب، انشاء دولة عربية ـــ يهودية واحدة في فلسطين خلال ١٠ سنوات[3]. وبالتالي الغت الحكومة البريطانية (ولو مؤقتاً) اقتراح

(١) عبد القادر ياسين ـــ كفاح الشعب... مصدر سابق ص ١٨٤ ـــ ١٨٥ .
(٢) لطف غنطوس ـــ أثر التركيب... مصدر سابق ص ١٩ .
(٣) تاريخ الأقطار العربية... مصدر سابق ص ٢٢٦ .

التقسيم الذي وضعته لجنة بيل الملكية عام ١٩٣٧. وبالنتيجة لم تحصل على شيء، لا لنفسها ولا للجماهير الفلسطينية، التي كانت وما زالت تواقة للانعتاق من براثن الاستعمار البريطاني وزبانيته الصهاينة، ليس هذا فحسب، بل ان هذه القيادة التقليدية حفرت للثورة قبرها مقابل وعود وهمية.

ولم تكن الانحناءة البريطانية ـــ إصدار الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ ـــ من أجل سواد عيون العرب، بقدر ما كانت مرتبطة أولاً، وقبل كل شيء، بمصالح الانكليز انفسهم لكونهم كانوا بحاجة ماسة لترتيب البيت الانكليزي، بما في ذلك المستعمرات الخاضعة لسيطرتهم، لكي يكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة الرياح الألمانية الساخنة، التي بدأت تهب على أوروبا.

باختصار يمكننا القول، ان السياسة البريطانية نجحت في هزيمة الثورة بفضل سياسة المهادنة والتنازل التي اعتمدها القادة العرب، وهكذا توقفت بنادق الثوار عن العمل مع بداية الحرب العالمية الثانية، ودخلت البلاد مرحلة جديدة، وعادت دورة الحياة الى البدء ثقيلة، حيث كانت فلسطين تنفض عن ثيابها الآلام والصعوبات والهموم التي راكمتها سنوات الثورة الثلاث، عادت بطيئة، لأن الاقتصاد العربي في فلسطين كان مدمراً تقريباً... وأصبح قسم من الفلاحين دون أرض، وقسم من العمال دون عمل[1] ليس هذا فحسب، بل ان قاعدة الحركة العمالية نفسها كانت قد تخلخلت وتقلصت نتيجة التحاق اعداد كبيرة من العمال بالثورة وانخراطهم في الكفاح المسلح، وعلى سبيل المثال، فإن جمعية العمال العربية الفلسطينية، التي كانت تمثل في ذلك الوقت واجهة العمل النقابي العربي وتدعي النطق بلسان العمال العرب كافة، تقلص نشاطها بشكل كبير[2]. ونتيجة

(١) أسعد صقر ـــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ١٦٣ .
(٢) حيدر رشيد ـــ الحركة العمالية الأردنية ومقدمات وضعها الراهن (١) ـــ الحركة العمالية العربية في فلسطين ١٩٠٠ ـــ ١٩٤٨ ـــ شركة الشرق الأوسط للطباعة ـــ عمان ـــ الطبعة الأولى عام ١٩٨٢ ص ١٤٩ .

ما آلت اليه ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، أضحت الحركة القومية العربية بدون قيادتها التقليدية، التي شردتها الحكومة البريطانية (رغم كل تنازلاتها) أو هي غادرت البلاد هرباً من الاعتقال والقمع[1]، وانقسمت هذه القيادة، فذهب نفر منها، وعلى رأسهم المفتي الى برلين النازية، واعتقلت السلطات آخرين مثل جمال الحسيني وأمين التميمي وأبعدتهم الى روديسية، وتهاود نفر آخر من الامبريالية البريطانية وعادوا الى البلاد[2].

وأخذ عدد من قادة الحركة الوطنية في التساقط الواحد تلو الآخر، معترفين بالكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩. وأعرب التجار العرب عن استعدادهم للتعاون مع الحكومة البريطانية على أساس الكتاب الأبيض، وقد جاء موقف التجار هذا في مؤتمر الغرف التجارية المنعقد في القدس في تموز (يوليو) ١٩٤١[3].

أما على الجانب الآخر من الصورة، جانب التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين، فقد كانت الصورة مختلفة تماماً، حيث تبلورت في تلك الفترة بالذات (١٩٣٦ ــ ١٩٣٩) ليس فقط الطبيعة العسكرية العدوانية لمجتمع الغزو، الذي أرست الصهيونية جذوره في المجتمع اليهودي بفلسطين، ولكن أيضاً الهيمنة شبه الكاملة على الهيكل التحتي للاقتصاد الفلسطيني، الذي سيكون له فيما بعد تأثيرات جذرية على الصراع القائم[4].

وكانت الحركة الصهيونية تهدف عبر نشاطاتها المتعددة في فلسطين الى اقامة جالية يهودية منفصلة، مستقلة ومكتفية بذاتها وذلك كخطوة على طريق تحقيق الوطن القومي اليهودي. وكان انتهاجها لسياسة « احتلال العمل » و« احتلال الأرض » ضرورياً لتحقيق تقسيم البلاد وفصل السكان

(١) د . اميل توما ــ جذور القضية الفلسطينية ــ دار الكاتب ص ٢٩٣ .
(٢) المصدر السابق.
(٣) عبد القادر ياسين ــ كفاح الشعب... مصدر سابق ص ٢٠٦ .
(٤) غسان كنفاني ــ ثورة ١٩٣٦... مصدر سابق ص ٥ .

اليهود عن السكان العرب فصلاً تاماً. فكان ان جاءت سنوات الثورة العربية الثلاث لتتم هذا الانفصال[1].

ويؤكد ذلك، تقرير اللجنة المركزية لحزب مباي (الصهيوني) الذي قدمه دافيد بن غوريون، الذي يقول: « لقد اتضح لنا الأكثرية في القدس وحيفا وتل أبيب، وقوة الزراعة الحمضيّة في أيدينا. وكل الصناعة عملياً في أيدينا. ولنا ميناء. وميناء حيفا يصبح يهودياً يوماً بعد يوم. ونمتلك معظم الأراضي الزراعية في البلاد ــ الهول ــ ومحطات القوة الكهربائية والبحر الميت في أيدي اليهود، وتنمو قوتنا العسكرية. وقد جندنا ١٠ آلاف بمساعدة الحكومة (...) وكذلك فانه لا يمكن اجراء أي تغيير أساسي في البلاد ضد ارادتنا[2].

اللوحة في البلاد أضحت محددة المعالم، وكل شكل من الأشكال بدا جلياً واضحاً، الثورة هزمت، امكانات وطاقات البلاد تشتتت، حركة وطنية بلا رأس، وان وجد في أحسن الأحوال فهو مهلهل. مزيد من البطالة، ومزيد من فقدان الأراضي، واقتصاد منهك، هذا في الجانب العربي، وعكسه تماماً في الجانب اليهودي. الاّ ان اندلاع الحرب العالمية الثانية عدل في الصورة قليلاً نتيجة ما أحدثته من تطور سريع في المجتمع العربي الفلسطيني.

٢ ــ التطورات الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين في أثر الحرب العالمية الثانية

بعد شبه السكون، وحالة الجمود في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية بمقاييس محددة، التي استمرت ما يزيد قليلاً عن الثلاث سنوات، منذ الاضراب العام في نيسان ١٩٣٦ وحتى أكتوبر ١٩٣٩، أخذت البلاد والحياة فيها منحًى آخر، شكلاً آخر، فعادت الروح للحياة في البلاد، وعادت معها الحركة والنشاط لتصيب كل موقع وكل مجال

(١) د . موسى البديري ــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٣١ .
(٢) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ١٨٤ .

من مجالات الحياة، في الصناعة والتجارة، والزراعة، في التعليم والثقافة، في النضالات المطلبية (الطبقية) والقومية، وفي الحركة السياسية.

وكان الفضل في ذلك يعود للظروف الموضوعية، التي تركت بصماتها ليس على الشعب الفلسطيني فحسب، بل على شعوب الأرض قاطبة، تلك الظروف المتمثلة ببدء الحرب العالمية الثانية، والتي بدأ معها الظلام يخيم على غالبية شعوب الكرة الأرضية وخصوصاً الشعوب الأوروبية، حيث حملت (الحرب) بين أيامها وشهورها وسنواتها كل وسائل القتل والتدمير والتخريب للحضارة الانسانية في أوروبا بنتيجة هوس الفاشيين الهتلريين والايطاليين والعسكرتاريا اليابانية.. وبقدر ما حملت هذه الحرب من الدموع والآلام والضحايا للعديد من شعوب كوكبنا الأرضي، حملت آفاقاً جديدة ورحبة لتلك الشعوب التي ناضلت وكافحت في سبيل تحررها واستقلالها الوطني واستناداً للانتصارات المجيدة والعظيمة التي حققها الجيش الأحمر السوفييتي على النازية الألمانية.

ومن الجدير بالملاحظة، ان آثار الحرب انعكست على فلسطين انعكاساً ايجابياً ومباشراً ومنذ لحظاتها الأولى، وجاء ذلك التأثير بنتيجة الاهتمام البريطاني بفلسطين، التي غدت منطقة شديدة الأهمية في مخططاتهم واستراتيجيتهم وخصوصاً بعد أن انتقل ميدان الحرب الى الصحراء الليبية والمصرية بالقرب من فلسطين[١].

وشكلت سنوات الحرب، سنوات انتعاش اقتصادي بسبب نفقات القوات المسلحة البريطانية الوفيرة، وبسبب حاجات المجهود الحربي المتعاظمة التي فرضت على بريطانيا تعديل سياستها السابقة[٢]. فقد اضطرت بريطانيا الى تشجيع الصناعات الفلسطينية، لكي تتمكن من تغطية حاجات القوات العسكرية البريطانية الضخمة المرابطة في فلسطين، والتي كان

(١) د. فائق حمدي طهبوب ــ الحركة العمالية والنقابية في فلسطين ١٩٢٠ ــ ١٩٤٨ ــ منشورات شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ــ الكويت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص ١٧١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧١ .

من الصعب مدها بكل احتياجاتها من بريطانيا نفسها أو من مستعمراتها بسبب اغراق الغواصات الألمانية أي سفينة بريطانية تدخل البحر الأبيض المتوسط. ومن جرّاء ذلك حسرت هذه الصعوبة عن السوق الفلسطينية معظم السلع البريطانية، ان لم يكن كلها، مما دفع حكومة الانتداب، لأن تعطي تسهيلات كبيرة للفلسطينيين في المجالات كافة، التي تخدم امداد قواتها باحتياجاتها المختلفة، بحيث اقترنت سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) باتساع الأعمال التجارية والمالية والزراعية والاقتصادية لعرب فلسطين، وأتت فلسطين في المرتبة الأولى، بين بلدان العالم من حيث زيادة حجم وارداتها على صادراتها. وهذا يعني ان الفارق بين الصادرات والواردات غطي بفيض من رؤوس الأموال الأجنبية (نحو مئة مليون جنيه استرليني)[١].

وبفضل الظروف الاستثنائية التي أوجدتها الحرب، اصبحت فلسطين مصدراً هاماً لتجهيز البضائع التي يحتاجها الاستهلاك المدني والعسكري في الشرق الأوسط على نطاق واسع، وقد نشأت صناعات جديدة وزادت صادرات البضائع المصنوعة، فيما عدا منتجات النفط، فكانت (٩٨٣,٠٠٠) جنيهاً فلسطينياً سنة ١٩٤٠ ووصلت الى (٤,٤٩٦,٠٠٠) جنيهاً فلسطينياً سنة ١٩٤٤. وقد ساعد على هذه التطورات قلة التجهيزات وصعوبات الاتصال، التي مالت نحو قطع من مصادر تجهيزاتها فترة ما قبل الحرب في أوروبا وأمريكا. ولذلك ارتفعت قيمة صادرات فلسطين الى اقطار الشرق الأوسط الآخرين من (٥١٨,٠٠٠) جنيهاً فلسطينياً سنة ١٩٣٩ الى (٨,٧١٨,٠٠٠) سنة ١٩٤٤، وهي تمثل ٦٠٪ من مجموع الصادرات سنة ١٩٤٤[٢].

(١) عبد القادر ياسين ــ تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية ١٩١٨ ــ ١٩٤٨ ــ مركز الأبحاث ــ منظمة التحرير الفلسطينية ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٠ ص ٣٨ ــ ٣٩ .

(٢) لطف غنطوس ــ أثر التكوين الطبقي لأبناء فلسطين في العمل السياسي الفلسطيني ــ « دراسات عربية » مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية ــ السنة الثانية ــ العدد « ٢ » ــ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥ ص ٣٦ و٣٧ .

ونتيجة لذلك، اتسع حجم الطبقة العاملة العربية ليشمل حوالي ثلث السكان العرب الذكور في سن العمل. وفي عام ١٩٤٤، قدرت لجنة التشغيل الحكومية (البريطانية) انخفاض قوة العمل في الريف، خلال الفترة الواقعة ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٤ بـ ٧٥ ألف شخص، من بينهم عشرة آلاف يهودي فقط[1]. وهذا عائد لحاجة سوق العمل للأيدي العاملة، مما استدعى هجرة قوة العمل من الريف الى المدن.

وانسجاماً مع هذا التطور، الذي أدى الى ازدياد حجم الطبقة العاملة وتعاظم مستوى تمركزها وتسارع حركيّتها وتطور انماط تشغيلها، بدأت تتحلل أكثر فأكثر الروابط التقليدية، التي تربطها بمجتمع القرية، وتتبلور بالتالي كيانيتها الطبقية المستقلة[2].

والجدير بالذكر، ان الظروف الجديدة، كما هو ملاحظ، افسحت المجال أمام تطور الصناعة وبالتلي الطبقة العاملة العربية، ولكن لا يمكننا القول، أن الباب فتح على مصراعيه أمام هذا التطور، لأن ذلك غير ممكن ويتناقض مع سياسة الانتداب وحلفائهم الصهاينة، وبناءً على ذلك، بقيت استفادة الصناعة العربية محدودة من ظروف الحرب، ولم تكن تقارن مطلقاً باستفادة الصناعة اليهودية[3] فكانت الفائدة للصناعة اليهودية مطلقة على مثيلتها (ونقيضتها) العربية، وهذا ناتج عن تركيز الوكالة اليهودية على تهجير أصحاب رؤوس الأموال (الذي) ساعد على احتكار اليهود للصناعة اذ تراوحت رؤوس الأموال اليهودية التي ادخلت الى البلاد حتى عام ١٩٣٦ ما بين ٩٠ و٩٥ مليون جنيه[4] كما أدى تشجيع هجرة العمال الصناعيين والمهنيين والحرفيين المهرة الى البلاد الى قيام منافسة

(١) د. ماهر الشريف ــ تاريخ فلسطين الاقتصادي ــ الاجتماعي ــ صادر عن دار ابن خلدون ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٥ ص ١٨٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٨٦ .
(٣) المصدر السابق ص ١٤٧ .
(٤) عنان العامري ــ التطور الزراعي والصناعي الفلسطيني ١٩٠٠ ــ ١٩٧٠ ــ مركز الأبحاث ــ منظمة التحرير الفلسطينية ــ بيروت ــ آذار (مارس) ١٩٧٤ ــ ص ١٢٢ .

غير عادلة للصناعة العربية ففي عام ١٩٣٤ دخل الى البلاد ٤٢,٣٥٩ يهودياً منهم ٥,١٨٢ أي ١٢,٣٪ من العمال الصناعيين المهرة[1]. مما سمح لليهود أن يحتكروا الصناعات الأساسية في البلاد، فبعد أن كانوا يملكون ٢٤٪ من المصانع عام ١٩٢٨ أصبحوا يملكون ٥٤,٩٪ عام ١٩٤٢[2].

وأما على صعيد الصناعة العربية، فرغم كل شيء، وكما أسلفنا، تطورت تطوراً ملحوظاً، بالمعنى النسبّي، فنجد مثلاً ان احصاء عام ١٩٣٩ شمل ١٢ صناعة عربية و١٥ صناعة يهودية هي: الأغذية، الخمور، التبغ، الزيوت النباتية والحيوانية، الكيماويات، الأخشاب، الورق، الجلود، النسيج، الصناعات المعدنية وغير المعدنية، وهذه الصناعات موجودة عند كل من العرب واليهود، أما صناعات المطاط وتجليد الكتب وقطع وصقل الأحجار الكريمة فهي صناعات يهودية فقط[3].

كما وشمل احصاء عام ١٩٤٢، ٣٤٧٠ محلاً صناعياً يملك منها العرب ١٥٥٨ محلاً، أي ٤٤,٩٪... من حيث تنوع الصناعات، فنجد ان الصناعات العربية ارتفعت من ١٩ فرعاً الى ٣٠ فرعاً، بينما لم تزد فروع الصناعات اليهودية الاّ فرعاً واحداً وهو تعليب اللحوم والأسماك[4]. وهذا لا يعني تناقضاً مع ما أوردناه سابقاً، بل انه ينسجم معه، كون الفروع العربية لها الطابع الحرفي المحدود والبعيد عن التمركز، بعكس الصناعات اليهودية.

وفي الفترة الواقعة ما بين ١٩٣٩ و١٩٤٣ انتعشت بعض الصناعات العربية، ومن أبرزها:

١ ــ صناعة الألبسة بما فيها الأحذية ــ ارتفع عدد مؤسساتها من ٣٠ مؤسسة في عام ١٩٣٩ الى ٣١٥ مؤسسة في عام ١٩٤٢، وارتفع عدد العاملين فيها من ٢٣٠ الى ١٢٧٨ عاملاً.

(١) المصدر السابق ص ١٢٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٠٦ .
(٤) المصدر السابق ص ١٠٧ .

٢ ــ صناعة الأخشاب ــ ارتفع عدد مؤسساتها من ٤٢ مؤسسة في عام ١٩٣٩ الى ٢٧٧ في عام ١٩٤٢، وارتفع عدد العاملين فيها من ٦٦٣ الى ١٧٥٠ عاملاً.

٣ ــ صناعة المعادن والآلاتَ ــ ارتفع عدد مؤسساتها من ٤٦ في عام ١٩٣٩ الى ١٩٢ في عام ١٩٤٢، وارتفع عدد العاملين فيها من ٤٠٣ الى ٨٠٤ عاملاً.

٤ ــ صناعة النسيج ــ ارتفع عدد مؤسساتها من ٦٥ مؤسسة في عام ١٩٣٩ الى ٢٠٤ في عام ١٩٤٢، وارتفع عدد العاملين فيها ٦٦٣ الى ١٧٥٠ عاملاً.

٥ ــ صناعة المأكولات والمشروبات والتبغ ــ ارتفع عدد مؤسساتها من ١٢٠ مؤسسة في عام ١٩٣٩ الى ١٥٩ في عام ١٩٤٢، وارتفع عدد العاملين فيها من ١٣٤٩ الى ٢٠٧٩ عاملاً[١].

وزيادة في توضيح ما أصاب حجم الطبقة العاملة من تطور في المجالات والقطاعات المختلفة نحيلكم الى الجدول رقم (١) ــ

جدول العدد المتوسط للعمال العاملين في معسكرات الجيش والدوائر الحكومية خلال الحرب

الدائرة	السنة					
	١٩٤٠	١٩٤١	١٩٤٢	١٩٤٣	١٩٤٤	١٩٤٥
الجيش	٥٩٩٨	١٦٢٤١	٤٢٢٦٧	٤٧٢١٦٥	٤٢٩٣٠	٣٥٥٤٩
الأشغال العامة	٤٢٥٤	٧٢٤٨	٧١٨٨	٤٥٥٦	٣٢٥٦	٣٢٩٤
سكة الحديد	٢٢٠١	٢٩٩٨	٤٨٦٣	٣٦٢٠	٣٢٤١	٢٧٦٤
البريد والتلغراف	٧٣٠	٨٦٩	١١١٦	١١٣٩	١٠٠٨	١١٤٢
المجموع	١٣١٨٣	٢٧٣٥٦	٥٥٤٣٤	٥٦٥٨٠	٥٠٤٣٥	٤٢٧٤٩[٢]

(١) د . ماهر الشريف ــ تاريخ فلسطين... مصدر سابق ص ١٤٧ ــ ١٤٨ .
(٢) أسعد صقر ــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ١٦٣ .

وقد ارتفع عدد العمال العرب في فلسطين عام ١٩٤٢ الى ١٠٤,١٢٢ الف عامل موزعين على قطاعات الزراعة والصناعة والتجارة[١].

ترافق مع هذا التطور والنمو في حجم الطبقة العاملة الفلسطينية، تطور على صعيد الحركة النقابية، ويمكن القول، ان الحركة النقابية العربية كانت من أولى القوىٰ التي بدأت تستعيد نشاطها، وتبعها بعث العمل السياسي[٢]، وسرعان ما تألفت نقابات عمالية جديدة، ومن بينها: نقابة عمال معسكرات الجيش البريطاني، نقابة عمال البرق والبريد والهاتف، نقابة عمال دوائر الأشغال العامة، نقابة عمال شركة سبنـي التجارية (البريطانية). ونقابة عمال شركة تكرير البترول. هذا ما عدا ما سبقها من نقابات انضمت الى جمعية العمال العربية، وأهم تلك النقابات: نقابة عمال سكة الحديد، نقابة عمال الدخان، ونقابة عمال البلدية.

وبقيام هذه النقابات ارتقت الحركة النقابية العمالية الفلسطينية درجة أعلى، مخلفة وراءها التنظيم النقابي على المستوى الاقليمي متجهة الى التنظم النقابي على مستوىٰ الصناعة، ليس هذا فحسب، بل ارتقت أيضاً في مجالات التجمعات العمالية الكبيرة، كمعسكرات الجيش، الى التنظيم النقابي على مستوى المنشأة[٣].

ومن العوامل التي ساعدت على نهوض الحركة العمالية النقابية وتطورها، ثلاثة عوامل بارزة، كان لها الأثر الأكبر في هذا التطور وهي: خلق فرص العمل نتيجة تأسيس الجيش لمعسكرات عمل، نشاط دائرة العمل، الذي كان بمثابة مباركة رسمية للتنظيم العمالي العربي، وبخاصة نشاط مفتش العمل الراديكالي ويدعىٰ هارولد شادلي، والنشاط المتصل الذي استمر الحزب الشيوعي في القيام به وتنامي قوة الحزب بعد مشاركته في النضال الوطني خلال السنوات السابقة. وبالمقابل لا ينبغي اهمال

(١) المصدر السابق ص ١٦٤ .
(٢) د . موسى البديري ــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٥٩ .
(٣) عبد القادر ياسين ــ تاريخ الطبقة... مصدر سابق ص ١٣٤ .

عامل الزمن الذي أدى الى شفاء الجراح الناجمة عن الصراع الطويل مع بريطانيا[١].

وخلاصة القول، ان الوقائع والمعطيات الواردة أعلاه، تشير بوضوح الى أن الطبقة العاملة نهضت من سباتها، وبقوة، وكان ذلك بفعل العوامل الموضوعية لدرجة ان البطالة اختفت نهائياً من السوق في سنوات الحرب العالمية الثانية، وازداد نضال العمال المطلبي، كما ان الطبقة العاملة لعبت دوراً مهماً في النضال القومي، بحيث ان الطبقة العاملة تمكنت من فرض نفسها على كل القوى السياسية في البلاد، ويعود السبب في ذلك لازدياد حجمها وثقلها، مما دفع العديد من القوى السياسية ان تتزلف للطبقة العاملة وتحاول استرضائها، وفي ذات الوقت أن تنصب نفسها (القوى) وصية عليها، وذلك من أجل اخضاع العمال لمصالحهم الطبقية الضيقة، ومن جانب آخر لابعادهم عن ادراك دورهم التاريخي، وبالتالي لحرمانهم من المساهمة في النضال الوطني بشكل مستقل من خلال طليعتهم السياسية وأداتهم التنظيمية، الحزب الشيوعي، لكن مجريات الأمور لم تأتِ تماماً رياحها كما تشتهي سفن أولئك البرجوازيين وأشباه الاقطاعيين.

٣ ـ ازدياد النضال واتساعه في سبيل الحريات الديمقراطية، وازدياد انتشار الأفكار الماركسية ـ اللينينية

انطلاقاً من عملية التطور والنهوض التي شهدتها البلاد، والتي انعكست بشكل مباشر على الصعد والمجالات كافة، شهد مجال التعليم خطاً كبيراً من جراء عملية الانتعاش الآنفة الذكر، على الرغم من أن حكومة الانتداب حرمت العديد من أبناء الشعب العربي الفلسطيني من الالتحاق بالمدارس الحكومية، وتميزت المرحلة الممتدة من عام ١٩٣١/١٩٣٠ الى عام ١٩٤٢/١٩٤١ بارتفاع نسبة رفض دائرة المعارف لطلبات الالتحاق بمدارسها فتراوحت نسبة القبول بين ٢٧٪ و٧٠٪ خلال هذه الفترة[٢].

(١) د . موسى البديري ـ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٣٥ .
(٢) د . محمد عرابي نخله ـ تطور المجتمع في فلسطين ـ منشورات ذات السلاسل ـ الكويت ١٩٨٣ ص ٣٤٣ .

وكان من أهم أسباب عدم التحاق هذه الاعداد من ابناء فلسطين بالمدارس، هو سياسة دائرة المعارف، التي كانت ترفض قسماً كبيراً من طلبات التحاق اولئك الأبناء بالمدارس الحكومية. وكانت المعارف تلجأ الى ذلك تمشياً مع سياسة حكومة الانتداب الهادفة الى وضع البلاد في احوال اقتصادية واجتماعية يسهل معها انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين[١].

ورغم ذلك رافق هذا المجال عملية النهوض والانتعاش التي سادت البلاد، ففي الفترة المذكورة أعلاه، حصل تطور في أعداد المدارس والمعلمين والطلاب، فقد ارتفع عدد المدارس العربية العامة (الحكومية) من ٣٠٨ مدرسة عام ١٩٣١/١٩٣٠ الى ٤٠٤ مدرسة عام ١٩٤٢/١٩٤١، كما زاد عدد المعلمين من ٧٤٤ معلماً الى ١٤٥٦ معلماً في الفترة نفسها، وزاد عدد الطلاب من ٤٢,٢٨٨ طالباً الى ٥٦,٥٥٨ طالباً، منهم ٤٤,٢٤٤ من الذكور و١٢,٣١٤ من الاناث[٢].

أما بالنسبة للتعليم العربي الخاص، فقد ازداد اتساعاً في هذه الفترة فارتفع عدد المدارس الاسلاميّة الخاصة أو الأهلية من ١٣٧ مدرسة عام ١٩٣١/١٩٣٠ الى ١٧٧ مدرسة عام ١٩٤٢/١٩٤١، كما زاد عدد معلميها من ٢٧١ الى ٤٦٧ معلماً، وعدد طلابها من ٧٢٤٣ الى ١٤٦٣٩ طالباً في الفترة نفسها، وزاد عدد المدارس المسيحية الخاصة من ١٨١ مدرسة الى ١٨٩ مدرسة وزاد عدد معلميها من ١٠٩١ الى ١٣٣١ معلماً وعدد طلابها من ١٤٣٦٠ طالباً الى ٢٠٣٦٤ طالباً خلال تلك الفترة[٣].

ومن البديهي أن يرافق انتشار التعليم في فلسطين إبان عهد الانتداب تطور ثقافي واسع تمثل في ازدهار الحياة الأدبية والنهضة الفكرية، وظهر نتيجة لذلك عدد لا بأس به من الأدباء والشعراء والصحفيين والمؤرخين

(١) المصدر السابق ص ٣٥١ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٤٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٤٨ .

وغيرهم، كما صدرت صحف يومية واسبوعية، سياسية وأدبية واقتصادية باللغة العربية والعبرية والانجليزية[1].

جاء ذلك منسجماً مع تصاعد نضالات الطبقة العاملة السياسية والاقتصادية (وبفضلها) نمت القوىٰ الديمقراطية العربية، وأخذ النضال في سبيل إباحة الحريات الديمقراطية يتسع شيئاً فشيئاً، مما اضطر سلطات الانتداب البريطاني الى تخفيض قبضتها القمعية، والى إطلاق بعض الحريات السياسية والنقابية فبدأت في تلك الفترة تصل الى فلسطين ادبيات الأحزاب الشيوعية العربية والأوروبية، التي كانت توزعها بعض المكتبات بصورة علنية، كما نشطت حركة النوادي وحركات الطلبة والمثقفين الديمقراطيين[2].

في ظل هذه الفسحة المحدودة، التي استطاعت ان تحققها الطبقة العاملة ونضالات القوىٰ الطبقية الأخرىٰ، فسحة الحريات الديمقراطية، أخذت تنتشر في المدن الرئيسية في فلسطين مجموعة من النوادي الاجتماعية والسياسية. فقد قام عدد من المثقفين، الملتفين حول « رابطة المثقفين العرب »، ومن أبرزهم عبدالله البندك، بتشكيل « عصبة مكافحة الفاشية في فلسطين »، وساهم عضو قيادة الرابطة توفيق طوني وإميل توما بالتعاون مع عامل سكك الحديد، وأحد كوادر الحزب الشيوعي الفلسطينية القدامى بولس فرح، بتشكيل نادٍ في حيفا دُعي باسم « شعاع الأمل » ليكون بمثابة صلة الوصل بين أعضاء الرابطة والعمال العرب العاملين في شركات النفط وفي مصانع تكرير البترول في المدينة[3].

الأمر الذي اعتبره الحزب الشيوعي الفلسطيني بمثابة تحدٍّ له، فكان رد قيادة الحزب إقامة «نادي الشعب» في حيفا في اكتوبر من السنة نفسها بإدارة

(١) المصدر السابق ص ٣٧٦ .
(٢) د . ماهر الشريف — الشيوعية والمسألة القومية... مصدر سابق ص ١٠٥ .
(٣) المصدر السابق ص ١٠٨ .

سعيد قبلان، وأما الرجل الثاني في نادي الشعب فقد كان إميل حبيبي[1].

وإلى جانب ظاهرة تشكيل النوادي السياسية والاجتماعية التقدمية، بدأت تظهر في المدن الرئيسية في فلسطين، مجموعة من الحلقات والخلايا الماركسية.. ففي مدينة الناصرة مثلاً، قام فؤاد نصار، بعد عودته من العراق وإيران، إثر فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني، بتشكيل حلقة ماركسية ضمت « سليم خليف، وخليل خوري، وخليل ذيب، وشفيق بشارة، وبشارة طنوس، وفوزي بيرقدار، ومنعم جرجورة، وكانوا يجتمعون بصورة دورية ويطلعون على النشرات الماركسية الى أن أصبحت حلقتهم جزءاً من عصبة التحرر الوطني في فلسطين[2].

ان الرقي والتطور الذي وصل اليه نضال الطبقة العاملة بشقيه المطلبي (الاقتصادي) والسياسي عكس نفسه بشكل قوي على القوىٰ الوطنية والديمقراطية وفعل فعله في عملية استنهاضها، ودفعها لأن تبحث عن ذاتها لكي تبلورها في إطار تنظيمي محدد، يتلاءم وطموحاتها الطبقية والقومية، إطار تنظيمي قادر على نسج علاقة سليمة وصحيحة مع الطبقة العاملة الفلسطينية ومجموع الكادحين من فقراء الفلاحين وغيرهم، ويعبر عن طموحاتهم وأهدافهم في الانعتاق من بؤس الاستعمار من جهة — النضال القومي — وضد الاقطاعيين والبرجوازيين، من جهة أخرى — النضال الطبقي — لتقوم بتأدية دورها التاريخي. وفي سياق البحث عن الذات، وجد ذلك التيار الواسع مكانه بفعل العوامل العديدة وأبرزها وأهمها الانقسام الذي حصل في الحزب الشيوعي الفلسطيني، حيث شكل الشيوعيون العرب حزبهم — عصبة التحرر الوطني في فلسطين.

٤ — الانقسام في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني

من المفيد قبل أن نتحدث عن انقسام الحزب الشيوعي الفلسطيني مباشرة، ان نعود قليلاً للوراء، الى تتبع عملية ولادة الحزب نفسه، حتى

(١) د . موسى البديري — تطور الحركة... مصدر سابق ص ٣٨ — ٣٩ .
(٢) د . ماهر الشريف — الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٠٨ — ١٠٩ .

لا تأتي محاكمتنا وكأنها مجتزأة أو ناقصة، وبالتأكيد سيكون تتبعنا مكثفاً ومركزاً على الأقل في السنوات الأولىٰ، والهدف من ذلك، تحديد النبع الذي انبثق من رحمه الحزب الشيوعي الفلسطيني وقراءة أفكاره الأولىٰ وبالتالي أهدافه، ومبررات وجوده.

في آذار (مارس) ١٩١٩ توحدت الأحزاب العمالية الصهيونية اليمينية في إطار — الاتحاد الصهيوني الاشتراكي لعمال أرض اسرائيل — احدوت هعبودا — وكانت اكثرية حزب — بو علي صهيون — قد انضمت الى — احدوث هعبودا — وفي الشهر نفسه من ذات السنة أقام أعضاء من — بو علي صهيون، عارضوا الانضمام الى — احدوث هعبودا — أقاموا مع كادحين آخرين، حزب العمال الاشتراكي (م.ف.س.) الذي تحول مع الوقت الى مواقع الايديولوجية الماركسية — اللينينية، وعلى رأس — م. ف. س. — وقف ي. مايرزون، دانئيل، وولف اورباخ، ي. خالدية، كريشون دواه، ادموني وآخرون. وفي الأيام ١٧ — ١٩/اكتوبر/١٩١٩ عقد الاجتماع العام لحزب العمال الاشتراكي في فلسطين — بو علي صهيون —، الذي كان بمثابة الاجتماع القطري الأول لـ — م.ف.س. —، ويعتبر المؤتمر الأول للحزب الشيوعي في البلاد[1].

وفي هذا الاجتماع اعلن مايرزون البيانات المنهجية، التي أثارت السخط لدى الأحزاب الصهيونية، وجاء فيها « أن حزبنا يعلن صراحة: ان الصهيونية البروليتارية تربط تحقيق المثال الصهيوني بانتصار الثورة الاشتراكية، ففيه، في هذا الانتصار فقط ترى الضمان الوحيد لتحقيق كل المثُل التقدمية والصهيونية أيضاً بمدىٰ ما هي تقدمية.

وأعرب عن ثقته الكبيرة، بأن الصهيونية ستتحقق كاشتراكية والاّ فإنها لن تتحقق أبداً.

---

(١) ماير فلنر — السكرتير العام للحزب الشيوعي الاسرائيلي — محاضرة بعنوان — خمسون سنة من نضال حزبنا الشيوعي — اصدار الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح » — اللجنة المركزية — طبع في مطابع الاتحاد التعاونية — حيفا ١٩٧٠ ص ٢٤ — ٢٥ .

ويتابع « وحزبنا لن يكف عن دعوة كل العاملين في الشعب اليهودي، الذين يرون، في هذه اللحظة، ان خلاصهم الوحيد، هو في الصهيونية قائلين أيها العميان انظروا وأيها الطرشان اسمعوا وأيها المتلونون أزيلوا القناع عن وجوهكم، واعلموا ان كل الأبراج، التي تفكر الصهيونية المالكة ببنائها هنا، هي أبراج في الهواء. فهذا بناء قد يكون كبيراً وجميلاً في صورته الخارجية، غير ان اسسه قائمة على مخزن بارود قد ينفجر في كل لحظة... ابحثوا عن طريق جديد، مأمون. جدوا طريق السلام مع جماهير العاملين من الشعب المقيم هنا. تذكروا انه مع كل مواطن أو صديق صهيون يأتي هنا لكي يخلص المزيد من الأرض ويستغل سكانها — انما يضيف مزيداً من المواد المتفجرة تحت أسس بنائنا[1].

ويعلّق على ذلك الرفيق ماير فلنر[2] في محاضرة له بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب فيقول: « ان المحاضر الذي كان لا يزال يعتمد الصهيونية البروليتارية الحقيقية، قد حذر مع ذلك وقال انه يجب رؤية الحقيقة المرة والمتجهمة وسماع الطرقات الأولىٰ التي تسمع الآن وتنذر بهزة أرضية وبانفجار البركان، الطرقات التحذيرية في الصحف العربية المحلية والمجاورة التي تعلمت كيف تقدر تقديراً صحياً استيطاننا المستغل[3].

ولم ينحصر ادراك الاستيطان وأخطاره في الصحف العربية المحلية والمجاورة، بل أن الجماهير الشعبية العربية بعفويتها وبساطتها، أدركت ذلك وتلمسته، ففي أحد رسائل امايرزون المؤرّخة في ١٩٢٠/٨/٢٥، المرسلة لحزب العمال الاشتراكي في فلسطين بعد انفضاض الاجتماع العالمي الخامس لبوعلي صهيون، الذي عقد في فيينا يقول: « ... ان في البلاد سكاناً قرويين عرباً بدون أرض وعطاشاً للأرض وانهم سيظهرون مقاومة كبيرة لتسرب عناصر من المدينة وخصوصاً من خارج البلاد —

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨ — ٢٩ .
(٢) ماير فلنر : السكرتير الأول للجنة المركزيّة للحزب الشيوعي الاسرائيلي — « راكاح ».
(٣) المصدر السابق ص ٢٩ .

الى القرية » ... ويتابع « لعدم تضامننا مع جماهير الكادحين العرب ولابتعادنا عنهم تتقوى الكراهية وتشتعل الآن بسبب التوجه والمحبة العلنية والواضحة التي نظهرها تجاه الحكم الاستعماري الأجنبي »[1].

ان قراءة سريعة لما جاء في بيانات مايرزون، توضح لنا، ان الشيوعيين الأوائل، على الرغم من انهم ابتغوا الوصول الى الاشتراكية، الاّ انهم، كانوا في تلك الأثناء، بعيدين عنها، فكانوا يخلطون بين الصهيونية والاشتراكية، ويمكن تشبيههم بالطوباويين، لكونهم لم يدركوا الفارق الشاسع بين هذين المفهومين، وهذا لا ينطبق عليهم جميعاً، فبعضهم كان يريد أن يخلط الأشياء ببعضها من أجل تشويه وعي العمال، وكان يدرك هذا البعض (وهذا ما سيتضح لاحقاً) ان الأيديولوجية الصهيونية لها لون واحد، واتجاه واحد، هو الاتجاه البرجوازي، وما علاقتها بالبروليتاريا الاّ علاقات استغلال، أي علاقة الرأسمال بالعمل. ليس هذا فحسب، بل ان الايديولوجية الصهيونية، هي ايديولوجية البرجوازية اليهودية الكبيرة، الايديولوجية الأكثر اغراقاً في رجعيتها وشوفينيتها وعنصريتها.

ومن المعلوم لدينا، ان البرجوازية اليهودية الكبيرة، ليست ذات انتماء قومي واحد، بل هي نسيج من الانتماءات القومية المختلفة، ولكنها ذات لون طائفي واحد ــ اليهودية ــ، وهذه البرجوازية اندمجت مع بعضها البعض بفعل سيطرتها على السوق المالي العالمي في المرحلة الرأسمالية، وهذا ما يؤكده ماركس حين يقول: « ... فاليهودي تحرر على الطريقة اليهودية، ليس فقط بأن اصبح سيد السوق المالية، وانما لأن المال اصبح بواسطته، وبفضله قوة عالمية[2] ».

وفي وصفه (ماركس) للعلاقة بين المال واليهودي يقول: « المال هو

(1) المصدر السابق ص ٣١ .

(2) ماركس ــ المسألة اليهودية ــ ترجمة محمد عيتاني ــ دار مكتبة الجيل ــ النسخة التي اعتمدها المترجم هي طبعة « الفريد كوست » باريس ١٩٥٢ ص ٥٤ .
كتب ماركس هذه الدراسة سنة ١٨٤٤، قبل نشوء المنظمة الصهيونية بأكثر من نصف قرن، وعالجها استناداً الى المادية التاريخية.

إله اسرائيل المطماع، وأمامه لا ينبغي لاي إله أن يعيش. إن المال يخفض جميع آلهة البشر ويحولها الى سلعة »[1].

هذا هو الأساس الذي تنطلق منه الايديولوجية الصهيونية، وفيه يكمن جوهرها، وبفضل ذلك، شكل البرجوازيون اليهود من القوميات المختلفة احتكاراً عالمياً متعدد الجنسيات، واستغلوا الدين اليهودي من أجل تأمين قوة العمل لتنفيذ مشروعهم الكولونيالي في فلسطين (أو في أي بقعة من العالم ــ حيث لم يكونوا في البداية مستقرين على منطقة محددة، فكانت أمامهم خيارات متعددة مثل الأرجنتين وأوغندا وغيرها فضلاً عن فلسطين) لكنهم بالمحصلة ولدواعي متصلة بمشروعهم، اختاروا فلسطين، لايراد اسمها في التوراة، ووجود العبرانيين فيها قبل آلاف السنين، مما جعلهم يلبسون مشروعهم الطابع والثوب الطائفي، من أجل الوصول لتحقيق غاياته الامبريالية، من أجل تحقيق مشروعه الاستيطاني الكولونيالي في فلسطين.

واستناداً لذلك، أخذت البرجوازية اليهودية (الصهاينة) في عملية تحريض وتعبئة دعائية بين أوساط اليهود ــ من الشعوب والقوميات المختلفة ــ على اعتبار انهم « أمة عالمية واحدة! »، وانهم « شعب الله المختار ! » ودغدغة عواطفهم بالعودة لـ « أرض الميعاد »... الخ. هذه الاسطوانة الشوفينية الاستعمارية، واستهدفت هذه الحملة حض اليهود على الهجرة الى فلسطين، واستخدامهم فيما بعد كوقود، « كعبيد »، كقوة عمل لتنفيذ مشروعها الاحتكاري الاستيطاني في فلسطين، للأهمية الاستراتيجية التي تتمتع بها على الصعيد الاقليمي والعالمي.

وهذه الخلاصة يؤكدها « كتاب مفتوح » للجنة التنفيذية للأمميّة الشيوعية نشرته في ٢٦/نوفمبر (تشرين الثاني)/١٩٣٠ توضح فيه طبيعة الصهيونية جاء فيه: ان « الصهيونية هي التعبير عن الجهود الاستثمارية والاضطهادية الحثيثة للبرجوازية اليهودية، التي تستغل اضطهاد الاقليات

(1) المصدر السابق ص ٥٨ .

« القومية » اليهودية في شرق أوروبا (الأقواس حول كلمة القومية للكاتب) لغرض السياسة الامبريالية الرامية الى تأمين سيطرتها على فلسطين »، وبناءً على هذا التحليل الذي اعتمده الحزب الشيوعي الفلسطيني، اعتبر ان الصهيونية (هذا لاحقاً جرى تثبيته على الرغم من الخروج عنه من قبل العديد من قيادات الحزب) من حيث كونها « أداة للامبريالية البريطانية » تعمل بدورها على صياغة أداة خاصة بها « من السكان اليهود في فلسطين »، بما في ذلك الشرائح شبه البروليتارية والبروليتارية وذلك بهدف تحقيق « ابادة استعمارية » للجماهير العربية في فلسطين[1].

فضلاً عن ذلك، فالوثائق الصادرة عن الصهيونية نفسها ترفض أي عملية ربط بين الاشتراكية والصهيونية، فجاء في وثيقة صهيونية عام ١٨٩٨ ما يلي: « ان الاشتراكية عدو لدود لليهود وللفكرة القومية اليهودية »[2]. وبناءً عليه فلا يمكن الجمع بين الاشتراكية والصهيونية، لأنهما نقيضان لا يلتقيان بتاتاً. لأن الاشتراكية عدو لدود للرأسمال، عدو لدود « للقومية » اليهودية، قومية المرابي، قومية رجل المال والتاجر. ولو قرأ الشيوعيون الأوائل أفكار الصهيونية جيداً لما وقعوا في فخها، لأنه مهما تعددت ألوان ظهورها وأشكالها « يسارية » أو « يمينية » فهي في المضمون شيء واحد. هي الصهيونية ومرة أخرى نعود لنؤكد، بأن هذا الخلط والتشويش الفكري، ليس أمراً عابراً، ولا هو وليد المصادفة، على الرغم من أن ظروف الولادة، والبدايات دائماً تحمل شيئاً من التشويش والخلط، وهذا يعود للضعف النظري للمبتدئين، ولكن فيما نحن بصدده، لا يبدو الأمر كذلك، أي ان الخلط كان متعمداً، لأن هناك أوساطاً عديدة حاولت

(١) سميح سمارة ـــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ١٩٩ .
(٢) عبد الرزاق الصافي ـــ عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي ـــ كفاحنا ضد الصهيونية ـــ صادر عن دائرة الاعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية ص ١٩. وكتيب « كفاحنا ضد الصهيونية » عبارة عن البحث، الذي قدمه الرفيق عبد الرزاق أمام « المؤتمر الفكري حول الصهيونية » الذي عقد في بغداد في تشرين الثاني ١٩٧٦، بعنوان « صفحات مشرقة من كفاح الشعب العراقي ضد الصهيونية، اداة الامبريالية العالمية ».

ايجاد الانسجام بين الاشتراكية والقومية اليهودية في روسيا (جماعة البوند) مما دفع لينين للتصدي الحازم لتلك الجماعة وفضح مراميها الشنوفينية، وفي ذات الوقت أظهر الطابع الرجعي لتلك القومية.

ومن البديهي الربط بين ما جرى في روسيا وما تم في فلسطين من المهاجرين الأوائل، الذين جاء جزء منهم من روسيا القيصرية آنذاك وبولونيا، التي كانت تابعة لها، وكانت لهم صلة بحزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي. واستناداً لذلك فعملية التشويش ليست متعلقة بظروف الولادة، وانما هي نتاج سياسة متعمدة، تهدف الى تشويش أفكار العمال وجماهير الكادحين من اليهود، وهذا ما ستجلوه الممارسات اللاحقة للعديد من قيادات الحزب الشيوعي الفلسطيني.

والنقطة الأخرى، التي تحتاج الى نقاش جدي، هي الفقرة الواردة في بيانات مايزون، التي تحمل مصطلح « الشعب اليهودي »، فهذه أيضاً فكرة رجعية ومغرضة، وهي صهيونية صرف، لأن اليهودية طائفة، وليست شعباً، أضف الى ذلك ان الطائفة اليهودية في فلسطين لم تشكل في بداية القرن العشرين أكثر من ٢٤ الف نسمة، أي ما يقل عن ٥ في المائة من العدد الكلي لسكان البلاد[1]. وبفعل الهجرة اليهودية المتواصلة لفلسطين والمنظمة من قبل القائمين على المشروع الكولونيالي الاستيطاني الصهيوني وصل عدد اليهود فيها بعد الحرب العالمية الأولى الى ٥٥ الف مواطن يهودي[2]، وهؤلاء يشكلون نسبة ١٢٪ من مجموع السكان العام، والجزء الأساسي منهم فلسطينيين عرب، ديانتهم اليهودية. واذا افترضنا في أسوأ الأحوال، انهم ليسوا من السكان الأصليين، هل يُعقل أن يعتبروا « شعب »؟!، لا يوجد منطق يجيز ذلك، إلاَّ المنطق الصهيوني، الذي يؤكد بأن هناك علاقة بين يهود العالم، ويعتبرهم « شعب واحد! » و « أمة

(١) فلاديمير كيسيليف ـــ نظرة سوفيتية الى القضية الفلسطينية ـــ أشرف على ترجمته وقام بمراجعته عبد الرحمن الخميسي ـــ صادر عن دار ابن خلدون ـــ الطبعة الأولى ـــ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٨ ص ١٧ .
(٢) ماير فلنر ـــ خمسون سنة... مصدر سابق ص ١٩.

عالمية واحدة!» و« شعب الله المختار » الذي سيعود لـ « أرض الميعاد ». ولكن المنطق العلمي، والماركسي ـــ اللينيني يرفض ذلك، فالمعلم لينين يقول: « ان فكرة الشعب اليهودي الخاص فكرة رجعية من حيث مغزاها السياسي... فالمسألة اليهودية هي كالتالي: الانصهار أو العزلة[1] ». اذن ما هو سر ايراد تعبير « الشعب اليهودي » في البيانات الأولى؟؟ كما أسلفنا، لا يوجد سر في ذلك، بل انه ناتج عن خضوع بعض النواة الأولى لمنطق الصهيونية، ومحاولة هذا البعض للمزاوجة بين الماركسية والصهيونية، وهو ما يعكس التناقضُ الداخلي في ايديولوجية النواة الشيوعية الأولى في فلسطين، (وهو) ما كان يكمن في خصوصية الأرضية التاريخية التي قامت عليها هذه النواة[2]. واستمرت عملية الخلط والتشويش ما بين « الصهيونية البروليتارية » والايديولوجية الماركسية ـــ اللينينية لسنوات عديدة، ولم تتمكن هذه النواة بذاتها من التخلص من هذه الازدواجية بل ان ذلك جاء من خارجها، أي من خلال قيادة الأمميّة الشيوعية (هي التي لعبت) دوراً هاماً في تسريع عملية الانتقال هذه[3]. ومع ذلك لا يمكن الجزم بأن النواة الأولى قد تخلصت كلياً من تأثيرات الايديولوجية الصهيونية.

بالطبع بقي حزب العمال الاشتراكي يعيش حالة صراع داخله، فيما بين جذوره الفكرية القديمة وبين رغبته في الالتحاق بالأممية الشيوعية، وبالتالي تبني الأفكار الماركسية ـــ اللينينية، في ظل هذا الصراع عقد الحزب مؤتمره الثاني في حيفا في أيام ٢ ـــ ٤/اكتوبر/١٩٢٠...[4] وتقريباً بانتظام عقد المؤتمر الثالث في كانون الثاني سنة ١٩٢٢، والرابع في أيلول

---

(١) لينين ـــ ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية ص ١٩١ .

(٢) د. ماهر الشريف ـــ الأممية الشيوعية وفلسطين (١٩١٩ ـــ ١٩٢٨) ـــ دار ابن خلدون ـــ بيروت ـــ الطبعة الأولى ١٥/١/١٩٨٠ ص ٩٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٦ .

(٤) ماير فلنر ـــ خمسون سنة... مصدر سابق ص ٣٣.

سنة ١٩٢٢، وكانت النقاشات تنصب وتدور في الأساس حول قضيتين أساسيتين:

١ ـــ الموقف من الصهيونية.

٢ ـــ الانضمام الى الأممية الشيوعية.

وكانت ثمة علاقة بين القضيتين، فما دام الحزب لم يتخلص نهائياً من بقايا الايديولوجية الصهيونية فانه لم يكن قادراً على دخول الكومنترن، وقد أدت هذه الصراعات داخل حزب العمال الاشتراكي الى انقسامات والى وحدة من جديد.

وطيلة زمن معين ظهر تنظيمان. الحزب الشيوعي الفلسطيني. وحزب الشيوعيين الفلسطينيين[1] ومن بين المحطات الهامة في تاريخ الحزب، كان المؤتمر الخامس، الذي عقد في تموز (يوليو) ١٩٢٣. ففي المؤتمر اشترك رفيق عربي بالقاء كلمة على عكس المؤتمرات السابقة[2].

لماذا كان المؤتمر الخامس محطة هامة؟ والى ماذا يرمز اشتراك رفيق عربي في المؤتمر؟! هل يعني ذلك بداية التعريب للحزب؟ وماذا حصل بمسألة الانتماء للأممية الشيوعية؟ هل حُلت؟ وما هي شروط الكومنترن على الحزب لكي يكون عضواً في الأممية؟؟

اعتبر المؤتمر الخامس، محطة هامة لأنه ضم بين جنباته بعض العرب، وسمح لعربي أن يشارك بالقاء كلمة أمام المؤتمرين، وهي المرة الأولى منذ تأسيس الحزب، ويمكن اعتبار ذلك خطوة أولى على طريق التعريب، وهي خطوة مهمة وجديدة في عمل الحزب ونشاطه، ولكن ذلك لم ولن يعني التعريب، وأما مسألة الانتماء للأممية الشيوعية، فكانت مسألة وقت وبشرط موافقة الحزب على « التعريب » ودون ذلك لا يمكن الحصول على العضوية. فقد كانت قيادة الأممية الشيوعية مترددة بالاعتراف

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٩ .

بالحزب الشيوعي في فلسطين (وهذا) ينبع أساساً من اقتصار عضوية هذا الحزب على الثوريين اليهود. ولم يتم قبول الحزب رسمياً في صفوف الأممية الشيوعية الاّ بعد أن وافقت قيادته على انجاز سياسة التعريب[١]. وفي شباط ١٩٢٤ قُبل الحزب الشيوعي الفلسطيني في الكومنترن[٢].

على الرغم من قبول الكومنترن الحزب في عضويته، يبقى السؤال المركزي يطرح نفسه بقوة، هل التعريب أمرٌ ممكن؟ وكيف تنظر الجماهير العربية تجاه المهاجرين الجده ــ اليهود؟؟ وهل الشيوعيون اليهود الأوائل استوعبوا الواقع المعطى، المحدد، واقع الجماهير العربية الفلسطينية، التي يعيشون بعيداً عنها، مع انهم علىٰ ذات البقعة الجغرافية ــ فلسطين ــ؟؟

مما لا شك فيه، ان عملية التعريب ليست عملية حسابية بسيطة واحد + واحد يساوي اثنين، بل هي عملية معقدة وصعبة، ولكنها بالمقابل لم تكن عملية مستحيلة، لو كان هناك اخلاص لعملية التعريب ذاتها. ومن تلك الصعوبات الموضوعية، التي كانت تعيق وصول الشيوعيين اليهود الأوائل للجماهير العربية هي: اللغة، العادات والتقاليد المتباعدة، ابتعاد الأرض عن السماء، وكان يمكن لهذه العقبات الموضوعية أن تحل لو لم يكن الرفاق اليهود في نظر السواد الأعظم من الجماهير الكادحة العربية... مجموعة من المستوطنين الأجانب الذين قدموا الى البلاد في عداد هجرة بشرية هدفها غزو فلسطين واقامة دولة يهودية فيها[٣].

ورغم ذلك، رغم هذه الحواجز الخطرة، استطاع الشيوعيون اليهود في ظل ظروف موضوعية مؤاتية لانتشار الفكر الشيوعي بين الجماهير العربية الكادحة... في استقطاب عناصر عربية وتنظيمها في صفوف الحزب الشيوعي[٤] بحيث اصبح يضم ثمانية اعضاء (عرب) في عام ١٩٢٥[٥].

(١) د. ماهر الشريف ــ الأممية الشيوعية وفلسطين... مصدر سابق ص ٢٠٣.
(٢) ماير فلنر ــ خمسون سنة... مصدر سابق ص ٤٠.
(٣) د. ماهر الشريف ــ الأممية الشيوعية وفلسطين... مصدر سابق ص ٢٠٣.
(٤) المصدر السابق ص ٢٠٤.
(٥) المصدر السابق ص ٢١٣.

ويؤكد محمود الأطرش، أحد الشيوعيين الأوائل من العرب، الذين التحقوا بالحزب، بانه كان بامكان الشيوعيين استقطاب اعداد كبيرة من العمال العرب وتنظيمها في تلك الفترة « لو لم يتخذ بعض الرفاق اليهود موقفاً مائعاً من قضية الهجرة اليهودية الى فلسطين، حيث كانوا يعتقدون بأن مجيء ديمقراطيين يهود الى البلاد سيساعد الحزب في نضاله ضد الاقطاعيين العرب[١].

وهنا يبرز السؤال مجدداً، هل يعود اليهودي ديمقراطياً اذا مارس الاستيطان على حساب ابناء شعب آخر؟؟ وهل كانت المشكلة مع الاقطاعيين العرب أم مع الانتداب البريطاني والهجرة اليهودية؟؟ كائناً من كان، وبغض النظر عن جنسيته وطائفته وعرقه، لطالما جاء مستعمراً ومستوطناً، فهو لا يمت للديمقراطية بصلة، بل هو عدو لها، وهذا ما ينطبق على اليهود، الذين يعتبرون أنفسهم ديمقراطيين، ويعتقدون انهم جاؤوا لـ « انقاذ المدينة » من الضياع، من « الاقطاعيين العرب! »، انه التشويه المتعمد والمقصود، والذي استهدف التضليل والتزوير للحقائق الناصعة ولتبرير الهجرة الصهيونية لفلسطين، التي كانت وما زالت أحد أهم عناصر المأساة الفلسطينية.

وأما بصدد الاقطاعيين العرب، فلكي تكون المحاكمة علمية وصائبة لهم، لا بد من التمييز بين تلك الحفنة التي باعت أرضها، وأصبحت تشكل اداة طيعة بيد الامبرياليين، نتيجة انتقالها لموقع طبقي جديد، موقع الكمبرادور الذي يشكل صلة الوصل ما بين الشركات الامبريالية ومن ضمنها الشركات الصهيونية وبين السوق المحلية، هذه الفئة المحدودة والقليلة العدد يجب محاربتها وتوجيه النيران عليها، ولكن هل محاربة هذه الفئة يستدعي كل تلك الموجات من الهجرة اليهودية؟؟ بالتأكيد لا. أيضاً ولخصوصية الوضع في فلسطين آنذاك، وقبل أن يُذكر الاقطاعيون العرب، على اعتبار انهم في الخندق المعادي، كان يجب أن يُذكر الاعداء

(١) المصدر السابق ص ٢١٦.

المحسوسون والملموسون لأعين وأيدي وأجساد الناس، جماهير الفقراء العرب، أي الانتداب البريطاني والصهاينة، وأما الاقطاعيون فأولاً لا يمكن القول، بأنهم جميعاً آنذاك كانوا في الخندق المعادي، في ظروف الصراع القومي، باستثناء تلك المجموعة، التي ذكرناها آنفاً، وأما الجزء الباقي فرغم كل ممارساته الخطيرة، فهو كان يقف على رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، وصحيح ان سياسة هذا القسم كانت تصب بالمصلحة في مصلحة الانتداب والصهاينة من ورائه، ولكن كان لا بد من التمييز عند التحديد، كان يجب على الأقل تحييد اذا لم نقل كسب رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، والتي كان لها تأثير شبه كلي على جماهير الفلاحين، والذين يشكلون الأغلبية آنذاك في التركيب الاجتماعي الفلسطيني.

وخلاصة القول، ان الرفاق اليهود، لم يكونوا مستوعبين الواقع العربي، ولا هم أيضاً مدركين جيداً العدو الحقيقي من الصديق الحقيقي، رغم كل التعابير والكليشيهات، التي تدبج بعبارات نارية أحياناً ضد الانتداب وضد الصهيونية.

ولا نتجنى في ذلك، فعلى صعيد عملية التعريب، التي كان يجب أن تكون وتبقى في سياسة الحزب الحلقة المركزية، فرغم الاقرار بها، الاّ ان الحزب في الممارسة العلمية كان بعيداً جداً عن ذلك، كان (التعريب) مجرد شعار اكثر من كونه حقيقة واقعة[1]. بحيث بقي الحزب في توجهاته « حزباً يهودياً » بمعنى ان نشاطه كان موجهاً بصورة رئيسية باتجاه التجمع اليهودي في فلسطين « الييشوف »[2].

وتأكيداً على ذلك، نستشهد بما ورد في مقالة « حاييم اورباخ » (ابو زيام) وهو من مؤسسي الحزب، وأمينه العام حتى العام ١٩٣٤، والمقالة مؤرّخة في ١٩٢٥/٦/١، يقول فيها: « لا تزال الحركة العمالية في فلسطين حتى الآن يهودية صرفة. ومما يميز العمال اليهود الذين

---

(١) د . فائق حمدي طهبوب ــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ٦١ .

(٢) د . ماهر الشريف ــ الأممية الشيوعية... مصدر سابق ص ٢١٢ .

وصلوا الى تلك البلاد هو ميولهم القومية الواضحة. غير ان قوميتهم تلك لم تنحصر في مستواها الانتمائي بل ارتقت الى مستوى الأهداف أيضاً (أهداف المشروع الكولونيالي الصهيوني). من هنا كان اورباخ قادر على أن يفهم كيف أن « أول أيار بقي في نظر الجماهير العربية في هذه البلاد عيداً يهودياً (بحيث) ارتبطت محاولات الشيوعيين القيام بمظاهرة احتفال سنة ١٩٢١ بمذبحة دموية في الشوارع[1].

والاستنتاج المنطقي من حديث ابو زيام، ان الحركة العمالية محصورة في القطاع اليهودي، اذن يجب أن يبقى الشيوعيون في إطارها، وان لا يخرجوا الى الفلاحين الفقراء والصغار من العرب، لكي لا ترتبط احتفالات أيار بمذابح جديدة!! يجب أن تبقى الصرخة هناك داخل الغيتو!! وتختنق هناك (في الغيتو)!! ولم يحدد « ابو زيام » سبباً لذلك، بل تجاهل الأمر كلياً، وهو لم يشر أيضاً ــ وهذا هو الأهم ــ الى أفق معين يمكن أن يخرج الصراع فيه من إطار المذابح « القومية » وهو الأفق الذي لا بد له أن يستند على تحديد ايديولوجي وسياسي للصراع في فلسطين، مناقضاً لتحديد « التذابح القومي » اذ ليس الصراع في فلسطين صراعاً بين قوميتين[2] ».

وفي السياق نفسه، يقول توفيق العبسي (ابو العبد عمروف)، أحد الشيوعيين القدامى في الحزب الشيوعي الفلسطيني: « اذكر مرة سألت الرفيق خليل [يهودي ــ روسي الأصل، طردته حكومة الانتداب البريطاني الى الاتحاد السوفييتي] لماذا يتجاهل الحزب العمل في صفوف الفلاحين، مع ان بلادنا فلاحية، والطبقة العاملة قليلة العدد؟ فأجاب بأن الحزب

---

(١) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٧٣ ــ وهو عبارة عن مقالة (وثيقة) لـ « حاييم اورباخ » (أبو زيام ــ هو من مؤسسي الحزب ــ وأمينه العام حتى ١٩٣٤ كتب مقالاً في مجلة « المراسلة الاممية » يوم ١٩٢٥/٦/١ بتوقيع أ . م حول دور الحركة الشيوعية في تلك الفترة).

(٢) المصدر السابق، ص ٧٣ ــ ٧٤.

يراهن أساساً على تحالف العمال اليهود ووحدتهم مع العمال العرب، وأن هؤلاء سيقومون بالثورة، لا الفلاحين، كما ان المستقبل للطبقة العاملة[1] ».

انتظروا الى « ما شاء الله! » حتى يصبح في فلسطين بروليتاريا!! واتركوا الفلاحين يهيموا على وجوههم بدون قيادة أو بتعبير أدق تحت قيادة الاقطاعيين « أعدائكم! » الاّ تدلّل هذه الأمثلة الحسية مجدداً على عقم المفاهيم والطروحات التي يرددها ويتداولها ويروجها الشيوعيون اليهود، ليس هذا فحسب، بل خطر ذلك على تعريب الحزب، وبالتالي تجاه الجماهير العربية الكادحة من مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية. ولا يبدو ان الرفاق اليهود تعلموا من دروس ثورة اكتوبر المجيدة في روسيا السوفيتية، فصحيح انها ثورة العمال، وأقامت ديكتاتورية البروليتاريا، ولكن تم ذلك بفضل التحالف الطبقي والسياسي مع الفلاحين الصغار وممثليهم من القوىٰ السياسية.

وبفضل هذه السياسة، بقي الحزب يراوح « مكانك عُد » طيلة فترة العشرينات، على الرغم من النداءات المتكررة، التي كان يوجهها الكومنترن للحزب، بضرورة التعريب والاسراع في التعريب، لما لذلك من أهمية قصوىٰ تحديداً لجهة الوصول الى الجماهير العربية الفقيرة من العمال والفلاحين والمثقفين صاحبة البلاد، وصاحبة المصلحة الحقيقية في أي ثورة مهما كان نوعها في الاطار الوطني؛ ولما لذلك من أثر في نشر الفكر الماركسي ــ اللينيني بين أوساط هذه الجماهير لتخليصها من

(١) توفيق عبد الحفيظ العبسي « أبو العبد » أجرت معه مجلة الحرية الناطقة بلسان الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين مقابلة هي بمثابة وثيقة مهمة، (أجرى اللقاء) علي حسين خلف، نزلت في العدد ١٩٨٢/٤/١٩، رقم ١٠٦٠، ص ٣٥ ، تحت عنوان « البدايات والتعريب في أوراق شيوعي فلسطيني ١٩٢٧ ــ ١٩٣٧ ».
الرفيق « أبو العبد » شيوعي قديم، عامل البناء في يافا، وعضو خلية في ما بين ١٩٢٧ ــ ١٩٣٠، والعضو الكادر في دورتين حزبيتين في جامعة كادحي الشرق. ١٩٣٠ / ١٩٣١ و١٩٣١ / ١٩٣٢، وخــريج جامعــة تفلـيس في جورجيــا ١٩٣٢ ــ ١٩٣٦ .

الأفكار الغيبية، وبالتالي تخليصها من هيمنة القيادات الاقطاعية وسياستها المتهادنة مع الانتداب البريطاني، والذي يعني تحررها من كل ذلك حين تدرك مصالحها.

باختصار يمكن القول، ان الحزب الشيوعي الفلسطيني، رغم التقاطه بعض العناصر العربية في صفوفه، الاّ انه لم يكن يوماً من الأيام طيلة عقد العشرينات، حزباً للجماهير العربية، بل حزباً غريباً عن هذه الجماهير، وأحياناً في خندق معاداة الجماهير العربية بنتيجة استمرار الأفكار الصهيونية معشعشة في رؤوس العديد من قادة وكوادر الحزب الشيوعي، وأبرز مثل على ذلك موقف الحزب من ثورة ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢٩ (ثورة البراق)، حيث اعتبر (الحزب) الجماهير العربية الثائرة والمنتفضة على الظلم والاستغلال، بأنها جماهير متزمتة من الفلاحين والبدو، تحت قيادة البرجوازية والاقطاعيين ورجال الدين قد هاجمت وأحرقت المستوطنات والمعابد والمدارس اليهودية، وقتلت المواطنين اليهود الفقراء والعزّل من السلاح واقترفت مذابح مخيفة[1].

هكذا وبكل بساطة، توصف انتفاضة شعبية بأنها « فتنة طائفية » و « مذابح عنصرية ضد اليهود »، (ليس هذا فحسب، بل ان قيادة الحزب) تمادت في موقفها فأعطت الأوامر لأفرادها للمشاركة في الدفاع عن الأحياء اليهودية[2].

هنا تجلىٰ موقف الحزب المعادي للجماهير العربية الفلاحية والبدوية الفقيرة بكل وضوح، فهو لم يكتفِ بوصف الانتفاضة الشعبية بـ « المذابح » و « الفتنة الطائفية » لا بل دعا أعضاءه اليهود للقتال ضد العرب! أو

(١) د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٤٨ .
الملحق الرابع من الكتاب، وهو عبارة عن وثيقة ــ المذبحة في « الأرض المقدسة » بقلم ج. ب . (القدس) المراسلات الصحافية الاممية (La Correspondance Internationale) العدد ٨٤، ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٩ ص ١١٥٥ ــ ١١٥٦ .
(٢) د . فائق حمدي طهبوب ــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ٦٦ .

حسب التعبير الذي ورد « الدفاع عن الأحياء اليهودية »؟!. اليس غريباً هذا الموقف عن حزب يفترض في نفسه حزب العمال وكل الكادحين؟، وأي حزب هذا الذي يتصدىٰ لانتفاضات الجماهير الشعبية والناتجة عن شعورها بالظلم والاضطهاد، وحيث تسرق أرضها أمام عيونها وتمنح لمن لا يستحق، لأولئك المستوطنين الصهاينة!، وبعد ذلك يقف الحزب الشيوعي ليحكم على هذه الانتفاضات بأنها « مذابح » و « فتنة عنصرية »!!؟. انه دليل جديد، يؤكد بأن الحزب كان بعيداً عن الجماهير العربية، انه لم يكن منها، وبالتالي لم يكن لها، لم يكن حزبها.

لقد كانت الانتفاضة عميقة بمدىٰ عمق حقد الجماهير العمالية والفلاحية والحرفية والبدو على الانتداب البريطاني وأدواته المستوطنين، وتمكنت (الانتفاضة) من ابادة سلسلة كاملة من المستعمرات الصهيونية، وخاصة التي أقيمت في مرج ابن عامر. وحين بدا ان الانتفاضة مرشحة فعلاً للاتساع والتعمق وذلك حين قدم العديد من المقاتلين من لبنان وشرق الأردن. استعمل الانجليز ضدهم الطيران والغاز، وأطلقت المدفعية نيرانها على العرب العابرين نهر الأردن، و « سارعت المراكز الاستعمارية التابعة لبريطانيا في شرق الأردن ومالطة ومصر الى ارسال قوات كثيفة تولت عملية قمع الحركة الجماهيرية[1] ».

واستغلت الولايات المتحدة الأميركية وجود عدد من المواطنين الأميركيين بين صفوف الضحايا، كذريعة لممارسة ضغط شديد على انكلترا (ووصل بها الأمر إلى حد التهديد بانزال قوات أميركية!)، مما دفع الحكومة الى الاعتراف بأن التحريض على المذابح قد تجاوز الحد المفيد بالنسبة اليها[2].

وأما موقف الحركة الوطنية، فقد كان موقفاً مخزياً ومتآمراً على الانتفاضة فلقد حرصت تلك القيادة حرصاً شديداً على لجم الانتفاضة

(١) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ١٥٩ .
(٢) د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة... الملحق الرابع ــ مصدر سابق ص ٤٩

كما ظهر ذلك في البيان الذي أذاعه مفتي القدس وبعض وجهاء العرب، حيث اطلقوا عليها « الفتنة المؤسفة » ودافعوا عن موقف سلطات الانتداب، وحين طالب المفتي الحاج أمين الحسيني الجماهير الى الامتناع عن الهجوم على حكومة الانتداب هتفت بأعلىٰ صوتها « خائن، خائن »[1].

هكذا نجد، ان الانتفاضة في واد ومجموع القوىٰ القائمة في فلسطين في واد آخر، ابتداءً من الانتداب مروراً بالصهاينة والقيادات الاقطاعية وشبه الاقطاعية وصولاً الى الحزب الشيوعي الفلسطيني، فجميع هذه القوىٰ تحاكم الانتفاضة الشعبية أما على أساس انها « فتنة مؤسفة! » أو « فتنة طائفية » أو « مذبحة ضد اليهود! » دون أن يدقق على الأقل حزب الجماهير! الحزب الشيوعي في دوافع الانتفاضة!، لكن كيف له أن يفعل ذلك ولا يوجد عنده الحد الأدنى من الالمام بما تعيشه الجماهير وتعانيه من آلام ومصائب نتيجة سياسة الانتداب وحلفائه الصهاينة! ولازالة الغباش اكثر عن تصرف قيادة الحزب أثناء الانتفاضة، نورد وصف جوزيف برجر، الذي كانت قيادة الحزب مجتمعة في بيته، في قرية بيت صفافا، فيقول: لقد أصبنا جميعاً، « بدهشة عارمة، فقد كان رد الفعل الأول للحزب » حتى قبل التفكير في الموقف النظري الواجب اتخاذه « هو في كيفية الدفاع عن النفس، فهؤلاء الشيوعيون » من أصل اوروبي والمقيمون في بيت منعزل ادركهم الخوف على حياتهم، وعندما وصلت الشاحنة التابعة للهاجاناه لنقل السكان المعزولين « لم نفكر إلاَّ بالصعود اليها »[2] بدل أن ينضموا الى جماهير الكادحين المنتفضة، التحقوا قيادات الحزب بالهاجاناه وبناءً عليه كان تقييمهم للانتفاضة بأنها « مذبحة ضد اليهود »؟!.

الجهة الوحيدة، التي انصفت الانتفاضة واعادت لها الاعتبار هي الأممية الشيوعية، فما ان اطلع الكومنترن على موقف قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني من الهبة حتى سارع باستنكاره، وشجب بشدة تأثير الأفكار الصهيونية الاستعمارية على الحزب..

(١) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ .

وفي أعقاب تحليل شامي وديمشتاين، نشرت مجلة « الثوري الجديد » الموسكوفية ان افيغدور وابو زيام وجوزيف بيرغر، وسائر المختصين بمكافحة الصهيونية في الكومنترن، قد كشف أمرهم كعملاء للاستعمار، يدعون للصهيونية تحت ستار من الهجمات المفتعلة عليها. وبذلك انتهى الكومنترن الى الأخذ بتفسير شامي وديمشتاين لهبة ١٩٢٩، اذ رأى فيها « ثورة من الفلاحين ضد الاستعمار البريطاني وأعوانه من الصهيونيين، ونسب انحراف الحزب الشيوعي الفلسطيني، لدى تحليله الهبة الى « العناصر الصهيونية » التي تسللت الى قيادة الحزب. وفي وقت لاحق فسرت وثائق الكومنترن هذا الانحراف باعتماد الحزب « موقفاً خاطئاً في المسألة القومية الفلسطينية، أي في مسألة دور الأقلية « القومية » اليهودية في فلسطين ازاء الجماهير العربية. ونتيجة ذلك، لم يقم الحزب بنشاط عملي بين الجماهير العربية، وظل قطاعاً انعزالياً يعمل بين العمال واليهود وحدهم[1].

هذا وحددت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية اهداف الثورة، بالاطاحة بالأمبريالية والتوحيد القومي لكل الأقطار العربية، والثورة الزراعية وحل المسألة القومية. وأما طبيعة الثورة فحددتها كثورة برجوازية ديمقراطية بالمفهوم اللينيني للاصطلاح[2].

وبناءً على هذا التحليل والتقييم للانتفاضة، قرر القسم الشرقي التابع للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية التدخل فعلاً، وبشكل مباشر، من أجل حسم هذه القضية (معارضة التعريب)، فقام باستدعاء قادة الحزب المعارضين لسياسة التعريب إلى موسكو للعمل في أجهزة الأممية الشيوعية، وكان ابرزهم الأمين العام للحزب « أبو زيام » وعضو السكرتاريا والمكتب السياسي « نداب » وقرر في الوقت ذاته، انهاء فترة دراسة الكوادر العربية

(١) عبد القادر ياسين ــ تاريخ الطبقة العاملة... مصدر سابق ص ٢٤٤ .
(٢) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٣٣٣ .

في جامعة كادحي شعوب الشرق، وكان ابرزهم « محمود الأطرش » وايفادهم الى فلسطين للاشتراك في انجاز خطة التعريب[1].

وكان لهذه القرارات اثر ايجابي في نفوس الحريصين على اتمام عملية التعريب فهذا محمود الأطرش يقول: وقد علمت عن طريق السكرتاريا، باستعداد كاتب الحزب الأول « ابو زيام » وكذلك « نداب » عضو السكرتاريا للسفر الى الاتحاد السوفييتي فاستبشرت بسفرهما خيراً، لأنهما كانا من أكبر أعداء خطة التعريب[2].

في ظل هذه الأجواء الايجابية بالمقاييس النسبية، انعقد المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني بمدينة القدس، في اواسط شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٠ بمساهمة ٤٠ مندوباً، وباشتراك ممثل عن قيادة الأممية الشيوعية هو الهنغاري « هانز » وللمرة الأولى في تاريخ الحزب، كان عدد المندوبين العرب الى مؤتمر الحزب يساوي عدد رفاقهم اليهود[3].

وفي ختام أعمال المؤتمر، انتخب الحزب، لجنة مركزية جديدة ضمت ولأول مرة في تاريخ الحزب، أغلبية من الشيوعيين العرب، كان من بينهم « محمود الأطرش » و « نجاتي صدقي » و « يوسف خلف » و «علي الجيباوي » وفي الاجتماع الأول للجنة المركزية الجديدة، جرى انتخاب اعضاء المكتب السياسي وأعضاء السكرتاريا الثلاثة (اثنان عربيان، هم) « نجاتي صدقي » و « محمود الأطرش »[4].

ويمكن القول، بان الحزب الشيوعي الفلسطيني دخل مرحلة جديدة بانعقاد المؤتمر السابع للحزب، وتكللت أعماله بالنجاح، وبذلك يكون خلع ثوب التشويش والضبابية، ولبس ثوب الوضوح، ثوب الطريق الثوري الحقيقي، طريق الاقتراب من الجماهير العربية، كونه صاغ برنامجاً ناضجاً

(١) د. ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ٥٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٨ ــ ٥٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٩ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٠ .

بالقياس الى برامجه السابقة، هذا من الزاوية النظرية، ويمكن اعتبار ما جرىٰ انه ثورة جديدة في حياة الحزب، أو تأسيس جديد للحزب، وهذا تم بفضل الكومنترن كما رأينا.

وهنا يبرز سؤال مشروع، هل هذه الصورة المشرقة نظرياً تجسدت على أرض الواقع؟؟ أم ان هناك ما أعاق تطبيقها؟؟، في الحقيقة لم يعان الحزب من الخطر الداخلي فقط، رغم مركزيته، لا بل، تكالبت عليه كل قوىٰ الشر الامبريالية، التي تسربت اليها نتائج المؤتمر السابع، فأغاظتها، وزادت من حقدها على الحزب، فعملت كل ما بوسعها على قتل النتائج الايجابية بسرعة فلم تمض أسابيع قليلة على انتهاء أعمال المؤتمر السابع للحزب حتى قامت سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين باعتقال العضوين العربيين في سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي « محمود الأطرش » و « نجاتي صدقي » إثر خروجهما من أحد الاجتماعات في مدينة القدس عشية الأول من شباط (فبراير) ١٩٣١. وفي ذات العام قامت السلطات الانجليزية بابعاد ٤٤ شخصاً الى خارج فلسطين، وكان بينهم ١٧ شيوعياً يهودياً، وفي نيسان (ابريل) ١٩٣٢، اعتقلت ٨٠ ثورياً من العمال العرب واليهود في مختلف مناطق البلاد، بهدف منع الحزب الشيوعي من تنظيم حملة الأول من أيار (مايو)[1].

هكذا نرىٰ، ان سلطات الانتداب كانت بالمرصاد للحزب وتطوره، فما ان شعرت بأن عملية التخريب من الداخل افتضحت وتعرت، وبالتالي اصبح طريق تطور الحزب سالكاً، حتى أخذت على عاتقها استكمال مهمة اولئك العملاء الصهاينة، وبناءً عليه لم تترك فرصة للحزب الشيوعي لتجسيد برنامجه والسير نحو التعريب، حيث كانت قرارات الحزب شديدة الوضوح والحزم تجاه هذه المسألة. لكن سياسة الاعتقال البريطانية لقيادات وكوادر الحزب اربكت الحزب، ووضعته في دوامة عدم الاستقرار القيادي، وغياب الكادر العربي المؤهل وصعوبة الأوضاع التنظيمية... (وبذلك) بقيت سياسة

(١) المصدر السابق ص ٧٣ .

التعريب التي تبناها الشيوعيون الفلسطينيون بحزم في مؤتمرهم السابع، تراوح بين التبني النظري وبين العجز عن التطبيق العملي إلى حين تسلم « رضوان الحلو » (موسىٰ) منصب الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٣٤[1].

ومن البديهي القول، ان الشيوعيين العرب كانوا توّاقين الى التعريب، ويشعرون أكثر من رفاقهم بالحاجة الماسة والعاجلة لانجاز تعريب الحزب الشيوعي الفلسطيني. وهذا ما يؤكده « محمود الأطرش »: وهكذا توصلنا الى القناعة بأن انجاز تعريب الحزب كان ضرورياً ليس فقط لأن غالبية سكان فلسطين تتشكل من العرب، ولكن خصوصاً لأن المرحلة الأولىٰ من مراحل النضال الثوري الدائر في فلسطين آنذاك كانت مرحلة الثورة الوطنية التحررية، التي لا يمكن أن تخوضها سوى الجماهير العربية. وكان ينبغي على الحزب الشيوعي أن يقوم بتعريب صفوفه اذا كان يطمح حقاً الى انتزاع قيادة ذلك النضال في سبيل التحرر الوطني من أيدي البرجوازية[2].

هذه الرغبة الجامحة من قبل الشيوعيين العرب اصطدمت بأكثر من حاجز. وعقبة ففي البداية كانت العقبة من داخل الحزب وفي المرة الثانية كانت من خارجه (الانتداب البريطاني)، ولم يقتصر أمر محاربة التعريب في فلسطين من قبل القيادة السابقة للحزب، التي تم استدعائها لموسكو، لا بل واصلت تلك العناصر دورها المعيق في موسكو أيضاً، فبعض قادة الحزب مثل السكرتير العام « ابو زيام » كانوا يتخوفون من احتمال انتقال مواقع المسؤولية داخل الحزب الى أيدي الكوادر العربية، التي كان يجري اعدادها في موسكو.

ويدلّل على ذلك « محمود الأطرش » حين يقول، ان « ابو زيام »... ربما يكون قد سعىٰ الى ادخال بعض التعديلات على البرنامج الدراسي في الجامعة وذلك بهدف تخفيض مستوىٰ التعليم، كما سعىٰ في سبيل

(١) المصدر السابق ص ٧٤ .
(٢) د . ماهر الشريف ـــ الاممية الشيوعية وفلسطين... مصدر سابق ص ٢١٩ .

عودة الموفدين العرب الى فلسطين قبل انتهاء الفترة المقررة لهم[1].

وهو ما يؤكده أيضاً « توفيق العبسي » (ابو العبد)، الذي قال: وقبل بدء الدراسة عقد الكومنترن لقاءً موسعاً للطلبة، وتحدث الرفيق ماديار عن التعريب، فقدّمت جيرافا وسينونوفا[2] مداخلات حادّة ضدّه تحت حجة ان العرب ليس لديهم المقدرة ليكونوا في القيادة ويجب أن تبقى القيادة في الحزب الشيوعي الفلسطيني بيد الرفاق اليهود، لأنهم أكثر وعياً وخبرة وتنظيماً[3]. ويتابع الرفيق « العبسي » فيقول: وفي حملة التطهير في الاتحاد السوفييتي القي القبض على جوزيف بيرغر، وطرد من الحزب (الحزب الشيوعي السوفييتي) وسجن لمدة عشر سنوات، وبعد اغتيال كيروف، المسؤول الحزبي عن ستالينغراد والشخص الثاني بعد ستالين، تبين ان ماديار وسفاروف وميف، ما هم الاّ أعضاء في المنظمات الارهابية التي اغتالته، وجرى تجريدهم من العضوية الحزبية ونفيهم الى سبيريا.

وتبين أيضاً ان مدير الجامعة (جامعة الشرق للكادحين بموسكو) ورئيس الفرقة العربية، الذي كان صلة الوصل بين الجامعة والكومنترن، كان صهيونياً « افيغدور »، وكذلك الأمر بالنسبة الى « رودن » صلة الوصل بالقادمين الى اوديسا والمغادرين الى أوطانهم. فهل يحق تسمية هذه الوقائع بأنها قضية فكرية، لا، مؤامرة صهيونية؟؟

ومن جانب آخر، مستوى الدارسين الفلسطينيين (المرسلين الى جامعة كادحي الشرق) يثير السؤال نفسه، لماذا يأتي حسن جديدون، الملقب بحسن الفران، مع زوجته عائشة، وهما فوق الخمسين (ضمن عملية خلق الكوادر العربية من أجل بلشفة الحزب!!) مع انهما لا يجيدان القراءة

(١) المصدر السابق ص ٢٢٠ .

(٢) جيرافا وسينونوفا : رفيقتين يهوديّتين تعملان في موسكو ضمن دوائر ولجان الكومنترن المشرفة على الحزب الشيوعي الفلسطيني.

(٣) توفيق عبد الحفيظ العبسي ــ مقابلة الحرية... « البدايات والتعريب » مصدر سابق ص ٣٦ .

والكتابة، في الوقت نفسه، الذي تأتي فيه عناصر يهودية للدراسات العليا؟!، فالرفيق حسن (والحديث للعبسي) « بالكاد » يتمكن من كتابة اسمه، ولا يفقه شيئاً في السياسة. وبسببهما اطلعنا على قصة الرفيق عبد الخالق « علي الجيباوي »، الذي فوجىء به أمياً في الدورة الثانية، ورمى الرسالة في سلة المهملات، بدل أن يضعها في صندوق البريد، وحتى هذا المسكين علي، تخلصوا منه في عام ١٩٣٧، بأن ارسلوه ليقاتل في اسبانيا، وفعلاً ذهب واستشهد هناك، بينما الثورة في بلده تغطي معظم فلسطين. اذا قبلت تفسير هذا الوضع بأنه « التضامن الأممي » فأنا أقبل تفسير مجيء حسن حديدون وعلي الجيباوي، على انه مساهمة في التعريب.

وفيما يتعلق بفترة الدراسة، يقول ابو العبد: لو كانت الدراسة تسير بدورات قصيرة يعود الدارسون بعدها الى أوطانهم، وساعتها من المفيد والضروري استقدام مئات الكادرات العربية، أما تضييع الوقت، واطالته من تسعة أشهر الى تسع سنين، فهي مسألة لا تدخل في حسن النية، لأنها اسهمت بالنسبة لعديد من الرفاق وكرد فعل على المماطلة في دفعهم الى مغادرة الحزب عندما يصلون الى الوطن. ويضيف: لقد افتضح الذين تآمروا وكذبوا علينا وعلى الحزب والكومنترن، كانوا يضطهدوننا بدوافع صهيونية، نحن نعرف ذلك، وهم يعرفونه، وأمام الكومنترن كانوا يتهموننا بالشوفينية والتعصب القومي، يعطلون امكانية أن يستفيد الحزب من نشاطنا في فلسطين، ويفسرون ذلك للكومنترن بأنه محاولة تطوير وتأهيل الكوادر العربية. وسأختصر المسألة بسؤال واحد: جوزيف بيرغر، المعروف بموقفه من ثورة آب ١٩٢٩ (اختلق في هبة آب ١٩٢٩ ما سماه موافقة اللجنة المركزية ومندوب الأممية على التحاق أعضاء الحزب والكتلة العمالية تحت قيادة الهاجاناه ــ المنظمة العسكرية الصهيونية)، هل يعقل أن يصبح بلشفياً بمجرد خروجه من فلسطين الى الاتحاد السوفييتي؟! جاء مطروداً من منصبه كأمين عام للحزب، لموقفه الصهيوني من الثورة، فهل من الممكن وهو رئيس قسم الشرق الأوسط، المسؤول عن كل الأحزاب الشيوعية العربية في المنطقة، أن يمارس موقفاً معادياً للصهيونية؟؟، اذا كنت من الذين يقولون بامكانية ذلك، فأنا من الذين

يرفضون اخفاء انحرافات الرفاق اليهود بحجة الحفاظ على سمعة الحزب واعطائه ما هو خارج تجربته[١].

هذه بعض صور معاداة تعريب الحزب الشيوعي من قبل اليهود المتشيعين الذين دخلوا الحزب من أجل تخريبه وتشويه صورته، ليس فقط أمام العرب، وانما وقبل ذلك أمام الرفاق اليهود المخلصين لقضية الشيوعية.

ومن الجدير بالذكر، ان مواقف الحزب الشيوعي انتقلت خطوة نحو الأفضل بعدما افتضح أمر اولئك العملاء، فمواقف الحزب من الانتفاضات الشعبية اللاحقة كانت مواقف ايجابية وفيها احساس بالمسؤولية تجاه هبات الجماهير الفلاحية والبدوية الفلسطينية. وعلى أثر انتفاضة ١٩٣٣، اعتبر الحزب الشيوعي الفلسطيني الصهيونية سنداً رئيسياً للأمبريالية، وعلى هذا الأساس رفع شعاره القائل، بمقابلة العنف الامبريالي بالعنف الثوري... ووجه الحزب نداءً عشية الثورة، طالب فيه « بالغاء الوصاية، ووعد بلفور، ووقف الهجرة الصهيونية، ومصادرة أملاك الحكومة والملاك العرب والصهاينة وتوزيعها على الفلاحين والبدو الفقراء، وايقاف دفع الديون والفوائد، ومساندة الجياع والعاطلين عن العمل، والدفاع عن المظاهرات ضد العنف الأمبريالي[٢].

بنتيجة هذه المواقف الايجابية، على الأقل في المجال النظري، تجاه الجماهير العربية، نما تأثير الحزب بين الجماهير من العمال والمثقّفين، وصعد نشاطه في التجمعات الشعبية كالنوادي والورش والأسواق، وشارك في انتفاضة اكتوبر بدور غير هين كعضو في الحركة الوطنية، خاصة بعد أن حدث تقارب بين الحزب الشيوعي وحزب الاستقلال وبشكل خاص مع جناحه اليساري، الذي كان على رأسه حمدي الحسيني..

ولكن تلك الاضطرابات لم تحدث تغييرات هامة في خطة الحزب

(١) المصدر السابق .
(٢) د . فائق طهبوب ـــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ١٣٣، أسعد صقر ـــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص. ١٩ .

أو في تكوين قيادته وتنظيم صفوفه، بالرغم من انه استطاع استقطاب عدد من المثقفين العرب الفلسطينيين وقليل من العمال[١].

ومع صعود الفاشية الهتلرية، واتساع باب الهجرة اليهودية الى فلسطين عالج الحزب هذه المسألة انطلاقاً من موضوعة تقول: « ان كل مهاجر هو بالضرورة عدو اضافي للشعب العربي وجندي في خدمة اعداء الاتحاد السوفييتي. ومع ازدياد الهجرة ضاعف الحزب من نشاطه المعادي للهجرة حيث كان أعضاء الحزب بانتظار المهاجرين على أرصفة الموانئ يوزعون المنشورات، التي تؤكد أن الأزمة الاقتصادية تعصف بالبلاد بحيث لن يجد المهاجرون في انتظارهم غير الجوع، وأكدت المنشورات انه ليس من حق اليهود ترك المانيا اذ ان عليهم يقع واجب النضال ضد الحكم الهتلري، ووجودهم في فلسطين لن يؤدي لأكثر من زيادة الاضطهاد الواقع على العرب[٢].

وعلى الرغم من ايجابية هذه المواقف للحزب، ونضجه في معالجة المسائل الواردة أعلاه، لكن الحزب، وكما عودنا فخط سيره لا يستقيم على ما يبدو باتجاه صاعد، ففي حالات الانحسار تبرز عناصر التشويش، وتعود تظهر غيوم الأفكار السوداء، المتأثرة بجذور الولادة. فبعد أن قمعت انتفاضة اكتوبر ١٩٣٣، جاء في صحيفة الحزب باليديش (ها أور ـــ النور) في كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٣ قائلة: « ان الجماهير اليهودية لم تتحقق بعد أي مصير رهيب مخبأ لها في فلسطين ». وتبرز تساؤلات في صفوف الحزب كالتالي: هل بامكاننا أن نقنع العامل اليهودي اليائس القادم الى فلسطين بوجهة نظرنا، مع انه اما أن يكون صهيونياً أو يغادر البلاد. وقد ردت القيادة على هذا السؤال بالايجاب باعتبار ان المطلوب هو فضح التضليل الصهيوني.

الأ في فلسطين حيث يركزون على الفلاحين ويمنحونهم دوراً أكثر تقدمية من البروليتاريا[٣].

(١) د . فائق طهبوب ـــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ١٣٤ .
(٢) سميح سمارة ـــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٢١٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٢١٢ .

من البديهي القول، ان هذه التساؤلات انما تعبر عن حالة القلق وعدم الاستقرار التي يعيشها اليهود، الذين جاؤوا مستوطنين في أرض ليست أرضهم، ونتيجة ما تعيشه البلاد من حالة سخط وغليان، فما ان تهدأ البلاد حتى تعود وتنفجر ثانية، هذا بالاضافة الى التشوش النظري، حيث لم يدرك اليهود « الشيوعيون » لماذا يجري التركيز في فلسطين على الفلاحين وليس على البروليتاريا؟؟ فهم لم يدركوا بأن الغالبية الساحقة من شعب فلسطين هم من الفلاحين، ولهذا وحده كان يتم التركيز على الفلاحين وليس على البروليتاريا، لأنها قليلة العدد، وهي بعد لم تصبح طبقة بالمعنى الكلاسيكية للكلمة.

وجاء موقف الكومنترن في المؤتمر السابع عام ١٩٣٥ لكي يعزز الاتجاه الايجابي في سياسة الحزب، فجاءت القرارات التي صدرت عن المؤتمر السابع للكومنترن لكي تدعم موقف قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني، القائم على بناء شبكة من التحالفات مع القوى القومية المحلية، وذلك بعد أن أقر المؤتمر هذا التكتيك الجبهوي[(١)].

وبفضل هذه السياسة، وهذا التكتيك كان الحزب الشيوعي طرفاً في ثورة ١٩٣٦ عندما انفجرت، الى جانب بقية فصائل الحركة الوطنية الفلسطينية. وقد اتصلت قيادة الحزب بالحاج أمين الحسيني من أجل التنسيق والعمل معه، (كما) وأصدر الحزب بياناً في أول أيار أيد فيه مطالب الحركة الوطنية، وطالب بمنح فلسطين الاستقلال والحكم الديمقراطي ووقف الهجرة اليهودية ومنع انتقال الأراضي الى المستوطنين اليهود[(٢)]. لكن الحزب لم يستطع أن يكون قوة مؤثرة في الثورة. ومع ذلك ساهم الحزب بامكانياته المتواضعة في الثورة.

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٢ .

(٢) د . فائق طهبوب ــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ١٥٢، أسعد صقر ــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ١١٠ ، سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... ص ٢١٣، عبد القادر ياسين ــ مصدر سابق ص ٢٤٧ .

ففي هذه الأثناء وجه الحزب نداء لليهود « البيشوف » قال فيه: « يدعوكم الحزب الى طريق الحياة والحرية. اتركوا معسكر الاجتياح الصهيوني، فوحدها الحركة الوطنية الكفيلة بتقديم الحل الحقيقي لمشكلة الأقلية اليهودية » وأضاف النداء: « ندعو الجماهير اليهودية للانضمام الى الأضراب ومتابعة النضال من أجل المطالب التالية: « رفض الانتداب وتصريح بلفور، مجلس نيابي شعبي ديمقراطي. ايقاف الهجرة واحتلال العمل والأرض[(١)].

لم يكن رد فعل الشيوعيين اليهود ايجابياً مع نداء الحزب، وان تجاوب عدد محدود مع نداء اللجنة المركزية، الأ ان الأغلبية الساحقة من الأعضاء اليهود وضعوا أمام أزمة ذاتية، لم يجدوا لها مخرجاً الأ بالانسحاب من الحزب كما حدث في سنة ١٩٣٦ و١٩٣٧ حيث تمردت فروع بكاملها، كما هو الحال مع فرع تل أبيب وسكرتيره اربيه ليف، الذي تم فصله لعدم انضباطيته. وللحد من الانقسام داخل الحزب، والتصدي له وخاصة بعد الاعتقالات التي تمت في صفوف اللجنة المركزية واعتقال السكرتير العام للحزب رضوان الحلو (موسى) في اواخر سنة ١٩٣٦ اقترح الأعضاء الباقون في اللجنة المركزية تشكيل قسم في الحزب خاص باليهود. واعتبر قادة الحزب وخاصة سميحة تساباري مساعدة موسى ان مهمة سكرتارية « القسم اليهودي » تقوم على نقل قرارات اللجنة المركزية الى الأوساط اليهودية دون أن يكون له أي حق باتخاذ القرارات بشكل مستقل[(٢)].

وبالطبع لم يكن القرار بإقامة « قسم يهودي » داخل صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني قراراً « نهائياً »، وانما كان قراراً « مؤقتاً » فرضته الأحداث، وظروف عمل الحزب في تلك المرحلة[(٣)].

---

(١) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٢١٣، د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة القومية مصدر سابق ص ٩١ .

(٢) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٢١٥ .

(٣) د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة القومية ــ مصدر سابق ص ٩٦ .

وفيما بعد تم انتخاب جانوخ بسوسا (زاكين أو الختيار) سكرتيراً له (للقسم) عمل بسوسا منذ اللحظة الأولى على تأكيد استقلالية القسم... واستغل بسوسا الفرصة وأخذ يشد القسم الى ذاته مبعداً الأعضاء الذين كانوا مرتبطين بهذا الشكل أو ذاك باللجنة المركزية أو الحريصين على هذا الابقاء(١).

وهكذا نرى، ان فترة شهر العسل، التي عاشها الحزب، سرعان ما تلاشت، وكما يقول المثل الشعبي « عادت حليمة لعادتها القديمة! »، فكلما اشتدّ الانحسار ابتعدت الغالبية العظمى من اليهود عن سياسة الحزب المبدئية للسياسة التي رغاها الكومنترن، فمع الوقت، وفي ظل استمرار حملات القمع الموجهة ضد الشيوعيين. بدأت الروابط والصلات تضعف بين قيادة الحزب وبين سكرتارية القسم اليهودي، وبدأ هذا الأخير يتمتع بالكثير من الاستقلالية وينتهج سياسة مغايرة لسياسة الحزب العامة التي أقرتها اللجنة المركزية.

وتحت حجج وذرائع عديدة، منها مجابهة قمع السلطات البريطانية والخروج من العزلة التي فرضت على الشيوعيين اليهود، داخل التجمع السكاني اليهودي، أقرت سكرتارية القسم اليهودي مبدأ انخراط الشيوعيين اليهود في صفوف المنظمات والأحزاب الصهيونية، والعمل داخلها، بهدف سلخ « العناصر الثورية » عنها ودفعها للانضمام إلى صفوف الحزب، وذلك انطلاقاً من القناعة بأن التجمع اليهودي في فلسطين لا يمثل تجمعاً متجانساً وانه من الممكن تشجيع عملية التمايز داخله. وطبعاً، كانت هذه الفكرة تتعارض مع توجه الحزب العام، الذي كان ينظر الى التجمع الاستيطان اليهودي في فلسطين، كتجمع موحد متجانس تسيطر عليه تماماً الحركة الصهيونية، ويرى ان انسلاخ العمال اليهود، عن جسم الحركة الصهيونية لا يمكن أن يتحقق إلاّ بعد انخراطهم النشيط في النضال الوطني التحرري المعادي للامبريالية والصهيونية(٢).

(١) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٢١٦ .
(٢) د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة القومية... مصدر سابق ص ٩٦ .

وفيما يتعلق بتطبيق شعار الجبهة الشعبية، الذي دعا له الكومنترن في مؤتمره السابع، كان الحزب يؤكد..، ان الجبهة الشعبية، في ظروف فلسطين الخصوصية، هي في الأساس جبهة تجمع الشيوعيين وأحزاب الحركة الوطنية العربية في النضال ضد الامبريالية والصهيونية، لكن الشيوعيين اليهود، اعضاء القسم اليهودي ــ فسّروا ــ شعار الجبهة الشعبية بانه يعني دعم « المعتدلين » (وايزمان وبن غوريون) ضد « المتطرفين » (جابوتنسكي ومنظمة الارغون) داخل التجمع الاستيطاني في فلسطين(١).

وزاد الأمر تعقيداً وتطوراً بالاتجاه السلبي عندما أخذ « القسم اليهودي » في سنة ١٩٣٨... ينظر للموضوعة، التي تقول انه من غير الممكن بعد الآن اهمال الأهمية الاجتماعية والاقتصادية التي بات يملكها التجمع اليهودي في فلسطين وبالتالي لا يمكن اهمال حقه في تقرير المصير(٢).

وكان مترافقاً مع ذلك، الاختلاف الواضح بين خط الحزب وخط القسم اليهودي حين قامت اللجنة المركزية في عام ١٩٣٩، بانتقاد أسس السياسة التي انتهجها القسم اليهودي داخل التجمع السكاني اليهودي، وشجبت المحاولة التي قام بها من أجل تشكيل جبهة مع بعض المجموعات، داخل الحركة الصهيونية(٣) مضافاً للمواقف التي حددها الحزب سابقاً، بخصوص عدم وجود تعارض داخل المجموعات الصهيونية... الخ.

ان الانفصال التام، السياسي والتنظيمي، بين مجموع الحزب والقسم اليهودي والذي تكرس خلال سنوات الثورة (١٩٣٦ ــ ١٩٣٩)، جعل من الصعب التوفيق بين خطيهما المتباينين عندما التقيا مرة أخرى إثر صدور قرار اللجنة المركزية في كانون الأول ديسمبر ١٩٣٩، بحل القسم اليهودي، خصوصاً وان الأساس المادي الموضوعي للانفصال، والناتج عن التغييرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والديمغرافية، التي شهدها

(١) المصدر السابق ص ٩٧ .
(٢) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٢١٧ .
(٣) د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة القومية ــ مصدر سابق ص ٩٧ .

المجتمع الفلسطيني خلال سنوات الثورة الثلاث، كان لا يزال قائماً.

وهكذا لم تمض سوى أشهر قليلة على اتخاذ القرار الرسمي بحل « القسم اليهودي » حتى ظهر تكتل انشقاقي جديد داخل الحزب، وقف على رأسه بعض قادة القسم اليهودي السابقين، واستمر في العمل خارج صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني، لمدة عامين، تحت اسم مجموعة « ها أيميت » (الحقيقة). حيث كانت عوامل الانقسام... قد تبلورت، بسبب جملة من الظروف الموضوعية والذاتية، داخل صفوف الحركة الشيوعية في فلسطين، وبات الانقسام أمراً لا مرد له[1].

كانت الأمور قد وصلت حد القطيعة بين مجموعة « ها أيميت » والحزب، لكن الهجوم الألماني على الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٤١ جاء ليؤجل اعلان القطيعة رسمياً، حيث لمست مجموعة « ها أيميت » ان اعلان انفصالها في هذه الفترة يشكل ادانة كاملة لها على الصعيد الأممي، اذ كان المطلب الملح هو تجميع القوى كافة للدفاع عن الدولة الاشتراكية الأولى. وفي أيار (مايو) سنة ١٩٤٢ اتفق الطرفان على اعادة الوحدة بينهما، وفي حزيران من نفس العام اتفقا على « اعادة تنظيم الحزب الشيوعي الفلسطيني »[2].

الاّ انّ « زواج المتعة » هذا لم يدم طويلاً، حيث جاءت التطورات اللاحقة لتؤكد ان وحدة الحزب كانت ذات طابع شكلي، اما في الحقيقة فلقد كانت كل قوة تعمل ضمن رؤيتها الخاصة، بدليل انه ما ان جاء حل الأممية سنة ١٩٤٣ (الاّ وكانت) بمثابة رفع العقبة الوحيدة الباقية أمام اعلان انقسام الحزب الشيوعي الفلسطيني[3]. لقد كانت فعلاً أشبه بـ « الشعرة التي قصمت ظهر البعير (الجمل)! ». وبهذا اصبح الحزب عدة أحزاب ومجموعات منها ما كان موجوداً في القسم اليهودي، ومنها من كان موجوداً في القسم العربي.

---

(١) المصدر السابق ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٢٢١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٣١ .

كان الانقسام مؤلماً وقاسياً، لأن الحزب الشيوعي الفلسطيني، رغم كل العلل والأمراض التي كانت متفشية في أنحاء جسمه، من رأسه حتى أخمص قدمه، الاّ انه كان الحزب الوحيد في البلاد، الذي يجمع في صفوفه أعضاءً من الأقليات والطوائف والتجمعات المختلفة من سكان البلاد، كان حزباً أممياً في ذلك وفي برنامجه، لكن فعل الأحداث وتطوراتها الموضوعية في البلاد، والتي ترافقت مع ما هو قائم في ذات الحزب من أمراض مستعصية، كمرض العداء للتعريب، ومرض رؤية « البيشوف اليهودي » دون غيره من أهل البلاد!، دفعت الحزب دفعاً لأن يدفع الثمن غالياً، أي الانقسام والتفتت الى أكثر من مجموعة. نعم يمكن القول، بكل جرأة، ان الصهاينة المتشيعين قتلوا الحزب، ووقفوا بين الحزب والجماهير العربية كسور الصين ليمنعوا التقارب، الذي هو أكثر من ضروري ... لكن ذلك ليس بالأمر المستغرب، ولا المستهجن على اولئك العملاء الصهاينة، لأنهم ارادوا أن يكون الحزب يهودياً فقط، ليس هذا فحسب، بل وتحت تأثير الايديولوجية الصهيونية، وهو الأخطر، ومن هنا كانت موافقتهم الشكلية على التعريب، لأجل الانضمام الى الأممية الشيوعية، ولكن في ميدان الممارسة كانوا بعيدين كل البعد عن هذا الشعار المركزي، الذي نادى به الكومنترن، كما انهم كانوا أعداء لأي عملية تعريب.

فليس المهم ما يقوله المرء (رغم أهمية ذلك أحياناً) لكي نحاكمه، بل المهم هو ما يفعله في أرض الواقع. والعبارات المدججة بمخازن ضخمة من العداء للصهيونية، اكتشف أمرها، بأنها ليست أكثر من مخازن فارغة، أو اذا اردنا تجاوز ذلك، فيمكننا القول، بأنها مخازن فشنك (طلقات لا تقتل، وتستخدم في التدريب). هؤلاء هم « ابو زيام » و « بسوسا » و « ميكونيس » و « تساباري » واضرابهم. اكتشف امرهم وفي فترات متباينة، البعض منهم استطاع أن يحافظ على لون الطلاء، الذي طلى به وجهه لسنوات قريبة أمثال « ميكونيس »، لكنهم اكتشفوا كعملاء للصهيونية، وصهاينة حتى النخاع، والبعض الآخر تم افتضاح أمره باكراً أمثال « ابو زيام » وغيره. لقد كانت رائحتهم الفاسدة، النتنة

تفوح كلما كانت البلاد تمر بأزمة، وكلما كان المشروع الكولونيالي الصهيوني يقترب من الاعلان عن ذاته ككيان مستقل. كانوا أبواق لذلك المشروع، وطابوراً خامساً في صفوف الشيوعيين.

وفي هذا السياق، لا يمكننا بتاتاً، أن نجمع كل الرفاق اليهود في سلة واحدة، حيث أثبتت التجربة التاريخية بأن هناك رفاقاً شيوعيين أمميين وما زالوا حتى اللحظة في خندق الشيوعية على الرغم من أقليتهم. أما الأكثرية فكانوا احزاب « ابو زيام » و « ميكونيس ».

أمام هذا الواقع، ما الذي كان على الشيوعيين العرب أن يفعلوه؟! ما هو واجبهم تجاه الجماهير العربية الفلاحية والبدوية الفقيرة العمالية، المضطهَدة اضطهاداً مركباً — قومياً وطبقياً؟؟

من المنطقي والبديهي القول، كان الواجب يحتم عليهم كشيوعيين أن يشقوا الطريق وسط بحر الجماهير العربية، وسط الطبقة العاملة العربية، ووسط فقراء الفلاحين والبدو ووسط المثقفين الثوريين وغيرهم من الفئات الكادحة ليحتلوا موقعهم في صفوف الحركة الوطنية العربية في فلسطين.

وهكذا كان، وأعلن الشيوعيون العرب عن حزبهم المستقل، عن تأسيس عصبة التحرر الوطني في فلسطين.

ثانياً: تأسيس عُصبَة التحرّر الوطَني في فلسْطين

من خلال عرضنا للعوامل السياسية والاقتصادية والتنظيمية، تلمسنا كم هو ضروري تأسيس فصيل تقدمي — شيوعي — ممثلاً للجماهير العربي[ة] الكادحة، التي ابتليت برأس قيادي، ان لم يكن مرتهناً لسلطات الانتداب، فهو مهادن ولا يستطيع أن يخرج عن إطار مصالحه، التي لا تبعد كثيراً عن مصالح الانتداب. وقف هذا الرأس القيادي، منذ تأسيسه، مروراً بالهزيمة المرّة والمفجعة لثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ وحتى اندثاره مع النكبة التي حلت بالشعب العربي الفلسطيني في عام ١٩٤٨، وقف دائماً وأبداً على رأس الهزائم والمصائب، التي حلت بالشعب العربي الفلسطيني بنتيجة

أفقه الضيق، وطبيعته الطبقية والفكرية وبالتالي سياساته الاجهاضية لانتفاضات شعبنا وثوراته المتتالية.

إضافة لفقدان القيادة الثورية، شهدت فلسطين على إثر نشوب الحرب العالمية الثانية نهوضاً اقتصادياً واجتماعياً وأيضاً سياسياً، وترافق هذا مع النهوض في أوضاع الطبقة العاملة الفلسطينية، هذا فضلاً عن، التطور السابق للحركة النقابية في فلسطين، واتساع الحريات الديمقراطية بالمعنى النسبي، والتي كانت نتيجة لتغير خارطة التحالفات على الصعيد العالمي، فكما هو معروف، ان الاتحاد السوفييتي، بعد ان ادخل الحزب دفاعاً عن اراضيه في مواجهة الهجمة الفاشية الألمانية، دخل الاتحاد السوفييتي في تحالف مع بريطانيا وأمريكا لمواجهة الفاشية الألمانية والعسكرتاريا اليابانية، الأمر الذي دفع الامبريالية البريطانية لتخفف من قبضتها القمعية في المستعمرات، بشكل مؤقت. وبالاضافة للعامل الموضوعي، لعب العامل الذاتي دوراً مهماً على هذا الصعيد، والذي بدأت ملامحه بالبروز والظهور، مع بدء النشاط التنظيمي بين صفوف الطلبة العرب في فلسطين مبكراً، والذي يعود الى صيف عام ١٩٣٧ [في أثناء الثورة]، حين قرر عدد من طلبة مدرسة « المطران جوبات » الثانوية في القدس، في شهر آب (أغسطس) ١٩٣٧، تأسيس اتحاد للطلاب العرب لتأطير نشاط الطلبة، الهادف الى محاربة الأمية بين صفوف الكادحين العرب، والعمل على احياء القرية العربية. وكان طلاب مدرسة « المطران جوبات » ومن أبرزهم توفي طوبي على اتصال بعدد من الأساتذة التقدميين، أمثال الأديب اللبناني المعروف رئيف خوري، الذي كان يجمع طلابه في غرفته بالمدرسة مع عدد من أصدقائه المقربين، ومنهم عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني عبدالله البندك، الذي ساهم أيضاً في إطلاع الطلبة على نضالات الحركة التقدمية في فلسطين والعالم، وساعدهم على إقامة « إتحاد الطلاب العرب[1] ».

---

(١) د . ماهر الشريف — الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٠٧ — ١٠٨ .

وقد سعى الاتحاد، منذ قيامه، الى ربط نضالات الطلبة العرب في فلسطين بنضالات الحركة الطلابية الديمقراطية العالمية. ففي شهر نيسان (ابريل) ١٩٣٨ كلفت قيادة الاتحاد إميل توما — وكان يدرس آنذاك في بريطانيا — بتمثيل الاتحاد في مؤتمر الطلاب العالمي، الذي انعقد في مدينة باريس. وفي شهر تموز (يوليو) ١٩٣٨ قررت قيادة الاتحاد تبني اسم « رابطة الطلاب العرب »، وإصدار مجلة ثقافية شهرية دُعيت باسم « الغد ». وقد أقامت الرابطة ١٩٣٩ فرعاً جديداً لها في مدينة حيفا، وقررت في أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ تغيير اسمها الى « رابطة المثقفين العرب في فلسطين »، بعد ان سمحت للمثقفين، من الشباب العرب، بالانضمام إلى صفوفها، كما قرر تشكيل لجنة مركزية لقيادة نشاطها، كان على رأسها عبدالله البندك وتوفيق طوبي وإميل توما[1].

بفضل هذين العاملين الموضوعي والذاتي، تحالف السوفييت مع الانكليز والأميركان ونضالات المثقفين الفلسطينيين، كلاهما ساهما في توسيع دائرة الحريات الديمقراطية وأضحى ممكناً وصول ادبيات الأحزاب الشيوعية العربية والعالمية الى فلسطين، وكان بالامكان شرائها من المكتبات، وترافق مع هذا، بروز ظاهرة انتشار النوادي الاجتماعية والثقافية، والتي لعب دوراً رئيسياً في تأسيسها الشيوعيين (بعضهم كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي الفلسطيني، والبعض الآخر (بولس فرح) كان خارج إطار الحزب)، ثم بروز الحلقات الماركسية في فلسطين.

مجموع هذه العوامل امتزجت ببعضها البعض وتداخلت بحيث ما أن أخذ الانقسام في التبلور، في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني في أيار ١٩٤٣، حتى كان الشيوعيون العرب مستعدين أتم الاستعداد لاعلان ولادة حزبهم المستقل.

جرى ذلك في خريف عام ١٩٤٣، تأسست في مدينة حيفا « عصبة التحرّر الوطني في فلسطين »[2] كطليعة سياسية للطبقة العاملة العربية في

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣ .

فلسطين . للتعبير عن هذا التغيير الجديد في بنية المجتمع العربي، وعن الوعي الذي نتج عنه نمو الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين والطلاب وصغار التجار »[1].

هذه هي المقدمات المختلفة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتنظيمية لنشوء عصبة التحرر، ولكنها — كل على انفراد — ليست بذات الأهمية، والأساسية لأحداث هذه لنقلة النوعية جداً في عملية التأسيس، ومن بينها يبرز الانقسام كعامل حسم وأساسي في عملية تأسيس حزب عربي خاص بالطبقة العاملة الفلسطينية. لماذا يحتلّ الانقسام هذه الأولوية؟؟

بالعودة الى الوراء قليلاً في تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني، تجسدت أمام كل مراقب ومتتبع لمسار تطور الحزب، حقيقة هامة جداً، وهي أن وحدة الحزب، ليست أكثر من وحدة شكلية، واعتبارات بقائها واستمراريتها، كانت خارجة عن ارادة الحزب وقيادته أيضاً، ولهذا كان كل فريق في الحزب يعمل بطريقته وبأسلوبه رغم كل الاتفاقات الموقعة بين الطرفين. فحينما دعا الهستدورت (هذا على سبيل المثال) عمال معسكرات الجيش البريطاني (كل العمال يهوداً وعرباً) الى الاضراب، ولم تستشر، ولا اتخذت موافقتها، جمعية العمال العربية الفلسطينية بهذا الأمر، والمعروف أنها ممثلة للعمال العرب، والتي أدركت ومعها العمال العرب، بأن الدعوة ليست بريئة، لأنها جاءت من جانب واحد ولها هدف سياسي ونقابي واضح، تريد (الهستدروت) أن تقول لمجلس النقابات العالمية بأنها الممثل الوحيد لكل العمال في البلاد، وهذا يعني بانه لا

---

(١) سميح سمارة — العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٣٤٢ .

الوثيقة رقم ٦ — بعنوان دور عصبة التحرر الوطني في المجتمع العربي ١٩٤٧ — وهي نص لمؤتمر صحفي عقده اميل توما أحد أبرز قادة عصبة التحرر الوطني في « المكتب العربي » في القدس يوم ٦ حزيران سنة ١٩٤٧ .

The Role of the National Liberation League in Arab Society a Press conference Jerusalem: June - 6 - 1947

مصدر الوثيقة مركز الأبحاث — قسم الوثائق الملفات / IV / ٢ .

وجود للعرب، وهكذا تصبح هي المتحدث باسمهم أمام المنابر العالمية وكذلك أمام سلطات الانتداب لكن الامانة العامة للجمعية قررت بالتضامن مع النقابة العامة لعمال معسكرات الجيش مقاومة الاضراب وعدم تنفيذه من قبل العمال العرب[1].

ولم تنحصر النتائج السلبية لدعوة الهستدودت (التي زوراً تدعي انها تمثل اتحاد العمال اليهود، وهي في الحقيقة والجوهر، ليست الاّ احتكاراً من أكبر الاحتكارات الصهيونية) في اطار الحركة النقابية العمالية، بل انها امتدت لتطال الحزب، وتخلق مشكلة داخل صفوفه، لأن الرفاق اليهود مع الدعوة ومع الاضراب، والرفاق العرب كانوا ضد ذلك، وكحل وسط، اقتراح رضوان الحلو تسوية على أساس ان لا يشارك العمال العرب في الاضراب، بينما تترك للعمال اليهود حرية المشاركة أو عدمها، أدى ذلك بالنتيجة الى صعوبة التوصل الى اتفاق حول الموضوع[2].

وبالاضافة لذلك، تبين ان مجموعة ميكونيس تتبع خطاً انشقاقياً ورافضاً لكل الموضوعات الناتجة عن تطور الحركة الشيوعية في فلسطين على مدى السنوات العشر الماضية (منذ ١٩٣٣). وبناءً على هذا، لم يكن أمام اللجنة المركزية للحزب وبدعم من السكرتير العام إلاّ اتخاذ قرار يعلن حل فرعي تل أبيب وحيفا كما اتخذت اللجنة (المركزية) قراراً يقضي بطرد اثنين من أعضائها من الحزب هما شموئيل ميكونيس (الذي احتل في الفترة السابقة منصب نائب الأمين العام للحزب) وبنينا فاينهاوس (عضو لجنة مركزية).

الاّ ان ميكونيس لم يتراجع عن مخططه الانشقاقي، بل ان الطرد زاده إصراراً، وأعطاه حرية أكبر في عملية التخريب، حيث قام باعادة تنظيم فروع تل أبيب وحيفا والقدس وشكل « اللجنة المركزية المؤقتة ».

وفي محاولة فاشلة لاعادة الوحدة بين الفريقين ــ الحزب وجماعة

(١) د. فائق طهبوب ــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ٢٠٠ .
(٢) أسعد صقر ــ الحركة العمالية... مصدر سابق ص ١١٢ .

ميكونيس ــ عقد اجتماع في ٢٩ ايار (مايو) سنة ١٩٤٣... بين الفريقين لهذا الغرض، (وبنتيجة) اصرار جماعة ميكونيس على طروحاتها قام ثلاثة من الأعضاء العرب الشباب هم: اميل حبيبي، عبدالله البندك ويعقوب العرماني باصدار بيان موقع باسم « اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني » جاء فيه « ان الحزب الشيوعي الفلسطيني، حزب وطني عربي يضم في صفوفه يهوداً وافقوا على برنامجه الوطني... لقد سبق للحزب أن طهر صفوفه مت تلك التكتلات الصهيونية المنحرفة، حين قام بحل فرعي. تل أبيب وحيفا »، وأشار البيان الى ان الظرف اصبح مهيئاً وخاصة بعد حل الكومنترن لاعادة صياغة الحزب الشيوعي الفلسطيني باتجاه حركة التحرر الوطني الفلسطيني ومستقبل الأمة العربية والعداء للصهيونية[1].

وهنا يبرز سؤال، ما هي ردود الفعل من مختلف « الكتل » على البيان؟؟ السكرتير العام للحزب ــ رضوان الحلو ــ لم يكن موافقاً على حسم الصراع بمثل هذه السرعة، اذ أعلن تنصله من البيان. كان يريد أن يبقى خارج اطار التناقضات داخل الحزب، مراهناً على ان يشكل القاسم المشترك بين كل الاتجاهات داخل الحزب، الأمر الذي لم يحصل فيما بعد.

أما مجموعة ميكونيس فهاجمت البيان وأعلنت بعد أيام انها ترفض مبدأ « الترهيب الذي يتضمنه البيان »؛ أما صحيفة الحزب (كول هاعام) فقد حرصت على الاستمرار في إطار الخط التقليدي للحزب اذ كتبت تقول: « نؤكد ان مثل هذه التصريحات تشكل انحرافاً كاملاً ومجرداً عن حتمية وجود حزب شيوعي. ان الحزب الشيوعي الفلسطيني، هو حزب أممي عربي يهودي يناضل من أجل تحقيق المصالح القومية والاجتماعية لكل من الشعب العربي والييشوف في فلسطين. ان حزبنا ناضل ومستمر في النضال بكل إخلاص... من أجل التحرر الوطني للشعب العربي وتحقيق المصالح الحياتية للييشوف، هذه المصالح التي تم تزويدها

(١) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣ .

من قبل الصهيونية ». أضافت « كول هاعام »: « ان البيان الأخير ليس غير الطعنة الأخيرة من بين سلسلة من الطعنات وجهت الى الحزب وهي في صميمها معادية للشيوعية نفسها[1].

لم تغير ردود الفعل من الأمر شيئاً يُذكر، وبقيت الأمور تسير باتجاه الاستقلال الكامل لكل مجموعة، من المجموعتين الرئيسيتين — مجموعة ميكونيس ومجموعة حبيبي، البندك، العرماني، وعلى هامش هاتين المجموعتين عملت مجموعة ثالثة بشكل مستقل، تحت اسم الحزب الشيوعي الفلسطيني، وكان على رأس المجموعة رضوان الحلو، الذي تنكر لبيان الأعضاء العرب، ولم يكن هذا تعبيراً عن موقف شخصي، بقدر ما هو تعبير عن الموقف التقليدي للحزب، الذي يمثله الأعضاء القدامى، الذين ينطلقون من ضرورة الحرص على وحدة الحزب، حتى لو كان الأساس الموضوعي لمثل هذه الوحدة قد تفكك[2].

لقد بقيت مجموعة الأعضاء القدامى واقفة على قدميها لبعض الوقت، الأّ انها فقدت مقومات البقاء والصمود، فالأيام استنزفتها من كل الاتجاهات، نزف الدم من كل انحاء جسمها، ولم تتم أي عملية انقاذ لها، فادركت نهايتها المحققة وموتها المحتوم، لأن خلاياها تحللت كلياً ولم تعد قادرة على المقاومة. ففي حين كانت تؤكد على خطها التوحيدي، كانت قواعد الحزب تتجه تدريجياً نحو المجموعتين الأخيرتين، وهكذا ما ان مرت فترة بسيطة حتى تبين انها تقف في الهواء دونما استناد الى أساس صلب، حينذاك اتخذ السكرتير العام للحزب قراره الخاص بوقف كل نشاط سياسي له، حيث أحس ان التطورات التي عصفت بالحزب قد تجاوزت موقعه وامكانياته. أما بقية أعضاء هذه المجموعة فقد انقسموا الى قسمين، اذ اتجه فيلز وفيلنسكا نحو ميكونيس. (بعد أن أجريا مباحثات طويلة معه قبل أن يعلنا انضمامهما الى مجموعته في أوائل سنة ١٩٤٤، في حين ان سيمحا تساباري ومئير سلونيم... قد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٣ .

اختفيا مؤقتاً عن الساحة السياسية الى ان عادا الى الظهور في سنة ١٩٤٥، حيث شكلا تنظيماً مستقلاً يكاد يتطابق بالكامل مع أهداف الأحزاب الصهيونية والييشوف، اطلقا عليه « الاتحاد التربوي الشيوعي »... وقد تحوّل في تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٤٧ الى الحزب الشيوعي العبري[1].

بعد هذا العرض، هل كان بالامكان أفضل مما كان؟؟ هل كان ممكناً ايقاف الانقسام في صفوف الحزب؟؟ لا، لم يكن ذلك ممكناً بتاتاً، فالواقع عنيد جداً، والحقيقة مُرّة أحياناً كثيرة، ولكنها الحقيقة التي لا مناص من رؤيتها، والتي لا نستطيع تجاهلها أو نكرانها، وتمنيات مجموعة القدامى، لم تكن أكثر من تمنيات جميلة، كما هي تمنيات الجميع، لو استمر الحزب موحداً مناضلاً شيوعياً أممياً!!؟ لكن، لا بأس من أن الجميع استيقظ من ذلك الحلم البهي!، المدغدغ للعواطف وشاهدوا بأم أعينهم الحقيقة الماثلة أمامهم، الانقسام، فهذا أفضل لهم بألف مرة مما لو استمروا في تلك المسرحية الوهمية، والتي لا مجال لأن ترى النور.

وانطلاقاً من كل ما أوردناه، لا يمكن القول، أو حتى الاشارة لما قام به الرفاق الشيوعيون العرب بالسلب، أي لا يمكن وضع اللائمة عليهم تجاه الذي أصاب الحزب الشيوعي الفلسطيني من تشرذم وانقسام، كما لا يمكن اعتبار عملهم شكلاً من أشكال الطفولة اليسارية أو المغامرة، لأنه لم يكن آنذاك أية امكانية لتجاوز حالة الانقسام، وبالتالي استمرار الحزب موحداً، لكون الأمور كانت تزداد تعقيداً في البلاد، والصهيونية بالتضامن مع سلطات الانتداب تزداد مع كل يوم جديد قوة واتساعاً من خلال سياسة « احتلال العمل » و « احتلال الأرض » ومن خلال تدفق موجات الهجرة « المشروعة! » وغير المشروعة لأرض فلسطين. وبناءً على ذلك، كانت الهوة تتعمق أكثر فأكثر بين الييشوف اليهودي والجماهير العربية، التي كانت ترزح تحت الاستغلال والاضطهاد بشقيه القومي والطبقي، وهذا الاضطهاد كان يتحمل المهاجرين اليهود فيه دوراً

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٤ .

رئيسياً، لأنهم جميعاً وبدون استثناء ساهموا في تحقيق المشروع الكولونيالي الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين العربية.

أضف الى ذلك، ان الحزب الشيوعي الفلسطيني لم يستطع، بفعل العوامل الآنفة الذكر أن يقوم بالدور، الذي من المفترض أن يقوم به، أي دور القائد لجماهير العمال والفلاحين والبدو وكل الكادحين من أبناء الشعب العربي في فلسطين، ليس هذا فحسب، بل ان الرفاق اليهود كانوا ومنذ البداية بعيدين كل البعد عن الجماهير الشعبية في فلسطين صاحبة المصلحة الحقيقية في أي انتفاضة أو ثورة وبالتالي هم الأحوج لحزب ثوري يقود وينظم هباتهم الثورية في مواجهة كل أشكال الظلم والاستعباد البريطاني والصهيوني وحتى الاقطاع العربي المتآمر على قضايا فقراء وصغار الفلاحين، الذي باع الأراضي للشركات اليهودية بأبخس الأثمان، والذي ضرب بعرض الحائط المصالح الوطنية الفلسطينية.

استناداً لكل هذا، هل يجوز لأي باحث أو قارىء أن يعتبر ما حصل نوعاً من التسرع؟؟ بالتأكيد، لا، وبالتالي، كان قرار الشيوعيين العرب، قراراً ثورياً وشجاعاً، على الرغم من تأخرهم في ادراك حاجة الجماهير العربية الكادحة الماسة لحزب شيوعي يقود نضالاتهم، ويعبر عن مصالحهم القومية والطبقية، ويحميهم ويدافع عنهم.

من هذا الادراك، ننطلق في تحديد اولوية عامل الانقسام على غيره من العوامل التي رافقت عملية تأسيس عصبة التحرر الوطني في فلسطين، وهذا لا يعني التقليل من أهمية العوامل الأخرى ودورها وأثرها في نشوء العصبة.

ومرة أخرى نعود لنطرح السؤال على انفسنا بصدد عملية تأسيس العصبة هل كان مشروطاً انتعاش الطبقة العاملة وحركتها النقابية بولادة حزب شيوعي جديد؟؟ لو ان الحزب الشيوعي الفلسطيني استمر يمثل كل العمال والكادحين يهوداً ومسلمين ومسيحيين من أبناء الشعب العربي؟! لا أعتقد جازماً بأن ذلك سيكون قابلاً للتحقق، لأن مبررات نشوء حزب جديد لن تكون متوفرة، وفي أسوأ الأحوال وان حصل وأعلن عن ولادة

حزب شيوعي جديد، فذلك سيعبر بالضرورة عن وجود أزمة ما داخل الحزب الأصيل؛ أو ان مجموعة (تكتل) ما على اليمين أو على يسار الحزب قررت الاعلان عن نفسها حزباً جديداً في الساحة، لكن في هذه الحالة لن تكون مقومات استمراريتها وتطورها قائمة، وسيكون مصيرها الافلاس السياسي والتنظيمي نتيجة الانتهازية اليمينية (اذا كانت على يمين الحزب)، أو نتيجة المغامرة والتطرف (اذا كانت على يسار الحزب)، هذا في حال ان الحزب الأصيل، حزباً جماهيرياً قولاً وفعلاً، وليس حزب صالونات وبيانات مليئة « بالجمل الثورية » الفاقعة الاحمرار.

لذا نقول، بأن عملية انتعاش الطبقة العاملة ونهوضها، كان من المؤكد انها ستكون في مصلحة الحزب الشيوعي الفلسطيني، لو انه استمر موحداً، لأن ذلك سيعني امتداد جسم الحزب وتوسّعه ونموه من خلال التقاط العناصر العمالية الطليعية، مستفيداً من تلك الحالة، وفي هذا السياق، ستجد الحلقات الماركسية الجديدة طريقها الى الحزب الشيوعي مفتوحاً!، لكن الأمر لم يكن كذلك، الأمر بالنسبة للرفاق اليهود كان مرتبطاً بمنهجهم في التفكير، وبالتالي متعلق برؤيتهم للمشروع الكولونيالي الصهيوني. وكما بينت التجربة الملموسة للحزب ذاته، بانه كلما كان يزداد قمع واضطهاد الجماهير العربية على إثر انتفاضاتهم، وهباتهم الثورية، كان الحزب يدخل في دورة جديدة من الأزمات، والتي سببها الرفاق اليهود.

وبناءً عليه، وارتباطاً بمجموع العوامل، المقدمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولدت العصبة كحاجة ملحة، كضرورة موضوعية أملتها حاجة العمال وفقراء الفلاحين وصغارهم والمثقفين وصغار التجار وكل الديمقراطيين. نعم، ان العصبة ولدت كضرورة في المكان المحدد (وان يكن الزمان تأخر قليلاً) لحاجة الجماهير العربية الكادحة لهذا الفصيل المناضل. نشأت العصبة من رحم المعاناة والقهر، ولدت حيث يجب أن تولد هي وليس شيئاً آخر غيرها، واستمرت أمينة، محافظة على مقررات المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني قبل أن ينشق.

عصبة التحرر الوطني اذن، ليست مؤسسة عرضية لا جذور لها في المجتمع العربي فهي قد نشأت تاريخياً من حاجة الشعب العربي عامة،

عماله وفلاحيه ومثقفيه خاصة الى حزب قادر على حماية مصالحهم[1].

ويقول الرفيق توفيق طوبي بهذا الصدد: « ... ومع عدد من الرفاق وخاصة العاملين في اتحاد نقابات وجمعيات العمال العزب وآخرين من مختلف أنحاء البلاد شاركت في تأسيس « عصبة التحرر الوطني ». وفي شهر شباط ١٩٤٤ أصدرت العصبة أول بيان لها يتضمن ميثاقها واسماء لجنتها المركزية وعنوان مقرها الرئيسي الذي كان درج الموارنة رقم ١٦ وصندوق بريد ١٠٤. وقد أصدرت العصبة نشرات اسبوعية مطبوعة على ورق باللون الأصفر تتضمن مقالات وتعليقات...[2] ».

اذن شباط ١٩٤٤ (اجتماع) يعتبر رسمياً بمثابة المؤتمر الأول للعصبة، وفيما بعد، عقدت العصبة في عام ١٩٤٦ كونفرنساً حزبياً، وفي عام ١٩٤٧ عقدت مؤتمراً ثانياً.

بالنسبة للتركيبة الطبقية لعصبة التحرر، فكانت من العمال، المثقفين الثوريين — البرجوازية الصغيرة — الذين التزموا بفكر الطبقة العاملة، اضافة للفلاحين الفقراء.

وبدأت العصبة نشاطها باصدار نشرة نصف شهرية، دافعت من على صفحاتها عن برنامجها السياسي، وعبرت من خلالها عن مواقفها تجاه القضايا العربية والدولية. واستمرت النشرة بالظهور حتى أيار (مايو) من عام ١٩٤٤ عندما أخذت باصدار مجلة « الاتحاد » بشكل منتظم (...) وعقد أو لقاء دعاوي في يافا في ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٥، وكان ذلك أول ظهور للعصبة أمام الجمهور. تبع ذلك سلسلة اجتماعات عقدت في الناصرة وحيفا والقدس وأماكن أخرى غيرها. وكانت المواضيع التي بحثت تدور حول الدعاية من أجل الجبهة العربية، والمطالبة بجعل انتخابات البلدية ديمقراطية، المطالبة باطلاق السجناء السياسيين، ثم المطالبة بالتوصل الى تفاهم مع سكان فلسطين اليهود[3].

(١) المصدر السابق — الوثيقة رقم ٦ .. ص ٣٤٢ .
(٢) المصدر السابق — الوثيقة رقم ٦ .. ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .
(٣) المصدر السابق.

وبالاطلاع على برنامج عصبة التحرر الوطني ومن ثم ممارساتها سنتعرف اكثر فأكثر على العصبة، وسنتعمق جيداً في معالجة موضوعاتها.

ثالثاً: برنامج عصبة التحرر الوطني في فلسطين[1]

تنحصر المقدمة الأساسية (للبرنامج) في أن فلسطين بلد تحت الانتداب، يعاني من نتائج الحكم البريطاني الاستعماري، وان البترول والخطط الاستراتيجية هي الخلفيات الأساسية لهذا الحكم. وان الصهيونية هي حليفة الاستعمار البريطاني والرجعية الأميركية، وان الجماهير اليهودية مضللة من قبل الصهيونية، وانها معبأة في فلسطين لتكون اداة ضد نمو موجة الحركة العربية التحررية. ان النضال الديمقراطي ضد الامبريالية في فلسطين هو من أجل التحرّر[2].

I — البرنامج السياسي

١ — جلاء القوات الأجنبية؛

٢ — انشاء دولة فلسطينية مستقلة حرة ديمقراطية، تستطيع أن تضمن الحقوق المدنية والديمقراطية لمواطنيها على السواء؛

٣ — حماية حقوق اليهود الموجودين حالياً في فلسطين،... هذه الحقوق لا يمكن حمايتها الاّ في دولة فلسطينية حرة مستقلة.

وجرى في بيان وزع أيضاً بتحذير الجماهير اليهودية من اتباع سياسة الصهيونية العدوانية التي تهدف الى انشاء دولة يهودية في فلسطين. ان دولة كهذه لن تكون الاّ قاعدة للاستعمار الانكلو — اميركي الذي يستعد في الوقت الحاضر لكي يقضي على نضال الأقطار العربية..

(١) ان برنامج الحزب هذا صادر عن المؤتمر الذي عُقد عام ١٩٤٧، ولكنه لا يختلف كثيراً عن الميثاق الذي نشر في عام ١٩٤٦، والذي تمّ إقراره في عام ١٩٤٤.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٤٢ — ٣٤٥.

٤ ــ تعارض العصبة الهجرة (اليهودية) وتعتبر انه ما من ديمقراطي يستطيع مساندة الهجرة الى فلسطين المستعبدة.

٥ ــ تعارض العصبة مشروع التقسيم القائم على انشاء دولة فيدرالية، كما تعارض كل مشروع يرمي الى تقسيم فلسطين و« بلقنة » الشرق الأوسط العربي...، والعصبة في معارضتها للتقسيم تعترف بامكانية التعاون بين العرب واليهود عندما تتحرر فلسطين وتصبح دولة ديمقراطية حرة مستقلة.

II ــ البرنامج الاجتماعي ــ الاقتصادي

١ ــ تؤيد العصبة حركة نقابات العمال العرب في نضالها للحصول على قوانين اجتماعية أفضل، والاعتراف بنقابات العمال، ومستوى تشريع للعمل من حيث معاش التقاعد، والعجز، والبطالة، وكذلك تؤيد العصبة نقابات العمال في نضالها اليومي في المصانع والمعامل.

٢ ــ وتؤيد العصبة الفلاحين في نضالهم لحماية ممتلكاتهم ضد الاعتداء عليها من قبل الصهيونية الاستعمارية وفي محاولاتهم لزيادة انتاج الأرض، وايجاد أوضاع صحية أفضل في قراهم، كما تؤيد العصبة النضال ضد صفقات شراء الأرض، وتطالب باصلاح زراعي قادر على حل مشكلات الجوع والانتاج.

٣ ــ وتؤيد العصبة المثقفين العرب في نضالهم للحصول على اجور وأوضاع أفضل في العمل.

٤ ــ كما تؤيد بشكل خاص نضال الموظفين المدنيين العرب في الحكومة من أجل أوضاع أفضل، وكذلك في محاولتهم التخلص من رقابة الحكومة التي تمنعهم من القيام بأي محفل فعال في حياة الشعب الاجتماعية والسياسية.

٥ ــ وتؤيد العصبة أيضاً صغار التجار في نضالهم من أجل فرص أفضل، وتشجع نضال الصناعة العربية ضد الاحتكارات والتغلغل الاقتصادي الأجنبي سواء أكان أميركياً أم بريطانياً.

III ــ السياسة الخارجية

... فالعصبة تدرك وجود قوىً هائلة ضد الامبريالية في العالم، ان الحركات الوطنية في الدول العربية وفي أسيا وأفريقيا، والطبقة العاملة في بريطانيا وأوروبا، والقوى التقدمية ضد ترومان في اميركا، والاتحاد السوفييتي والديمقراطيات الجديدة في اوروبا، كل هذه القوى تناضل ضد الامبريالية وسياسة الرجعية العدوانية للتحالف الانكلو ــ اميركي. ان عصبة التحرر الوطني تعترف بهذه القوى الديمقراطية العظيمة، وتعترف بضرورة التعاون معها في النضال ضد الرجعية بشكل عام، وضد الامبريالية الاميركية ــ البريطانية بشكل خاص... ضد التغلغل الاميركي، وضد خطة الهيمنة على العالم من قبل المحتكرين ومهووسي الذرة في أميركا وبريطانيا ومن خلال هذا كله تدرك عصبة التحرر انه لا يمكن تجزئة قضية الحرب والسلام والأمن[1].

VI ــ العصبة والجماهير العربية

ان العصبة في اظهارها طموح الشعب وتطلعاته، وفي تأكيدها على أهمية المضمون الاجتماعي للنضال تجتذب جماهير الشعب للنضال من أجل الاستقلال والسلام والديمقراطية.

(وتعمل العصبة على جذب) جماهير غفيرة لم تسبق لها المشاركة الوطنية حتى اليوم، على العمل الوطني. وهكذا تمهد الطريق لارتفاع سريع في الحركة الوطنية فتزداد قوة ووزناً وتأثيراً. (وتجعل) الحركة الوطنية تقترب أكثر من الحقيقة، ويعكس بشكل تقدمي على قيادة هذه الحركة الوطنية وهذا مما يقوي البنية الداخلية للحركة ويبعدها عن الانحرافات والنزعات الرجعية التي يتآمر الاستعمار على اثارتها.

ان العصبة بتقديمها حلاً ديمقراطياً قادراً على أن يكفل مستقبلاً آمناً لليهود، تساهم في التشكيك بالصهيونية حليفة الامبريالية، وبالتالي، تطرح

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٢ ــ ٣٤٥.

أمام جماهير اليهود الطريق السليم كالنضال من أجل فلسطين حرة مستقلة ديمقراطية.

وباتباعها سياسة عالمية تقدمية، تناشد العصبة الديمقراطية العالمية (الدول الاشتراكية في جنوب شرق اوروبا) مساندة الشعب العربي الذي يناضل من أجل الجلاء والاستقلال والديمقراطية.

وبناء عليه، فان دور (العصبة) في المجتمع العربي هو المساهمة في توجيه نضال الشعب العربي توجيهاً صحيحاً، والاقتراب به أكثر باتجاه تيار البشرية المتقدمة... لتوسيع مجال اسهامه نحو النضال الاسمى من أجل الأمن والسلام[١].

٧ ــ البرنامج التنظيمي

اشترط البناء التنظيمي الذي نص عليه النظام الأساسي للعصبة، انشاء حزب يكون مبنياً بكامله على الأسس الشيوعية. وعند تحديد بنية الحزب فقد أكّد على انه مبني على مبدأ المركزية الديمقراطية[٢].

وفي التقييم الذي أجراه الصهيوني يهوشع بورات للعصبة، وهو الذي يوصف بانه أهم من كتب تاريخ العصبة يطرح المسألة على الشكل التالي: هل كانت العصبة تنظيماً شيوعياً صافياً! أم تنظيماً جبهوياً؟ وبعد ان درس بنية العصبة من خلال برنامجه ومن خلال الصحيفة الناطقة باسمها (الاتحاد) قال: لا شك انه قد تم بناء العصبة على أسس شيوعية خالصة وذلك من حيث الارتكاز الى المركزية الديمقراطية وتنظيم الأطر والخلايا والفروع: الخلايا القاعدية الفروع في المدن والقرى، الأقاليم، وفي القمة اللجنة المركزية، وحيث القرارات ملزمة لكل الأعضاء. لكن ما جعل العصبة تظهر بمظهر مختلف عن سائر الأحزاب الشيوعية هو توجّهها شبه الكلّي الى عرب فلسطين وانغلاقها على اليهود[٣].

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٢ ــ ٣٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٢.

بصدد اللاكن الأخيرة لبورات البيان الأول، الذي أصدره أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني (قبل انقسامه) البندك، حبيبي، العرماني والذي اعتمد محتواه فيما بعد في سياسة العصبة تجاه اليهود، فالبيان اوضح، بانه بامكان اليهود من سكان فلسطين أن ينخرطوا في صفوف العصبة، على اعتبار انهم جزء لا يتجزأ من المواطنين الفلسطينيين العرب، وبالتالي اللاكن الأخيرة مردودة على بورات الصهيوني نفسه، الذي لم يرد أن يدرك هذه المسألة.

واستكمالاً لمسألة البناء التنظيمي للعصبة نجد ان موسى خليل يؤكد الصفة الشيوعية للسياسة التنظيمية للعصبة، رغم انه ينفي عنها هذه الصفة في الشق السياسي، فيقول: « وهكذا بينما لا يظهر برنامج العصبة السياسي أبداً انّ له أية صفة شيوعية نجد ان نظامها الأساسي (الداخلي) قد وضع بالكامل على المبادىء الشيوعية»[١].

بالنظر الى البرنامج بجوانبه المختلفة، السياسية، الاجتماعية والتنظيمية، نخلص الى نتيجة مفادها، ان ما طرحته العصبة في برنامجها السياسي كان منسجماً مع الظروف السياسية والاجتماعية التي تمر بها البلاد، وهو بالتالي، يعبر عن ادراك كبير للواقع الذي كان قائماً آنذاك في فلسطين، حيث جاء البرنامج متناسباً مع مهمات تلك المرحلة، مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية التحررية. كان برنامجاً ديمقراطياً، لأنه أخذ بعين الاعتبار مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية الوطنية كافة، وأعار اهتماماً خاصاً للمسألة اليهودية، التي كانت تمثل مشكلة المشاكل في البلاد، وعالجها بروح المسؤولية الديمقراطية العالية بعيداً عن الشوفينية والتعصب القومي الأعمى؛ فأشار البرنامج الى ان حل المشكلة اليهودية لا يتم عبر الخضوع للصهيونية ومفاهيمها، وانما من خلال بناء الدولة الوطنية الديمقراطية المستقلة، التي ستعمل على تأمين حقوق المواطنين كافة بدون استثناء.

(١) موسى خليل ــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ١٢٩ .

وعلى الصعيد الدولي، حدد البرنامج الحلفاء والأصدقاء الحقيقيين، كما حدد الاعداء الحقيقيين. فالأصدقاء كما حددهم البرنامج، هم الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية وحركات التحرر الوطني في البلدان الأسيوية والافريقية، والقوىٰ الديمقراطية في الدول الامبريالية. أما الأعداء، فهم الامبرياليات عموماً والانتداب البريطاني خصوصاً والصهيونية العالمية.

ومما لا شك فيه، ان هذا التحديد يعتبر تحديداً نموذجياً، ويعبر عن الرؤية الواضحة للعصبة وتوجهها التقدمي الشيوعي، فهي من خلال هذا التحديد، أظهرت بشكل جلي الى أي عالم تنتمي، الى عالم التقدم والاشتراكية الى الاتحاد السوفييتي والديمقراطيات الأوروبية (الدول الاشتراكية).

بالاضافة لهذا، بدا واضحاً ان قادة العصبة وضعوا برنامجهم على أساس استقطاب الجماهير العربية الكادحة وجذبها الى صفوف حزبهم ولهذا ابتعدوا عند صياغة البرنامج عن استخدام التعابير والمصطلحات التي تثير الريبة والخوف عند الجماهير، كالاشتراكية أو الشيوعية؛ وهذا ناتج عن معرفة الواقع القائم، فالغالبية العظمىٰ من سكان البلاد، هي بالأساس من الجماهير الفلاحية المتخلفة، والواقعة تحت تأثير الفكر الكهنوتي (الاقطاعي). مضافاً لذلك، وضع البرنامج ليتناسب وطبيعة المرحلة، كمرحلة للنضال الوطني التحرري والديمقراطي. وارتباطاً بذلك، فأي قراءة لما بين السطور في البرنامج، تشير بشكل واضح لهذا التحديد. صحيح انا لا نحاكم برامج الأحزاب استناداً لما بين السطور، ولا يمكن اعتماد ذلك كشكل من أشكال التقييم لهذا الحزب أو ذاك، لكن بالنسبة للحالة التي نحن بصددها ولمعرفتنا لظروف ولادتها، اضافة لحاجتها للانتساب الى الحركة الوطنية الفلسطينية، لمجمل هذه العوامل، يمكن اعتماد التقييم المستند لقراءة ما بين السطور. وتجارب الشعوب القديمة والحديثة تدل على أكثر من حزب شيوعي اعتمد هذا الأسلوب نتيجة الظروف القائمة التي يعيشها هذا الحزب أو ذاك، على سبيل المثال، حزب الشعب في اميركا وغيره.. الخ.

وبالمحصلة فالبرنامج، هو برنامج العمال والفلاحين الصغار والفقراء، والمثقفين والطلاب والتجار الصغار والموظفين، انه باختصار برنامج كل القوىٰ التي لها مصلحة في التحرر الاجتماعي والوطني، وهو برنامج تلك المرحلة، وليس البرنامج الاستراتيجي للعصبة.

رابعاً: جوهر عصبة التحرر الوطني في فلسطين

حول هذه النقطة، ماهية جوهر العصبة برز تباين بين العديد من الباحثين، الذين عالجوا مسألة العصبة؛ فمنهم من يرىٰ ان « عصبة التحرر الوطني حزب يحمل تراث الطليعة المتقدمة ويعبر عن التطلعات الشعبية للقوى الجديدة في المجتمع العربي ».

وبناءً عليه « فالعصبة اساساً حزب منظم للطبقة العاملة العربية وللقوىٰ المتطورة في المجتمع العربي ويظهر دورها كاملاً من خلال برنامجها»[1].

وتعميقاً لهذه الفكرة يقول باحث آخر: « اذا كان المبرر الأساسي لاعلان تشكيل عصبة التحرر الوطني كحزب شيوعي أخذ على عاتقه تحقيق مهام الثورة الوطنية الديمقراطية هو الأستحالة الموضوعية لامكانية جمع الشيوعيين العرب واليهود في إطار تنظيمي واحد، فإن هذا المبرر، بتشكيل العصبة، لم يكن قد اخترق أي من قوانين العمل الشيوعي في فلسطين منذ ان تم استخلاص هذه القوانين وتكريسها بقرارات المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني الصادرة سنة ١٩٣٠»[2].

وبناءً على ذلك، قام الشيوعيون العرب « في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ (بتأسيس) حزبهم الجديد « عصبة التحرر الوطني » بعد انشقاقهم عن الحزب الشيوعي الفلسطيني »[3].

---

(١) سميح سمارة ــ العمل الشيوعي... الوثيقة رقم ٦ .. مصدر سابق ص ٣٤٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥١ .
(٣) عبد القادر ياسين ــ كفاح الشعب الفلسطيني... مصدر سابق ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤ .

وهكذا يمكن اعتبار « ... تشكيل عصبة التحرر الوطني كمنظ
للشيوعيين العرب... »[1].

لكن بعض الباحثين لا يتفق مع التقييم المذكور أعلاه، لاعتقاده بان عص التحرر الوطني في فلسطين (لم تنشأ، في البدء كحزب شيوعي عرب (لنلاحظ في البدء)، وانما ظهرت كتنظيم وطني تحرري يساري عريض على رأسه الشيوعيون العرب، الذين انسلخوا عن الحزب الشيوع الفلسطيني. ومما يدّعم افتراضنا هذا ان عصبة التحرر الوطني، وإن كانت قد استندت في بنيتها التنظيمية الى مبادىء المركزية الديمقراطية، ف أكدت في ميثاقها انها تشكل جزءاً لا يتجزأ من الحركة الوطنية العرب الفلسطينية (وهل يعيب هذا الشيوعيون؟ — الباحث —)، وأشارت نظامها الداخلي الى أن عضويتها ستقتصر على المواطنين العرب فقط (العودة لمنطق بورات الصهيوني — الباحث)، ومن جهة أخرى، لا نعتقد ان اختيار اسم المنظمة الجديدة، كان من قبيل الصدفة، بل كانت هنا رغبة واضحة، عند المبادرين الى تأسيس العصبة، في التأكيد على أهمي تعزيز دور الشيوعيين العرب، في النضال الوطني التحرري المعاد « للأمبريالية والصهيونية ». (يعود ليناقض نفسه — الباحث).

ويضيف « وطبعاً ليس من المهم كثيراً، من وجهة نظر تاريخية، ا نعرف فيما اذا كان جميع المبادرين الى تأسيس عصبة التحرر الوط قد سعوا، عن قناعة وإدراك، الى إقامة منظمة سياسية يسارية، جديد في شكلها وتوجهها، (...)، ولكن المهم من وجهة النظر التاريخ هو ان عصبة التحرر الوطني لم تظهر، في البدء، كحزب شيوعي، و تتحول الى تنظيم شيوعي عربي واضح المعالم، إلاّ بعد سنوات من قيامه ومن خلال سيرورة النضال الوطني والطبقي في فلسطين[2].

وفي هذا السياق، قال آخر : « والاشارة الوحيدة الى انه كان مقصو بالعصبة أن تكون حزباً سياسياً جاءت في شرط العضوية التي كان

(1) حيدر رشيد — الحركة العمالية الأردنية... مصدر سابق ص ١٠٦ .
(2) د . ماهر الشريف — الشيوعية والمسألة القومية... مصدر سابق ص ١٠٦ .

مفتوحة « لكل مواطن عربي فلسطيني يوافق على الصفة القومية للعصبة ولنظامها الأساسي (الداخلي) « ويتابع » وهكذا عكس كل الأحزاب الشيوعية، لم يكن للعصبة أساس اقليمي (هذه هرطقة — الباحث —)، وانما كانت مبنيّة على أساس عضوية تتألف من فئة أثنية واحدة في بلد متعدّد القوميات[1] ».

يحاول هنا الباحث، أن يبري قدمه على مقاس الحذاء، فهو بالعافية يريد أن يصوّر لنا بأنه كانت في أوائل الأربعينات في فلسطين « قوميتين ! » متجاهلاً عن قصد الظروف التي مرّت بها فلسطين آنذاك، والتي لم يكن بها إلّا قومية واحدة، هي القومية العربية.

وإذا كانت هذه وجهة نظر بعض « المتشيّعين » العرب، فكيف ستكون وجهة نظر الصهيوني بورات ؟، انه يقول : « لكن ما جعل العصبة تظهر بمظهر مختلف عن سائر الأحزاب الشيوعية هو توجّهها شبه الكلي الى عرب فلسطين وانغلاقها على اليهود. وهنا كانت العصبة تظهر .وكأنها تنظيماً جبهوياً قومياً، فهي دائماً تؤكد على : إنهاء الانتداب، الاستقلال، الحريات الديمْقراطية لعرب فلسطين، النضال الدؤوب ضد الصهيونية، تمتين العلاقات بين فلسطين والدول العربية. أمّا النضالات الاقتصادية للعصبة فكانت تقوم على رفع الشعارات المبسّطة مثل : رفع مستوى المعيشة، إقرار قانون العمل، إقرار الضمان الاجتماعي. وكما يدلّ اسمها فقد كانت تقدم « التحرّر الوطني » على أي هدف آخر[2] ».

بعد هذا التتبّع لوجهات النظر المتباينة المطروحة والمتعلقة بتقييم العصبة أين هو موقعنا من وجهتي النظر المطروحتين ؟ أين نقف من هذا السجال ؟؟ ولماذا ؟

من خلال الاطلالة على الوثائق والمراجع، التي تمكنّا من الحصول عليها، وبالتالي دراستها، ومن خلال استنادنا للأيديولوجية الماركسية — اللينينية، يمكننا الجزم والتأكيد على، ان عصبة التحرّر الوطني في فلسطين،

(1) موسى خليل... مصدر سابق ص ١٢٩ .
(2) سميح سمارة — العمل الشيوعي... مصدر سابق ص ٢٥٢ .

هي بمثابة الحزب الشيوعي الفلسطيني، هي الطليعة الواعية والمنظمة للطبقة العاملة العربية، هي حزب الشغيلة وكل الكادحين والمناضلين في سبيل قضاياهم الوطنيبة والقومية والأممية. والأسباب التي تدفعنا للجزم على اعتبار العصبة، ومنذ لحظة تأسيسها الأولى الحزب الشيوعي الفلسطيني هي التالية :

أولاً : قيادتها الشيوعية. وهذا أمر في غاية الأهمية لأي حزب شيوعي.

ثانياً: الجزء الرئيسي من بنيانها (عضويتها) من الشيوعيين العرب، الذين انشقّوا عن الحزب الشيوعي الفلسطيني، أو من الشيوعيين الذين كانوا خارج إطار الحزب، ومن أعضاء الحلقات الماركسية. وهذا أيضاً شرط ضروري للحزب.

ثالثاً : نظامها الداخلي، القائم وباعتراف اولئك الباحثين الذين يشكّكون في شيوعية العصبة، القائم على الأسس الشيوعية، وأهمّ مبادئها التنظيمية مبدأ المركزية الديمقراطية، هذا بالاضافة الى تركيبتها التنظيمية الهرمية.

رابعاً : برنامجها الاجتماعي، والذي يعبّر بعمق عن مصالح الطبقات والفئات الكادحة كافة، وأي حزب شيوعي في أي مكان من أصقاع الأرض، لو كان يعيش الظروف نفسها، لما وضع برنامجاً اجتماعياً أفضل مما وضعته العصبة.

خامساً : برنامجها السياسي، على الرغم من افتقاده لبعض المصطلحات والمفاهيم، (الاشتراكية، الشيوعية.. الخ) والتي باستخدامها تزول كل أسباب السجال، وعدم تحديد الهدف الاستراتيجي للعصبة، رغم ذلك، لا يمكن نكران الطابع الشيوعي للبرنامج بالمعنى الواسع للكلمة، ومَن يريد أن يدقّق الرؤية في جوهر البرنامج وتوجّهاته، لا يمكن إلّا أن يخلص الى النتيجة الآنفة الذكر، لكن البعض يحاول جاهداً تحت ضغط الاسقاطات الحزبية المسبقة أن ينفي صفة شيوعية العصبة منذ تأسيسها، ولتجاوز الارتباك يحاول هذا البعض، أن يقول انها تحولت لاحقاً الى تنظيم شيوعي !؟!. والمصيبة ان د. ماهر الشريف الشيوعي الفلسطيني في نفيه لشيوعية العصبة في البداية انها « أكّدت في ميثاقها.. تشكل

جزءًا لا يتجزّأ من الحركة الوطنية العربية الفلسطينية »، وهل هذا يعيبها، أو ينتقص من شيوعيتها ؟! وأين يكمن هذا الانتقاص، في ان حزباً شيوعياً يعتبر نفسه جزءًا لا يتجزّأ من الحركة الوطنية في بلد المنشأ ؟، ولماذا في ظروفنا الراهنة يقاتل الحزب الشيوعي من أجل أن يكون جزءًا لا يتجزّأ من منظمة التحرير الفلسطينية ؟؟ هل هذا أساء للحزب أم العكس ؟؟ وأين كانت تكمن أخطاء الأحزاب الشيوعية العربية في مرحلة الخمسينات والستينات ؟؟ أليس بانعزالها وانغلاقها على نفسها !!، وعلى ما يبدو ان الرفيق الدكتور ماهر لم يدر بخلده انه ينسجم مع الصهيوني بورات، الذي ينطلق من خلفية مفضوحة ولا تحتاج الى عناء في البحث والنقاش أو التعليق.

ان سعي العصبة لأن تكون جزءًا لا يتجزّأ من الحركة الوطنية الفلسطينية، تعتبر نقطة مضيئة في سجل تاريخ العصبة، لأنه كما علّمنا المعلم لينين، ان مَن لا يكن وطنياً فلن يكون أممياً (شيوعياً)، وبناءً عليه، فالحزب الذي لا يحمل الصفة الوطنية — القومية — ولا يشكل جزءًا من جسم الحركة الوطنية في بلده، فهو لن يكون حزباً شيوعياً، بل حزباً انعزالياً، وحزباً لا يمثّل بحال من الأحوال الجماهير الشعبية الكادحة. فعندما نحاكم حزباً شيوعياً ما، ننظر الى صلاته بالجماهير الشعبية، والى فعاليته في الساحة المحدّدة، والى دوره الريادي في العمل القوي كموجّه وقائد أو حتى كشريك للقوى القومية الأخرى في هذه المعركة أو تلك، وعلى سبيل المثال لا الحصر، ان احدى أهمّ ميزات الحزب الشيوعي الفرنسي في سنوات النضال ضد الفاشية، كانت ميزته القومية ومساهمته في النضال القومي الفرنسي مع باقي القوى القومية الفرنسية، أليس كذلك يا خريجي السوربون ؟!

حتى عندما كانت الأممية الشيوعية موجودة (الكومنترن)، والتي مثلت فعلاً الحزب الشيوعي الدولي كان كل فرع من فروعها يحمل صفته القومية، وبصدد حزبنا الشيوعي الفلسطيني، أصرّت الأممية الشيوعية على ضرورة التعريب للحزب، وتصدّت لكل العوامل المعيقة والمعرقلة لعملية تعريب الحزب، وتدخّلت بشكل مباشر وفي أكثر من مرة من أجل إنجاز ذلك. هل كان الكومنترن بهذه السياسة ضد شيوعية الحزب أم معها ؟؟

نترك الاجابة لأصحاب المنطق الديالكتيكي المقلوب ! لكن الأصول تحتّم علينا أن نقول شيئاً :

أولاً : ان الكومنترن ـــ الأممية الشيوعية الثالثة ـــ عند تأسيسها ناضلت من أجل المحافظة على ابتعاد الأحزاب الشيوعية الثورية، المنضوية تحت لوائها، عن كل القوى الانتهازية الأخرى، من أجل المحافظة على نقائها الماركسي وتصليبها، لكن ذلك لم يعن للحظة واحدة عزل هذه الأحزاب عن النضال القومي في هذا البلد أو ذاك، وكانت الظروف في عشرينات القرن العشرين غيرها في أربعينات القرن، حيث تخلّصت الأممية الشيوعية من بعض الثغرات في عملها، والتي سجلتها في أكثر من مؤتمر لها وأكثر من اجتماع للجنة التنفيذية ومن بينها محاربة سياسة الانعزال، التي وقع بها العديد من الأحزاب، والتي على أثرها طرح شعارا « الجبهة الشعبية ! » و « الجبهة الوطنية ! » واعتبر الحزب الشيوعي الفرنسي متميزاً بصدد تطبيقه لشعار « الجبهة الشعبية ! » على الأرض.

فهل يُعقل بعد ذلك، أن يأتي رفاق شيوعيون ليقولوا، ان عدم شيوعية هذا الفصيل، اعتبار نفسه جزءًا لا يتجزأ من الحركة الوطنية الفلسطينية ؟!!

ثانياً : عندما نحاكم تجربة حزب ما، يجب أن ننطلق من الواقع أولاً وبالاستناد الى الايديولوجية الاشتراكية ـــ العلمية ـــ أعني معشر الشيوعيين ـــ، ولا يجوز في تقييم تجربة هذا الحزب أو ذاك، أن نعمل على طريقة « قل كلمتك وامش ». فما الذي جرى في فلسطين آنذاك ؟، جميعنا يعلم، انه بعد أن انعقدت كل مقوّمات الاستمرارية في إطار الحزب الشيوعي الفلسطيني بنتيجة العوامل الذاتية عند الرفاق اليهود بشكل خاص، والعوامل الموضوعية، التي كانت تحول دون أي تقارب بين اليهود والعرب بفعل « سور الصين »، الذي فرضته الصهيونية فكراً وممارسة على جماهير اليهود، التي جاءت الى فلسطين لتنفّذ المشروع الكولونيالي الصهيوني، وبفعل أيضاً المعطيات الأخرى، التي شكّلت جميعها ضرورات لنشوء عصبة التحرّر الوطني.

ثالثاً : أمّا بصدد ما ورد في برنامج العصبة، من ان العصبة تفتح باب العضوية « لكل مواطن عربي فلسطيني.. »، فهي لم تقل قط، بأن

الأمر محصور بالعرب اتباع الديانتين المسيحية والاسلامية، وانما قالت لكل « عربي فلسطيني » وهذا ينطبق على العربي الفلسطيني اليهودي أيضاً، ولكن البعض لم يعد يميّز بين اليهودي العربي، واليهودي القادم من بلاد مختلفة وقوميات مختلفة كمستوطن، كمعتدي كظالم ومستعبد للجماهير العربية، فغرق هذا البعض في المنطق الصهيوني، ولم يعد يرى شيئاً آخراً غير ذلك، تحت حجّة « الموضوعية ! » و « الابتعاد عن الشوفينية ! »... الخ من المسائل التي لا تخدم عملية البحث والتحليل وبالتالي الاستنتاج. صحيح ان الصهيونية استطاعت أن تخلق مشكلة يهودية، واستطاعت وبالتعاون مع الدول الأمبريالية، التي لها مصلحة في استثمار اليهود كأداة في تحقيق مآربهم في المنطقة العربية ذات الأهمية الاستراتيجية ؟! استطاعت أن تفرض على جزء كبير من الرأي العام العالمي صورة مشوّهة عن أزمة اليهودي !، وعكستها بفعل امتلاكها لأضخم جهاز دعاوي في العالم وكأنها مشكلة لـ « شعب بلا أرض، لأرض بلا شعب ! » و « الأمة اليهودية العالمية » و « القومية اليهودية ! » و « التفرّد اليهودي ! »، ولكن الصحيح، الذي يجب أن يراه الباحثون الماركسيون ـــ اللينينيون، ليس ما يقوله الصهاينة، ويتأثرون به، بل لفظ هذا المنطق والعمل على دحضه، ومعالجة أي ظاهرة من الظواهر المختلفة من على الأرضية الماركسية ـــ اللينينية، بالطبع مع أخذ الواقع المعطى والمحدّد بعين الاعتبار، ورؤية المتغيّرات التي حدثت في الواقع. فماذا قال لنا معلمو الماركسية ـــ اللينينية ؛ قال ماركس : « ان قومية اليهودي الوهمية، هي قومية التاجر، قومية رجل المال »[1]. أمّا لينين فيقول : بأنها « في جوهرها خاطئة ورجعيّة بصورة مطلقة وان فكرة القومية اليهودية ذات صفة رجعية ضارّة لا بالنسبة لمعتنقيها فحسب، بل وكذلك للذين يحاولون خلق انسجام بينها وبين الأفكار الاشتراكية[2] ».

---

(١) ماركس المسألة اليهودية... مصدر سابق ص ٤٦ .

(٢) لينين ـــ ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية. مصدر سابق ص ١٩١ ـــ ٢٠١، عبد الرزاق الصافي ـــ كفاحنا ضد الصهيونية... مصدر سابق ص ١٨ .

قد يخرج علينا البعض بالقول، ان هناك بعض الجوانب في الماركسية ـ اللينينية شاخت، ولكن هل المسألة التي نحن بصددها شاخت الماركسية ؟؟! لا نعتقد ذلك، بدليل ما جرى وما يجري وما سيجري لاحقاً ضد كل الشعوب التقدّمية.

وخلاصة القول، ان فلسطين آنذاك لم تجمع على أراضيها قوميتين، قبيل نشوء دولة الكيان الصهيوني، وحلول النكبة بالشعب العربي الفلسطيني، وإن كان يوجد على أرضها تجمّع استعماري من يهود العالم ذات القوميات المختلفة، فلم يكن هذا يعني لا من قريب ولا من بعيد مثل هذه الكذبة والافتراء البشع، ولم يكن الشعب العربي الفلسطيني وممثليه السياسيين ملزمين باعتماد مقولات الصهيونية مع ذلك طرح ممثّلوه حلولاً علمية ومنطقية لحل المسألة اليهودية وقضية استقلال البلاد، لكن الصهاينة ومن ورائهم الانتداب البريطاني والامبريالية الأميركية رفضوا جميع هذه الحلول.

أمّا فيما يتعلق باسم العصبة، التي أشار لها د. ماهر الشريف في بحثه، فهو أورد هذه النقطة في فقرة تحمل شيئاً من التناقض، فهو أوردها في سياق نفيه لأن تكون العصبة من بداية تأسيسها شيوعية، وفي ذات السياق يقول، ان اختيار الاسم لم يكن « من قبيل الصدفة »، وانما انطلق الشيوعيون من إدراكهم لأهمية « تعزيز دور الشيوعيين العرب، في النضال الوطني التحرّري... !! ». حقيقة ان اختيار اسم العصبة، انما يدل على ذكاء في الاختيار، فكلمة « العصبة » بحدّ ذاتها ترجعنا الى أول تنظيم شيوعي في العالم « عصبة الشيوعيين » الذي أسّسه ماركس وانجلز، فأخذ قادة الحزب كلمة « العصبة » وربطوها بطبيعة المرحلة والظروف، التي كانت تمرّ بها البلاد، وهي مرحلة التحرّر الوطني، فجاءت التسمية متكاملة ومناسبة. وكما علّمتنا تجارب الشعوب، فهناك العديد من الأحزاب الشيوعية لم تُسم نفسها باسم « الحزب الشيوعي... » وانما بأسماء أخرى انطلاقاً من تجربتها، كالحزب الشيوعي في أميركا، والحزب الشيوعي الايراني وجبهة التحرير الوطنية البحرانية... الخ.

وبناءً على ذلك، يمكن الجزم بأن الشيوعيين توفّقوا في اختيار الاسم

ولكنهم لم يفلحوا في الانخراط في جسم الحركة الوطنية الفلسطينية بنتيجة ممارسات القوى الاقطاعية وشبه الاقطاعية البرجوازية.

أمّا فيما يتعلق بوجهة نظر بورات الصهيوني، فيمكن أن يتفهّمها أي مراقب ويدرك مراميها، فهو يطالب العصبة كفصيل شيوعي، وحتى تكون كذلك، أن لا تطالب « بانهاء الانتداب ! »، ولا يريدها أن تطالب « بالاستقلال ! » بل يريدها أن تطالب بالخنوع والاستسلام والارتماء في أحضان الانتداب والصهيونية كي يسمّيها بورات شيوعية !؟، باختصار شديد، العصبة في غنى عن ما يقول ذلك البوراتي الصهيوني، لأن برنامجها من مختلف الجوانب، ورغم وجود أية نواقص ممكنة هنا أو هناك، فهو برنامج شيوعي قح بمقاييس تلك المرحلة.

ومرة أخرى نجد أنفسنا مضطرّين للتأكيد على ضرورة أخذ الظروف المحدّدة عند تقييم تجربة هذا الحزب أو ذاك، هذا الانسان أو ذاك، حتى لا نلقي برغباتنا وتقديراتنا المسبقة أو النظرية المجرّدة على تجربة الحزب المعني بالمحاكمة، ولا أخالني قاسياً أو مجحفاً، إن قلت بأن بعض الباحثين الذي عالجوا مسألة نشوء العصبة وتطوّرها، كانوا غير موضوعيين، أو حمّلوا العصبة وقيادتها أكثر مما تحتمل. وبالتالي، فمن المفيد جداً لأولئك الباحثين التدقيق والتنبّه للمسؤولية التي يتحمّلونها عند التأريخ لقضايا شعوبهم أو الشعوب الأخرى، ولا تجوز بتاتاً الكتابة عن « قفى اليد » !

الفصل الثاني

دور عصبة التحرّر الوطني في فلسطين ونشأتها وتطوّرها

أولاً: نشأة العصبة من ١٩٤٣ ــ ١٩٤٨

منذ أن تأسّست عصبة التحرّر الوطني في فلسطين، بأيلول (سبتمبر) ١٩٤٣، احتلّت موقعاً مميّزاً في النضال الوطني، ويمكن القول، ان نشوء العصبة رافقه نشوء خط سياسي واقتصادي ــ اجتماعي في بنية الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك ؛ لم تعهده الحركة الوطنية الفلسطينية من قبل.

لقد احتلّت الطبقة العاملة الفلسطينية بولادة العصبة مكانة مرموقة في النضال الوطني والطبقي، على الرغم من محاولات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة الإصلاحية، بإبعاد الطبقة العاملة عن ممثّليها، وحتى ابعادها عن كل ما له علاقة بالنضال السياسي، أرادوا لها أن تبقى أسيرة النضال المطلبي (الاقتصادي) تحت حجج وذرائع مختلفة، لكن بفضل ممثّلها الطليعي ــ عصبة التحرّر الوطني في فلسطين ــ تمكّنت من الارتقاء بوضعها ومكانتها في كل الميادين وأولها الميدان السياسي.

لقد تخندقت عصبة التحرّر الوطني في المواقع كافة، وعلى كافة الجبهات، وكانت تقف في مقدمة المدافعين عن قضايا الوطن والطبقة العاملة وكل الكادحين من الجماهير العربية، وفضحت السياسات المتخلّفة للقيادات التقليدية، وكذلك الدور التخريبي للجامعة العربية وأنظمتها الرجعيّة، وقبل كل ذلك فضحت وعرت بكل امكانياتها الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية وأساليبهم الاستعمارية — ذات الطابع التدميري. ضد شعبنا وأرضنا. وبقيت تخاطب جموع اليهود المهاجرة والتي استقرّ بها المطاف في فلسطين بفعل سياسة التضليل والديماغوجية التي مارستها الصهيونية، بقيت تخاطبهم بضرورة الابتعاد عن الصهيونية وسياساتها، ووضعت لهم الحل الديمقراطي الذي من خلاله يمكن للجميع العيش بسلام وأمن في فلسطين.

وكما بيّنا آنفاً، ان عصبة التحرّر نجحت وفشلت، أصابت وأخطأت، وهذا ما سنجليه من خلال عرضنا لنضالات العصبة، ومواقفها تجاه الأحداث كافة التي مرّت بها البلاد خلال هذه الفترة الحرجة والحسّاسة من نضال الشعب الفلسطيني..

رغم أي ملاحظات سلبيّة، أو أي أخطاء وقعت بها العصبة، إلّا أنها كانت بتأسيسها تمثل نبراساً مضيئاً في جسم الحركة الوطنية الفلسطينية، حيث أدركت منذ اللحظة الأولى لنشوئها أين يكمن موقعها في النضال الوطني الذي يخوضه الشعب العربي الفلسطيني، وعلى الرغم من ان عصبة التحرّر الوطني هي الممثّل الطليعي للطبقة العاملة، إلّا انها، لم تنسَ للحظة واحدة ان مصلحة الطبقة العاملة (في ظروف النضال التحرّري) تكمن أولاً وقبل كل شيء في مصلحة الوطن عموماً وبالتالي في تحرّره من نير الاستعمار وأداته الصهيونية. ولم يعن لها هذا، التخلّي عن برنامجها الطبقي، بل بالعكس، لقد مزجت العصبة ووفّقت بشكل ديالكتيكي رائع ما بين الوطني والأممي، ما بين الوطني والطبقي، وأغنت تجربة العصبة، النضال الوطني الفلسطيني بالمفاهيم والمواقف العلمية الثورية، كما انها بولادتها، تكون طبقتنا العاملة أنجبت للحركة الوطنية الفلسطينية فصيلاً مكافحاً بلا هوادة ضد كل أشكال الاستغلال، فصيلاً وقف دائماً وأبداً في الصفوف الأمامية وساندت قضايا

الشعوب العادلة، ولم يتأخر لحظة واحدة عن تسجيل مواقفه حتى في أحلك اللحظات وأشدّها حراجة، رغم ما اعترى هذه المواقف من أخطاء.

١ — عصبة التحرّر الوطني والمسألة الطبقية

أ — ظهور الحركة النقابية العربية بعد الحرب العالمية الثانية

ان العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عاشتها البلاد قبيل انفجار الحرب العالمية الثانية، ساهمت في تفكّك وتهلهل وضع الطبقة العاملة وبالتالي، ازدياد تعاستها وبؤسها.

فكانت أوضاع الطبقة العاملة العربية، في ظل الانتداب البريطاني، تقدّم أحسن الأمثلة على موقف السلطة المنتدبة من مصالح السكان، لقد نكب العمال في ظل الانتداب البريطاني بالبطالة وانخفاض الأجور (إذ كانت أجرة العامل غير الفني اليومية في سني ما قبل الحرب هي مائة مل (فلس) وبالاستغلال الوحشي وانعدام أي قانون ينصّ على حماية العمال. أضف إلى ذلك ان السلطة الحاكمة كانت تحارب التنظيم النقابي وتقاومه أشدّ مقاومة، وكم من مرّة قضى إرهاب البوليس على محاولات العمال لتنظيم نقاباتهم[1]. واستمرّ الوضع على هذا الحال الى أن فاجأت الحرب وطننا وحياته الاقتصادية متضعضعة نتيجة لسنوات الاضراب القاسية. وكان من البديهي أن تكون الحركة العمالية العربية في حالة هبوط من جرّاء هذه الوضعية.... وان الحركة التنظيمية بين العمال لا يمكن أن تنهض وتصير في مراقي التنظيم ما لم تكن حياة البلاد الاقتصادية في وضع يسمح للعمال بالتنظيم ويحد من طغيان أصحاب الأعمال[2].

(١) وثيقة لعصبة التحرر الوطني في فلسطين — المذكرة التي رفعتها العصبة الى منظمة الأمم المتحدة في آب (أغسطس) سنة ١٩٤٧. نشرت في كتيب صغير، تحت عنوان «طريق فلسطين الى الحرية» — منشورات الحزب الشيوعي الفلسطيني — كانون ثاني (يناير) ١٩٨٣ ص ٢٩ — ٤٠ .

(٢) د. موسى البديري — تطور الحركة... مصدر سابق... ص ٢٥٣ — ٢٥٤ . وثيقة — عصبة التحرر الوطني في فلسطين — داخلي — النشرة التاسعة — الأربعاء ٥٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٤.

جاءت التطوّرات الاقتصادية والاجتماعية التي ترافقت مع اشتعال الحرب العالمية الثانية لتفتح الباب واسعاً أمام نهوض حركة الطبقة العاملة العربية، وذلك جاء بنتيجة حاجة الجيوش البريطانية التي تمركزت في فلسطين أو بالقرب منها، لأيدي عاملة جديدة للعمل في معسكرات الجيش، كما ان ظروف الحرب وقطع طرق المواصلات، دفع البريطانيين دفعاً لإفساح المجال أمام نهوض صناعة عربية، حيث انتشرت المصانع والمشاغل في أرجاء المدن الفلسطينية، وبدأت صفوف الطبقة العاملة تزداد وتتّسع بفضل انتعاش الصناعة العربية، وكان من المحتّم في مثل هذه الظروف أن تنمو الحركة العمالية[1].

ولقد أدّى هذا التطوّر الى تحقيق تغييرات هامّة في الجانب الاقتصادي من حياة الطبقة العاملة العربية كان له أكبر الأثر في دعم النضال المطلبي للعمال العرب ودفعهم الى تنظيم أنفسهم بشكل أقوى وأسرع[2].

وحتى نشوب الحرب لم يكن كممثل للعمال العرب إلّا جمعية العمال العربية الفلسطينية التي استعادت نشاطها بعد فترة ركود طويلة ابتداء من عام ١٩٤٢. وكان الفضل في ذلك الى نشاط الشيوعيين داخل صفوفها إذ أدّت ظروف الحرب العالمية الثانية إلى إحراز الحزب الشيوعي قدراً من العلنية بعد أن كان مطارداً منذ عام ١٩٢١[3].

وبادر الشيوعيون الى الاتصال بسامي طه رئيس جمعية حيفا، من أجل احياء التنظيمات النقابية القديمة. ومع ان سامي طه ظل معادياً للشيوعيين فلم يكن اهتمامهم منصبًّا على نوعية القيادة القائمة، بل على ضرورة العمل لإحياء الحركة النقابية. وظل الشيوعيون في المؤخرة وسمحوا لسامي طه ورجاله بكسب الرصيد مع ان أعضاء الحزب كان لهم الدور الأكبر في

(١) المصدر السابق ص ٢٥٤.
(٢) حيدر رشيد ــ الحركة العمالية الأردنية... مصدر سابق ص ١٥٠.
(٣) د. موسى البديري ــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٣٩.

قيادة التنظيمات العمالية وكان من أبرزهم حسن يحيى أبو عيشه في القدس (...) وخليل شنير وخالد الزغموري[1].

لقد كان موقف الشيوعيين هذا منسجماً مع توجّههم بالانخراط في النضال مع كل العناصر الوطنية، وبغض النظر عن الاختلافات الايديولوجية، وكانوا بذلك يطبّقوا أحد المبادئ اللينينية حول العمل في النقابات، وذلك من أجل تعزيز وحدة الطبقة العاملة وبالتالي تعزيز دورها في النضال الاقتصادي (المطلبي) وفي الوقت نفسه، تعزيز دورها في النضال الوطني (السياسي).

يقول لينين بهذا الصدد: «فلكيما تتوفر إمكانية مساعدة «الجماهير» واكتساب عطف «الجماهير» ومؤازرتها وتأييدها، ينبغي عدم الخوف من الصعوبات، ينبغي عدم الخوف من المكائد والمماحكات والاهانات والملاحقات من جانب «الزعماء» (...) وينبغي العمل، إلزاماً، حيث يوجد الجمهور. تنبغي المقدرة على بذل أية تضحيات، وعلى تذليل أعظم العوائق لأجل القيام بصورة منظّمة وبعناد وصلابة وأناة، بالدعاية والتحريض في تلك المؤسسات والجمعيات والاتحادات بالذات، حتى وإن كانت أشدّها رجعية، حيث توجد الجماهير البروليتارية أو شبه البروليتارية[2]». استناداً الى هذا الفهم اللينيني، انخرط الشيوعيون في جمعية العمال تحت قيادة سامي طه وأزلامه، والذي وقف كالجدار السميك بين الشيوعيين وبين احتلال المواقع النقابية القيادية، وحتى في الحالات، التي تجاوزت «فيتو» سامي طه وارتقت بمواقعها القيادية، كان رئيس جمعية العمال يحاربهم ويتآمر عليهم، مما حدا ببعض الشيوعيين لتأسيس نقابات عمالية جديدة.

ب ــ تأسيس اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب

نجح بولس فرح في استقطاب عدد من الشبان النشطين، وكان نتيجة ذلك تأسيس نادي «شعاع الأمل» في حيفا في اكتوبر ١٩٤٢، وكان

(١) المصدر نفسه. ص ٣٩ ــ ٤٠.
(٢) لينين ــ مرض «اليسارية» الطفولي في الشيوعية ــ دار التقدم ــ موسكو ــ ص ٣٦.

من بين نشيطي هذا النادي إميل توما وتوفيق طوبي[1] ولكن النادي بعد فترة قصيرة من الوقت.. حلّ نفسه بعد نجاحه في إقامة اتحاد نقابات وجمعيات العمال العربية (في نوفمبر ١٩٤٢)[2].

بعد تأسيس الاتحاد بشكل رسمي توصّل إلى تأسيس نقابة للعمال في شركة شل واتحادات عمال عربية في شركة بترول العراق واتحاد للعمال العرب في مصافي البترول المتحدة، وهيئة العمال الناصرة تأسست في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٢ وانضمّت إلى الاتحاد — إلّا انها عادت وانسحبت منه، وعن طريق الاتحاد تم تنظيم عمال ستيل اخوان وعمال بناء النقل في الحكومة، وفي دائرة الأعمال العامّة في الحكومة، ووصل الاتحاد الى عمال معسكرات الجيش، وتحوّل بذلك الى حقيقة ثابتة وأمر واقع لا يمكن إنكاره وبخاصة بعد الانتصارات الكبيرة التي حقّقها على مستوى تنظيم العمال العرب، ولذلك كان لا بد لجمعية العمال العربية الفلسطينية أن تعترف بهذا الواقع العملي وإن لم تكن مرتاحة له، ولقد أعلن الاتحاد منذ البداية بأنه لن يحاول تنظيم العمال التابعين لجمعية العمال العربية الفلسطينية في الوقت نفسه الذي أعلن فيه عن توجّهاته السياسية الثورية ومعاداته للفاشيّة ورغبته في تحقيق وحدة الحركة العمالية العربية في فلسطين من خلال إقامة اتحاد كونفدرالي بين التنظيمين النقابيين، وقد استمرّت قيادة الاتحاد في تبنّي هذه الدعوة إلّا انها لم تلاقِ استحساناً أو موافقة من قيادة جمعية العمال العربية الفلسطينية[3].

---

(١) د . موسى البديري — تطور الحركة... مصدر سابق ص ٣٨ .
تعريف لبولس فرح : هو عامل قديم في السكك الحديدية واحد المشاركين في مؤتمر العمال العرب الأول في حيفا عام ١٩٣٠. وكان بولس فرح عضواً قديماً في الحزب الشيوعي وكان قد أمضى عدة سنين في مدرسة الكومنترن في موسكو، عاد بعدها لفلسطين عام ١٩٣٨، واستلم لفترة قصيرة مراكز ذات مسؤولية في الحزب ولكن عضويته في هيئات الحزب جمدت عام ١٩٤٠ نتيجة خلافات سياسية وشخصية بينه وبين سكرتير الحزب رضوان الحلو (موسى)، ووجهت له اتهامات عدة، أهمها التخاذل أمام سلطات الانتداب خلال الفترة القصيرة التي اعتقلته السلطات فيها نتيجة لهذا أصدرت اللجنة المركزية قراراً يمنع أيّاً من أعضائه الاتصال به.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩.

(٣) حيدر رشيد — الحركة العمالية الأردنية... مصدر سابق ص ١٦٢ — ١٦٣.

انطلاقاً من ذلك، يبرز أمامنا أكثر من سؤال، أولاً، هل هناك ما يبرّر تأسيس الاتحاد أم لا ؟؟ وثانياً، ما هو الجديد الذي حمله تأسيس الاتحاد الى الحركة النقابية العربية ؟؟

كان لتأسيس اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب جانبين، جانب سلبي تمثّل في انه كان بإمكان القائمين على تأسيس الاتحاد، أن ينخرطوا سويًّا مع مجموع العمال في صفوف جمعية العمالية العربية الفلسطينية، على الرغم من ان قيادتها كانت ذات اتجاه إصلاحي، وكانت تبذل كل ما في وسعها من أجل إبعاد الطبقة العاملة عن النضال السياسي، وهذا ما يؤكّده سامي طه، رئيس الجمعية في حديثه لصحيفة « المقطم » القاهرية، حيث أبان سامي طه « حقيقة عزا اليها جزءاً كبيراً مما أصابته جمعيّته من نجاح، وهي بُعدها عن المزالق السياسية وتخلّيها عن اعتناق أي مذهب سياسي كان ». وحرص سكرتير عام جمعية العمال على أن يُبيّن لمندوب الصحيفة « المبدأ الذي عليه يدور رحى حركتهم، وهو الوصول إلى أهدافهم بالتدريج لا بالثورة، فهم جد مقتنعين بأن العمل في أمانة وإخلاص وصبر وامتثال للنظام هو السبيل لتحقيق أماني العمال وطلباتهم في أقرب وقت. فما كان التذمّر، والاندفاع الى الفتنة، والسعي لاحداث الشغب مما يؤدّي إلى تقدّم[1] ».

رغم ذلك، أي رغم هذه السياسة الاصلاحية جداً لرئيس جمعية العمال، إلّا ان النضال المشترك مع مجموع العمال المنخرطين في الجمعية كان بالضرورة سيخلق ظروفاً أفضل أمام الشيوعيين وكل التقدّميين في صفوف النقابات، الأمر الذي سينشأ عنه احراز تقدّم في الصراع مع الاتجاه الاصلاحي وبرنامجه من خلال عملية الضغط المتواصل والمستمرّ من القاعدة العمالية بفعل دعاية الشيوعيين وتحريضهم وتوجيههم لها، وهو ما سينتج عنه تغيير في البرنامج الاصلاحي وفي السياق في القيادة الاصلاحية. بالتأكيد لن يكون الأمر بالعملية الميكانيكية — الاستاتيكية — البسيطة، بل ان هذا الأمر سيحتاج الى نضال طويل وقاس وعنيد لمواجهة القيادة الاصلاحية التي لن تتخلّى عن برنامجها بالسهولة التي يمكن أن يتصوّرها بعض السطحيين.

---

(١) عبد القادر ياسين — تاريخ الطبقة العاملة.!. مصدر سابق ص ١٩٥.

رغم صعوبة النضال وشراسته ضد الاصلاحية وروّادها في الحركة النقابية الفلسطينية، كانت شروط النضال بالنسبة للطبقة العاملة الفلسطينية أفضل بما لا يُقاس من عملية الانقسام والتشرذم، التي تزيد في الوضع السلبي، الذي كانت تعيشه الطبقة العاملة. صحيح ان الطبقة العاملة ازدادات وتوسّعت وتنظّمت في صفوف النقابات والجمعيات العمالية، ولكن الصحيح أيضاً، ان منظماتها العمالية ظلت تعمل منفردة ولم تصل الى ادارة مركزية تجمع بينها وتوحّد قواها وتسير بها على سياسة عمالية واحدة[1]. فجمعية العمال العربية الفلسطينية بحيفا، واتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب بحيفا، وجمعيات العمال في الناصرة ونابلس وطولكرم ورام الله ويافا والقدس، جميعها تعمل منفردة دون أن يجمع بينها هيئة مركزية تمثّلها، مع ان طبيعة نضالها وأهدافها المشتركة تحتّم عليها التعاون في الحقل المشترك بغض النظر عن الفروق التنظيمية التي يمكن أن تتسم بها كل منها[2].

لهذا بالضبط نقول، بانه كان من الأفضل والمستحسن لو ان الاتحاد حسم خياره منذ أن بدأ بالعمل واتجه نحو الانخراط في صفوف جمعية العمال العربية الفلسطينية لأن مثل هذا العمل سيخلق المناخ الصحي أمام اتساع نضالات الطبقة العاملة العربية وتطوّرها في المعارك الدائرة، إن كانت المعارك الداخلية، بمعنى آخر في إطار الجمعية ضد الاتجاه الاصلاحي، أو معارك النضال المطلبي ضد أصحاب العمل وسلطات الانتداب، وإن كانت في الجانب الوطني (السياسي).

أمّا الجانب الآخر من الصورة، والذي يجب أن نراه أيضاً، ان الاتحاد ومنذ تأسيسه لعب دوراً ايجابياً ومهمًّا في تنشيط الحركة العمالية، حيث تحول وبسرعة كبيرة، الى محور للحركة النقابية العربية التقدمية في البلاد[3].

(١) د . موسى البديري ــ تطور الحركة... النشرة التاسعة ــ عصبة التحرر... مصدر سابق ص ٢٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٥ .
(٣) د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة القومية... مصدر سابق ص ١٠٨ .

مع اللحظة الأولى لتشكّله (الاتحاد) صاغ برنامجاً واضحاً ومحدّداً وربط النضال المطلبي بالنضال السياسي، وكذلك وقف الى جانب دعم الحرب التي يخوضها الاتحاد السوفييتي والحلفاء ضد الفاشية الالمانية والايطالية والعسكرتاريا اليابانية، ورفع عالياً مطالب العمال ووقف دائماً وابداً الى جانب اضراباتهم، ولم يخذلهم كما فعل جماعة الجمعية في بعض الاضرابات، وكذلك لا بد من رؤية دعوة الاتحاد لجمعية العمال العربية الفلسطينية لاقامة اتحاد كونفدرالي بينهما، الأمر الذي رفضته الجمعية، ولم تستطيع قيادة جمعية حيفا، وبالخصوص سامي طه نفسه التغلّب على عقدة معاداتها لاتحاد النقابات مما أدّى بها الى رفض عرض قدّمته قيادة الاتحاد في أوائل عام ١٩٤٣، يدعو الى اقامة اتحاد كونفدرالي بين التنظيمين. وقد كانت هذه غلطة فادحة بحق تطوّر الحركة النقابية العربية المستقبلي وبحق الجمعية نفسها[1].

وعلى النطاق النقابي الدولي، كان من أهداف اتحاد النقابات انشاء علاقات مع مؤتمر النقابات البريطاني وإحراز اعتراف اتحاد النقابات العالمي، وكان الأساس الفكري لاتحاد النقابات مبنيًّا على حقيقة ان العمال العرب يشكّلون مع أفراد عائلاتهم القسم الأكبر من السكان العرب في فلسطين وان هذا القسم من السكان لم يتمثّل في الهيئات العربية العليا المختلفة التي تشكّلت في البلاد منذ بدء عهد الانتداب. وكان نشاط الاتحاد يرتكز على الايمان بأن أية محاولة لتعبئة البلاد في مجابهة الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية تتطلّب انشاء هيئة عليا تمثيلية في تكوينها وديمقراطية في أساليبها، وناضل اتحاد النقابات ليحوز على الاعتراف بكونه الناطق الرسمي بلسان الطبقة العاملة العربية في البلاد[2].

ان قيادة اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب كانت واضحة وصائبة في تحديد ما تحتاج اليه الطبقة العاملة بعكس جمعية العمال العربية الفلسطينية، فحدّدت للحركة العمالية العربية في فلسطين هدفين الأول تنظيم العمال

(١) د . موسى البديري ــ تطور الحركة ــ مصدر سابق ص ٤١ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٥ .

العرب للدفاع عن وضعيتهم الاقتصادية المشتركة ولرفع مركزهم الاجتماعي والثقافي عن طريق نضالهم الموحّد... والثاني الاشتراك العملي على ضوء مصالحهم الخاصة في الحركات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تظهر في بلادهم[1].

وكانت هذه القيادة ترى جيداً أين تكمن نقاط الضعف الملازمة للحركة العمالية العربية، ولذا ناضلت من خلال كل الوسائل المتوفّرة أمامها لتحقيق تقدّم في وضع الحركة العمالية، من خلال الكتابة في الصحافة، ومن خلال المذكرات التي أرسلتها للمعنيين بهذا الأمر في سلطات الانتداب. الى الدعاية والتحريض بين أوساط العمال من أجل الاضراب وبالتالي الضغط على الجهات المسؤولة وتحديداً سلطات الانتداب من أجل إقرار حقوق العمال.

ان العمال العرب محرومون من كل حماية قانونية أو غير قانونية، انهم محرومون من تشريع صريح ينظّم علاقاتهم مع أصحاب الأعمال ويبيّن واجبات الفريقين المختلفة. ان نقاباتهم محرومة من الاعتراف الرسمي بها كمنظمات رسمية، لها حق التكلم باسم العمال مع أصحاب العمل، وعقد الاتفاقات الاجتماعية معهم. انهم محرومون من حق التأمين الاجتماعي عند عجزهم عن العمل في سن الشيخوخة، انهم مغبونون في أجورهم.... وهم فوق ذلك مغدورون غدراً ملحوظاً في تساوي الأجور، عند تساوي الكفاءات الفنية مع غيرهم من العمال غير العرب[2].

وفي اللقاء الذي جرى بين مندوبي الاتحاد بالاضافة لممثلي نقابة العمال العرب في شركة بترول العراق وشركة تكرير البترول وشركة شل مع مدير دائرة العمل في فلسطين المستر جريفز والمستر شدلي مدير دائرة العمل في المنطقة الشمالية تمّ المطالبة بالتالي:

١ ـ الاعتراف رسمياً بالحركة النقابية في فلسطين وإصدار قانون بذلك.

(١) د. موسى البديري ـ تطور الحركة... بولس فرح ـ مقال بعنوان ـ العمال العرب وقضية التحرر الوطني ص ٢٦٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٢ .

٢ ـ خلق تأمينات اجتماعية للعمال مثل التأمين ضد المرض وتأسيس صندوق توفير للعمال العاطلين والمفصولين على أن تُعطى التأمينات صفة قانونية رسمية تجبر أصحاب الأعمال على الأخذ بها.

٣ ـ إصدار رخصة للحركة النقابية بنشر جريدة تكون لسان حال العمال العرب في فلسطين.

٤ ـ حق تمثيل العمال في اللجان الرسمية للتعبير عن آرائهم في القضايا التي تهمّ العمال.

٥ ـ مشروع إعادة بناء فلسطين بعد الحرب وضرورة إيجاد أعمال على مقياس واسع لاستيعاب العمال المسرَّحين من أعمال الجيش والأخذ بعين النظر في بناء المدارس والمستشفيات بصورة خاصة نظراً للحاجة الماسّة لهذه المؤسسات ذات الصفة الشعبية المفيدة لأبناء البلاد.

٦ ـ حماية مصالح العمال في الفترة التي تقع بين تسريح العمال بعد الحرب والتسريح الجزئي الذي سيقع لزمن معيّن قبل نهاية الحرب[1].

هذه بعض الأمثلة على نشاط قيادة اتحاد نقابات العمال العرب، فهي لم تترك باباً إلّا وحاولت طرقه والدخول منه، من أجل الوصول الى تحقيق مطالب العمال العادلة والمشروعة، ومن أجل رفع شأن الطبقة العاملة ودفعها لاحتلال موقعها في النضالات التي يخوضها شعبنا العربي الفلسطيني، وبالتالي رفع مستوى وعيها من أجل أن تدرك رسالتها التاريخية في إعادة صياغة المجتمع من جديد بما يتلاءم مع مصالحها ومصالح كل الشغيلة الكادحين..

من خلال هذه النشاطات، استمرّت نجاحات نقابات وجمعيات العمال العرب فبعد أن كان قد استأجر عمارة كبيرة استطاع وبفضل الدعم الذي قدّمه له مفتش العمل اليساري شدلي أن يحصل على تصريح حكومي

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ـ من أوراق د. موسى ـ وثيقة ـ نشاط اتحاد نقابات العمال العرب ـ اجتماع هام لبحث المشروع الانشائي بعد الحرب.

لاصدار جريدة خاصة تنطق بلسانه وهي جريدة « الاتحاد »، وذلك في ١٤ أيار سنة ١٩٤٤. وكان ذلك نقطة انعطاف بارزة في تاريخ الاتحاد وعمله حيث ساعدت هذه الصحيفة في تدعيم نشاطاته، وقد صدرت الاتحاد كلسان حال العمال العرب في فلسطين وبعد تأسيس مؤتمر العمال العرب في فلسطين سنة ١٩٤٥ أصبحت « الاتحاد » الناطق الرسمي له[1].

استناداً لكل ذلك، نخلص الى نتيجة مفادها، ان تأسيس اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب، كان سلاح ذو شقين، من جهة شكل عبئاً جديداً، أضيف للأعباء التي تثقل كاهل الطبقة العاملة الطبقية والقومية، من زاوية شدّ صفوف الطبقة العاملة الفلسطينية، التي كانت بحاجة ماسّة للتكاتف والتلاحم والوحدة لمواجهة الأعداء الطبقيين والقوميين. ومن جهة ثانية، حمل الاتحاد البرنامج الثوري، وربط بين النضالات المطلبية والسياسية، ودافع عن مصالح العمال في المعارك كافة، التي خاضها، وحاول أن يرتقي بنضالات الطبقة العاملة الفلسطينية من خلال ربط النضالات المحلية بالنضالات العالمية للطبقة العاملة في بريطانيا وغيرها، كما انه تمكّن من أن يصدر جريدة خاصة بالعمال — الاتحاد — أضف إلى ذلك أن الاتحاد بقي يصبو نحو الوحدة الكونفدرالية كمقدمة للوحدة الاندماجية بين المؤسستين النقابيتين.

انطلاقاً من ذلك، نرى ان التأسيس رغم ايجابياته الآنفة الذكر، والتي لا يمكن إلّا إيرادها والاعتراف بها، رغم ذلك، تبدو مبرّرات تأسيس الاتحاد غير كافية وضعيفة.

ج — الأحزاب السياسية الفلسطينية والطبقة العاملة

كما أوضحنا في الفصل الأول، من أن الأحزاب السياسية في فلسطين (باستثناء الحزب الشيوعي الفلسطيني) لم تكن غير أحزاب لأبناء العائلات الاقطاعية وشبه الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة، وهي من خلال موقعها الطبقي

(١) حيدر رشيد — الحركة العمالية الأردنية... مصدر سابق ص ١٦٣.
هارولد شاولي كان قبل قدومه الى فلسطين سكرتير لأحد فروع اتحاد نقابة عمال الهندسة، وهي إحدى النقابات الأكثر يسارية في الحركة النقابية البريطانية.

هذا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون حريصة على العمال وأوضاعهم، بل العكس صحيح، انها حريصة كل الحرص على تجهيل العمال بأوضاعهم، وإبقائهم تحت ابط هذه الزعامات، وبالتالي تحت هيمنتهم حتى لا يحدث المحظور، الا وهو، ارتفاع مستوى وعي العمال الاقتصادي والسياسي، وبذلك إدراكهم لدورهم في المجتمع، لهذا كانت الأحزاب السياسية الفلسطينية تبذل جهدها لاحتواء الحركة العمالية. وكانت مجمعة كلها فيما عدا الحزب الشيوعي على إبعاد العمال الفلسطينيين عن العمل السياسي، ولكن عندما كانت تتأزّم الأمور بين قادة هذه الأحزاب (وكلهم من كبار التجار وكبار الملاكين وأولاد العائلات) وبين حكومة الانتداب البريطاني (كانت تسارع — الباحث) هذه القيادات الى دعوة الطبقة العاملة الى التحرّك دون أن تترك لها حرية العمل، فحركة الطبقة العاملة يجب أن تكون في رأي تلك القيادات ضمن الحدّ الذي لا يهدّد بتحوّلها ضد قيادة هذه الأحزاب نفسها. ولذلك تطلب إبقاء زمام قيادة الطبقة العاملة دوماً بأيدي القيادة الوطنية المحلية، حيث يمكن تحريك العمال في استعراض للقوة أمام سلطات الانتداب من أجل الضغط عليها ومن منطلق المساومة لا المقاومة[1].

ان هذه الأحزاب لا يروقها بتاتاً أن ترى الطبقة العاملة تتسع وتزداد ويرتقي دورها، انها كانت تنظر بغضب الى الدور الجديد، الذي تلعبه الحركة العمالية وإلى آفاق هذا الدور المرتقب.. وحينما بدأت الحركة النقابية تحقّق نتيجة كفاحها مكاسب ملموسة للعمال انفض هؤلاء عن تلك الأحزاب وانضوا تحت لواء الحركة النقابية مما أفقد القيادات السياسية رشدها وجعلها تتربّص بالحركة العمالية خصوصاً بعد فشل محاولات احتوائها وتدجينها[2].

وبناءً عليه، يمكن القول، ان الأحزاب السياسية في البلاد باستثناء الحزب الشيوعي الفلسطيني ولاحقاً العصبة، كانت بحاجة للطبقة العاملة ونضالاتها بالقدر الذي تخدم فيه توجّهاتها السياسية (توجّهات الأحزاب)، وهذا

(١) أسعد صقر — الحركة العمالية — مصدر سابق ص ١٨٨.
(٢) المصدر السابق ص ١٩٤.

يعني العمل على إبقاء الطبقة العاملة الفلسطينية خاضعة لأفكارهم ومفاهيمهم وبالتالي لبرامجهم السياسية، الأمر الذي يعني، عدم السماح للطبقة العاملة بالتطور والنهوض من كبوتها، وإدراك مكانتها ودورها التاريخي، لأن ذلك يعني استيقاظ البديل الطبقي وبالتالي السياسي، وهو ما ترتعد فرائص البرجوازية وقبلها الاقطاع حينما تفكر، فقط تفكر بذلك، فما بالك اذا تجسّد ذلك كحقيقة على الأرض، وأصبح خطراً ماثلاً في الخارطة الطبقية والسياسية للبلاد !

د ـ عصبة التحرّر الوطني في فلسطين والحركة النقابية العمالية

كما رأينا، ان الشيوعيين الفلسطينيين كانوا من المبادرين لانهاض الحركة النقابية من كبوتها التي لازمتها خلال السنوات التي سبقت الحرب، وفيما بعد ذلك بفترة قصيرة. ومن خلال نشاطهم، إن كان الشيوعيون الذين كانوا ما زالوا في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني، أو من اولئك الذين كانوا خارج صفوفه، ويمكننا الجزم، ان الشيوعيين كانوا لولب الحركة النقابية، والدينمو المحرك لفعاليتها ونشاطها، وكل من موقعه ان كان في جمعية العمال العربية الفلسطينية أو من خلال اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب، ولكن كل على انفراد.

وفيما بعد، أي بعد أن تأسّست عصبة التحرّر الوطني في فلسطين تعزّز نضال الشيوعيين في صفوف الحركة النقابية، وبدا أكثر تناسقاً وتناغماً، بحيث أصبح الاتجاه الثوري في الحركة النقابية يعمل بقيادة مايسترو واحد، وكان العزف شديد الانسجام. فمنذ أن ظهرت العصبة الى مسرح الحياة السياسية صار « اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب » في حيفا مركزاً للاتجاهات اليسارية داخل الحركة النقابية العربية في فلسطين[1]. وفي الوقت نفسه كانت العصبة تقود نشاط الشيوعيين الذين استمرّوا في العمل في صفوف جمعية العمال العربية الفلسطينية.

---

(١) د . ماهر الشريف ـ الشيوعية والمسألة القومية... مصدر سابق ص ١٠٩ .

من خلال ذلك، مضافاً لدور جريدة « الاتحاد » التي بدأت بالصدور في ١٤ أيار ١٩٤٤ كلسان حال للعمال العرب، احتلّت قيادة عصبة التحرّر دوراً مقرّراً وحاسماً في حياة الطبقة العاملة وحركتها النقابية، على الرغم من تكالب القوى السياسية الأخرى في البلاد ضدها وتحديداً قيادة الحركة الوطنية التي لم تعر أذناً صاغية لما تطرحه العصبة، لأنها لا تريد أن تصغي لذلك، ولا تريد أن تسمع ذلك، مع ان الذي تطالب به العصبة، شيء موضوعي وفي الوقت نفسه لا يهدّد هذه القيادات، إلّا انها كانت ترفض مبدأ السماع لها، وتعمل كل ما في وسعها من أجل عزلها وتطويقها، لأن ما تطرحه (وهو بالمناسبة الحدّ الأدنى)، يُدخل الرعب لقلوب تلك القيادات التقليدية.

ان الحركة العمالية تطالب بإيفاد ممثّلها الى اللجان الحكومية التي تؤلف لبحث قضايا العمال كذلك فهي لا ترضى بأن تكون في ذيل الحركة الوطنية بل في الصفوف الأمامية لها ممثليها المجرّبين القادرين على عرض مطالبها وتوضيح أغراضها المشتركة في وضع برنامج وطني يتضمّن بعض أهداف الطبقة العاملة العربية الحاضرة[1]. هذا هو ما تطالب به الحركة الوطنية، انه وفي ظل الوضع الجديد، حيث الطبقة العاملة تشكّل تقريباً ثلث المجتمع. انه الحدّ الأدنى الذي يجب أن يتوفّر للطبقة العاملة، لكن هذه القيادات كما أوضحنا لا يمكن إلّا أن تكون في خندق المواجهة والتصدّي لمثل هذه الطلبات البسيطة والمتواضعة.

ومع ذلك لم تكلّ العصبة ولا فرعها النقابي المستقل « اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب » ولا جنودها المجهولون الذين يعملون وسط الجمعية، ولا كذلك صحيفتها، لم يكلّوا عن النضال الدؤوب، واستمرّوا بنفسهم الشيوعي الطويل والصبور في متابعة طريقهم الشاق الصعب يدافعون عن قضايا العمال ومجموع الكادحين.

---

(١) د . موسى البديري ـ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٢٦١ .
من الأوراق ـ الوثائق ـ بولس فرح ـ العمال العرب وقضية التحرر.

هـ ــ الحركة الاضرابية العمالية في الأربعينات

انسجاماً مع وضع الطبقة العاملة وانتعاشها، وارتفاع مستوى وعيها بنتيجة نشاط الشيوعيين والديمقراطيين الآخرين، دخلت الحركة الاضرابية مرحلة جديدة من الاتساع والفعالية ومن خلال التتبّع لتطوّر هذا النشاط العمالي، يمكن الاعتقاد بأن الاضرابات أضحت تقليداً من تقاليد العمال العرب، ولم تنحصر الاضرابات بالجانب المطلبي، لا بل، تجاوزت ذلك الأمر، ودخلت حيّز النضال السياسي. وهذا بحدّ ذاته يدلل الى أي مدى ارتقى وعي الطبقة العاملة الفلسطينية، وهو ليس معزولاً عن نشاط الشيوعيين.

ان الاضطهاد المركب الواقع على كاهل العمال العرب دفعهم دفعاً لمعترك النضال بجميع صفوفه المطلبية والسياسية. فظروف هؤلاء العمال كانت لهم المعلم والمدرسة، إذ طالما اصطدموا، يومياً، بوقائع الاستغلال البريطاني والصهيوني... والحكام البريطانيون هم الذين يمارسون ضدهم شتّى أساليب القهر والتنكيل، وحكومة الانتداب البريطاني هي التي تشوّه قضيتهم... وفي سوق العمل ينافسهم عمال جلبتهم الحركة الصهيونية من خارج البلاد، وهي الحركة التي تمارس أبشع أنواع التمييز ضد العامل العربي، كما يعمق تدفّق الهجرة اليهودية الوافدة الى فلسطين أزمة البطالة العمالية في البلاد[1].

ارتباطاً مع هذا الاستغلال اجتاحت فلسطين، خلال الأربعينات، موجة لم يسبقها مثيل من الاضرابات الاقتصادية والتحرّكات الجماهيرية الموحّدة، المستمرّة في تقطّع وانعكست هذه الموجة في عدد الأيام الضائعة في الجانب العربي، سنوياً، من جرّاء الاضرابات. حيث بلغت في سنة ١٩٤٠ نحو ٢٤٠ ألف يوم، وفي سنة ١٩٤٢ نحو ١٣٤ ألف يوم، وفي سنة ١٩٤٣ نحو ٢١,١٦٧ يوماً، وفي سنة ١٩٤٤ نحو ٢٤٨ ألف يوم[2].

---

(١) عبد القادر ياسين ــ تاريخ الطبقة العاملة... مصدر سابق ص ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩ .

ان هذا التصاعد في النضالات الاضرابية شمل فئات جديدة في السنوات اللاحقة، فلم تنحصر الاضرابات بالعمال العرب، بل شملت أيضاً العمال اليهود، فالاضراب الذي أعلنه موظفو وعمال البريد في ١٠ آب (أغسطس) ١٩٤٥ (امتد) الى سكة الحديد ومختلف دوائر الحكومة، واحتلّ فيه العمال العرب واليهود مكاناً هامًّا أوحى الى « الاتحاد » بأن تكتب :

« هذا الاضراب التاريخي قد أظهر الاستعمار البريطاني على حقيقته وأظهر أن لا فرق بين العرب واليهود وأظهر العدو المشترك ورسم طريق النضال » (٢١ نيسان ١٩٤٦)[1].

وتتالت الاضرابات بشكل أعنف وأقوى من السابق، فإضراب عمال المعسكرات لم يبق صحيفة يومية عربية أو يهودية في فلسطين إلّا وأتت بالتفصيل على أنباء الاضراب الكبير الذي قام به ٥٠ ألف عامل من عمال المعسكرات في فلسطين استنكاراً لحملة التنسيق التي تقوم بها سلطات الجيش بينهم حالياً مطالبين هذه السلطات بعدم تشغيل الجنود البريطانيين محلّهم والاعتراف بالتنظيم النقابي ومنح المنسقين تعويضات عن خدماتهم الطويلة أثناء الحرب ومطالبين الحكومة بإيجاد المشاريع الانشائية التي بدت بها لتشغيل العمال بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

... وعلى الرغم من (ان الجمعية رفضت) تأليف لجنة مشتركة منها ومن المؤتمر لتنظيم الاضراب ولقيادته، قد وقفت موقفاً طيباً منه إذ أيّدت نداء المؤتمر الذي دعا العمال فيه الى الاضراب الكبير يوماً واحداً.

ولقد وقف على قيادة هذا الاضراب وادارته مؤتمر العمال العرب (أي بقيادة عصبة التحرّر)[2].

---

(١) د . اميل توما ــ يوميات شعب ــ ٣٠ عاماً على الاتحاد ــ منشورات عربسك ــ طبع في مطبعة الاتحاد التعاونية ــ حيفا أواخر ١٩٧٤ ص ٢٤.

(٢) د . موسى البديري ــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٣١١ .
من الأوراق ــ الوثائق ــ ٢٠ أيار يوم آخر من أيام عمالنا ! .

بعد هذا العرض الموجز عن الحركة الاضرابية في البلاد خلال فترة الأربعينات، يبرز أمامنا سؤال، ما هي مواقف الفريقين العماليين من هذه الاضرابات؟؟، وعلى العكس من مؤتمر العمال العرب لم تكن جمعية العمال العربية الفلسطينية كما يستدل من سجلها مستعدة دائماً لأن تقف الى جانب العمال المضربين. وكانت الجمعية في كثير من الأحيان تأخذ دوراً وسيطاً، في محاولة منها لتلعب دوراً معتدلاً تجاه أصحاب الأعمال، وقد ظهر هذا الموقف جليًّا في إضراب عمال بترول العراق في حيفا[1].

وبناءً على ذلك، نستنتج من ان الجمعية لعبت دورها الاصلاحي على الصعيدين النظري والعملي والتطبيقي، وهي في هذا سلكت، مسلك النقابات البريطانية (التريديونيونية)، التي كانت تعتبر مثالها الأعلى، الأمر الذي عمّق التناقضات داخل صفوف الجمعية وعرضها مجدّداً للانشقاق.

و ــ الانقسام مجدداً في صفوف الحركة العمالية العربية

في سياق تعرّضنا آنفاً لجمعية العمال العربية الفلسطينية، أوضحنا، ان قيادة هذه الجمعية، قيادة إصلاحية، قيادة صفراء، عملت كل جهدها من أجل إبعاد العمال المنضوين تحت لوائها عن الخوض في السياسة، أو الاقتراب من هذا المحظور !؟، كما رفضت أي شكل من أشكال الديمقراطية داخل صفوفها، وكانت قيادتها تلجأ دائماً الى سياسة كم الأفواه المعارضة، مضافاً لذلك، ان قيادة الجمعية ضاقت ذرعاً بالشيوعيين الموجودين في صفوفها نتيجة ضغطهم المتزايد عليها، وأيضاً نتيجة لاتساع نفوذهم بين صفوف عمال الجمعية، بحيث أصبحوا يسيطرون على فروع بكاملها.. وهكذا أخذ احتدام التناقض يزداد يوماً بعد يوم بين الجناح الثوري (الشيوعيين) والجناح الاصلاحي (سامي طه وجماعته) داخل صفوف الجمعية العمالية، ووصلت الأمور بين قيادة الجمعية والجناح اليساري فيها الى حدّ الصدام في آب ١٩٤٥ حول تشكيل الوفد الى مؤتمر النقابات العالمي في باريس... آنذاك

(١) د . موسى البديري ــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٦٣ .

قرّرت الجمعية إرسال سامي طه وحنا عصفور... أمّا اليسار فأيّد بولس فرح مرشّح الاتحاد[1] ».

وشكّل هذا الخلاف غير الجوهري في مسألة اختيار المرشحين لمؤتمر النقابات العالمي « الشعرة التي قصمت ظهر البعير (الجمل) ! »، أي انه أدّى الى ما لم يكن متوقعاً، أدّى الى الانقسام في صفوف جمعية العمال العربية الفلسطينية. وهكذا شكل مؤتمر باريس، السبب المباشر لانفصال اليسار عن الجمعية وما تبعه من توحيد للقوى من زاوية أخرى، في إطار « مؤتمر العمال العرب »، ولكن عند النظر الى الانقسام في صفوف الجمعية، ينبغي ألّا تحجب عنا رؤية الأسباب الحقيقية، الأعمق، التي فجّرت الأوضاع في إطار الجمعية وأدّت الى الانقسام.

فالجمعية لم تكن في يوم من الأيام حركة ذات تنظيم ديمقراطي، فقد عيّنت قيادتها نفسها بنفسها، على أساس تواجدها الطويل في صفوف الجمعية، ولم تكن الانتخابات معروفة، ولهذا لم تتغير الجماعة القليلة العدد، التي تدير شؤون الجمعية، أي تغيير يُذكر خلال السنوات العشر الأخيرة.

ولم يكن المركز في حيفا مستعداً لقبول أية معارضة بشأن اختياره ممثليه في باريس. وهكذا أعلن سامي طه أمام الفروع اليسارية داخل الجمعية ان حنا عصفور « سيذهب شئتم أم أبيتم، وكل جمعية تعارض هذا سأحلّها وأدمّرها تدميراً كاملاً[2] ».

عند ذلك، أصدرت الفروع اليسارية بيان انسحابها من الجمعية : وبعد مؤتمر نابلس ببضعة أيام أصدرت الفروع اليسارية بياناً هاجمت فيه قيادة الجمعية وفسّرت قرارها بالانسحاب منها. وقد اتّهم البيان قيادة الجمعية انها تتبنّى موقف الجمود داخل الحركة العمالية العربية... وتوصّل البيان الى ان من الأفضل « الانفصال كخطوة على طريق توحيد الحركة العمالية على أسس صحيحة »، ودعا العمال العرب الى حضور مؤتمر سيُعقد في

(١) المصدر السابق ص ٥١ .
(٢) المصدر السابق ص ٥١ ، ٥٢ .

يافا في ١٩ آب ١٩٤٥. وتقرّر أن يعالج هذا الاجتماع أربع مسائل.

١ ــ انتخاب الوفد الى باريس.

٢ ــ وضع سياسة يلتزم بها الوفد.

٣ ــ تحديد الاطار الدستوري والتنظيمي للحركة العمالية.

٤ ــ تشكيل لجنة تحضيرية من الجمعيات الثلاث تدعو الى مؤتمر عمالي عام.

وفي ختام أعمال المؤتمر، انتخب.. لجنة تنفيذية من ستة أعضاء : خليل شنير وفؤاد نصّار وبولس فرح ومخلص عمرو وعودة الأشهب واسكندر فرح وأحمد صالح وعهد اليها بمهمّة إعداد مسودّة دستور لمؤتمر العمال العرب، على أن يتمّ عقد مؤتمر جديد خلال ستة أشهر..

وانتخب المؤتمر اثنين من أعضائه لحضور مؤتمر الاتحاد العالمي لنقابات العمال في باريس، وهما بولس فرح...، ومخلص عمرو أحد أعضاء الحزب الشيوعي القدامى ورئيس تحرير مجلة « الغد »[1].

على ضوء ذلك، كيف تعاطت جميعة العمال العربية الفلسطينية مع مسألة الانقسام ؟ من البديهي القول، ان قيادة الجمعية كانت قد توصّلت خلال تلك الفترة الى قناعة هامّة بأنها لم تعد بحاجة لوجود ممثلين لهذا التيار داخلها لسببين هامين أولهما، ان هذه الجمعية وصلت الى مستوى من القوة يمكّنها من العمل دون مساعدة هذا التيار ؛ وثانيهما، ان ممثلي هذا التيار وصلوا بدورهم الى وضع قوي داخل الجمعية أصبحوا يشكّلون فيه مصدر إزعاج لقيادتها الاصلاحية البيروقراطية، ولذلك فإن الانقسام الذي حدث لم يكن يشكّل طعنة بالنسبة لقيادة الجمعية بقدر ما كان يمثل ضرورة لا بد منها كان من الممكن أن تلجأ لها هذه القيادة نفسها ولكن من خلال أسلوب مختلف للتخلّص من ممثلي هذا التيار[2].

(١) المصدر السابق ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) حيدر رشيد ــ الحركة العمالية الأردنية... مصدر سابق ص ١٦٨ ــ ١٦٩ .

وبعيداً عن وجهة نظر كل فريق من الجمعية في الانقسام الذي حصل داخل صفوفها، كيف نرى نحن هذا الانقسام ؟ هل هو خطوة للأمام أم للوراء ؟؟

بصدد هذه المسألة وأية مسألة أو ظاهرة بغض النظر عن نوعها ومحتواها، فالأساس في محاكمتنا لها، ينطلق ويرتكز الى الماركسية ــ اللينينية، الايديولوجية العلمية والثورية الوحيدة في هذا العالم، وبناءً عليه فالانقسام، هو بالضرورة من الزاوية المبدئيّة مدان ولا يخدم بأي حال من الأحوال تصليب أوضاع الطبقة العاملة العربية بقدر ما يساعد على زيادة تفسّخها... إلّا انه من الواجب في الحالة المحدودة، التي نحن بصدد معالجتها، من الواجب أن نرى، ان الحركة العمالية العربية كانت بالأساس منقسمة الى فريقين، فريق إصلاحي وفريق ثوري، وفي هذا الانقسام الجديد لم تحدث انهيارات جديدة، بمعنى آخر لم ينشأ فريق جديد إضافة للفريقين القائمين، وانما الذي حصل ان التيار الثوري أعاد توحيد نفسه في إطار جديد تحت اسم « مؤتمر العمال العرب » بدل « اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب »، واستمرّ الاتجاه الاصلاحي لوحده تحت الاسم نفسه، اسم « جمعية العمال العربية الفلسطينية ». وبالتالي يكمن الجديد في الانقسام الحاصل، بإعادة توزيع القوى داخل النقابات، فبدل التداخل الذي كان موجوداً على الأقل في إطار الجمعية، بعد الانقسام لم يعد قائماً، فكل اتجاه استقلّ في منظماته النقابية الخاصة. وهكذا بقدر ما يمكن اعتباره انشقاقاً جديداً، بالقدر نفسه لا يمكن اعتباره كذلك، لأن الانقسام حاصل منذ تشكيل اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب في نوفمبر عام ١٩٤٢.

ومن الجدير بالذكر، ان « اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب » قبل تغيير اسمه وبعدها، وكذلك العصبة وجريدتهم « الاتحاد »، ناضلوا كل من موقعه من أجل وحدة الحركة العمالية العربية، ولكن الجمعية لم تبالِ بذلك، ولم تتجاوب مع العروض المتكرّرة التي دعت الى ضرورة وجود جبهة عمالية عربية واحدة وتمثيل عمالي موحّد شامل يغير تغييراً

عميقاً من نظرة العمال الى أنفسهم والى حركتهم وأهدافهم ويثير فيهم الحماس والتيقّظ لحاضرهم ومستقبلهم[1] ».

ورغم ذلك، استمرّت مساعي اللجنة التنفيذية (لمؤتمر العمال العرب) لتوحيد الحركة العمالية ومحاولاتها المتوالية عن طريق المباحثات الفردية، وعن طريق بعض الهيئات (ولكن) هذه المحاولات كانت تُقابل بالاعراض والرفض[2].

لكن قيادة الجمعية وضعت في آذانها قطناً لكي لا تسمع، ووضعت على عيونها كمّامات سوداء حتى لا ترى، ولا تقرأ شيئاً، انها كانت في غاية السعادة للانقسام وخروج الشيوعيون من صفوف الجمعية، فهل يُعقل أن تعود مجدّداً للعمل المشترك ؟! ان ذلك ما لا تفكر به تلك القيادة لأنه يتنافى ونهجها المعتدل في الحقلين السياسي والاقتصادي وفي علاقاتها مع سلطات الانتداب ومع قيادة الحركة الوطنية[3].

لهذا السبب لا نرى بأن الانقسام الجديد أضرّ بالحركة العمالية، بالطبع، ليس مرغوباً في ذلك، وكم كنا نود لو سمعنا ان الحركة العمالية توحّدت في إطار تنظيمي واحد ومركز عمالي واحد، ولكن هذا التمني شيء والواقع الذي كان قائماً شيء آخر. لأنه في الوقت الذي حصل فيه انقسام داخل الجمعية، حصل اتحاد جديد، ومن هنا نقول بأن أضراره محدودة، وأي وجهة نظر تعرض المسألة على غير هذا الوجه تكون فقدت الموضوعية في المصالحة.

---

(١) د . موسى البديري ـــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٢٦٧ .
من الأوراق ـــ الوثائق . بولس فرح ـــ المجلس العمالي العربي الأعلى ـــ ضرورة ايجاد هذا المجلس وفوائده.

(٢) د . موسى البديري ـــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٣٠٠ .
من الأوراق ـــ الوثائق، فؤاد نصار، سكرتير اللجنة التنفيذية لمؤتمر العمال العرب ـــ من تقريره المقدم للمؤتمر ـــ وردت تحت عنوان ـــ مؤتمر العمال العرب في فلسطين – « الاتحاد » ٢١ نيسان ١٩٤٦ .

(٣) د . موسى البديري ـــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٥١ .

ـــ ننتقل بعد ذلك للتعرّف على « مؤتمر العمال العرب »، وقبل كل شيء لا بدّ من التعرّف على ماهيّة أهداف المؤتمر ؛

ورد في دستور مؤتمر العمال العرب الأهداف والغايات وهي كالتالي :

أ ـــ تنظيم العمال العرب وتوحيدهم في فلسطين بتأسيس الفروع في جميع مدن وقرى فلسطين حسب مواد هذا الدستور.

ب ـــ العمل على التعاون والتضامن بين جميع عمال فلسطين بغض النظر عن الجنسية واللون والدين والمذهب السياسي.

ج ـــ النضال من أجل رفع مستوى العمال اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

د ـــ القيام بمشاريع تعاونية لتحسين حالة العمال الاقتصادية.

هـ ـــ تثقيف العمال تثقيفاً علمياً صحيحاً لمساعدتهم على فهم التطوّرات التي تمرّ بها الطبقة العاملة في جميع مراحل نضالها.

و ـــ العمل على سن تشريع ديمقراطي صحيح لتأمين حياة العمال ضد البطالة والمرض والفقر والجهل والشيخوخة.

ز ـــ العمل على حماية العمال تجاه أصحاب الأعمال وأرباب المصالح. وذلك بتحديد ساعات العمل، وتقدير الأجور، وترتيب المكافآت والتعويضات في حالات العطل والعجز والاصابة والموت، ومنح الاجازات والعلاوات ووضع أنظمة الترقيات وإعداد الوسائل لتأمين عيشهم وتعليم أبنائهم.

ح ـــ العمل من أجل اعتراف الحكومة رسمياً بالمؤتمر وإشراكه في سن القوانين ووضع التشاريع، وتمثيله في اللجان والمجالس التي لها علاقة بحياة الطبقة العاملة.

ط ـــ إصدار النشرات والصحف للتعبير عن آراء المؤتمر ولتثقيف العمال.

ي ـــ التعاون ضمن مبادئ هذا الدستور مع الهيئات والأحزاب السياسية التي تعمل لحرية فلسطين واستقلالها. وتسعى لاقامة حكومة ديمقراطية يتساوى في ظلها جميع المواطنين في الحقوق والواجبات.

ك ـــ الاتصال بالمنظمات العمالية في البلاد العربية والعمل معها على توثيق الروابط وتنمية روح التعاون بين العمال العرب في جميع أقطارهم.

ل ـــ العمل مع اتحاد النقابات العالمي والاشتراك في المؤتمرات العمالية العالمية وتبادل الزيارات والمراسلات بين الهيئات والمؤسسات العمالية في العالم ولتوثيق الروابط وتوحيد كلمة العمال في جميع أقطار العالم[1].

ان قراءة سريعة لهذه الأهداف، ولا أقول متأنية، تدل القارئ أو الباحث على عمق الوعي الذي تحلّى به قادة مؤتمر العمال العرب [قادة العصبة]. فهم لم يميّزوا بين عامل وعامل لا في اللون ولا في الجنسية.. الخ، وهذا بحدّ ذاته أيضاً مقياس جديد على أمميتهم، وعلى شيوعيتهم. لقد جاء دستورهم ليدلّل مجدداً على مقدرة أولئك الشيوعيين ـــ قادة عصبة التحرّر الوطني ـــ في الجمع الصائب بين قضايا العمال الطبقية وقضاياهم القومية. ان ميزتهم في تلك الفترة، كانت إدراكهم للواقع بشكل جيد وناضج. ومما لا شكّ فيه ان دستور « مؤتمر العمال العرب » النقابي، الطبقي، جاء متكاملاً ومتلائماً مع الظروف التي كانت قائمة آنذاك.. وهكذا بقي « مؤتمر العمال العرب » كممثل طليعي للعمال في النظرية والتطبيق، ففي مؤتمراته الثلاث لم يحيد قيد أنملة عن دوره الطليعي في تمثيل العمال وتبنّي قضاياهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؛ ومن مؤتمر لآخر كانت تتعمّق تجربة « المؤتمر » وبالتالي تتعمّق قيادته للطبقة العاملة العربية، وساهم « المؤتمر » في المجالات المحلية والعربية والدولية كافة من خلال اشتراكه في الفعاليات العمالية العالمية، ساهم في إبراز دور الطبقة العاملة العربية في فلسطين، أوضح مطالبها الطبقية والقومية العادلة، وفضح وعرّى الصهيونية وأداتها العمالية « الهستدروت » واستطاع أن ينتزع القرارات المؤيّدة لقضايا الشعب العربي الفلسطيني...

---

(1) المصدر السابق... ص ٢٩٧ ـــ ٢٩٨ .
من الأوراق ـــ الوثائق ـــ دستور مؤتمر العمال العرب ـــ ٢١ ابريل (نيسان) ١٩٤٦.

ان المؤتمرات التي عقدها « مؤتمر العمال العرب » ثلاث، فبالاضافة للمؤتمر التمهيدي الذي عُقد في يافا في ١٩ آب (أغسطس) ١٩٤٥، والذي يُعتبر المؤتمر الأول، عقد مؤتمرين آخرين الأول في ابريل في عام ١٩٤٦، والثاني في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧[1]. وأصاب « المؤتمر » ما أصاب البلاد بعد ذلك من التفكك والانقسام بفعل الظروف الموضوعية. بفعل التآمر الاستعماري البريطاني وربيبته الصهيونية العالمية ومعهم الرجعية العربية. وبفضل نضالات الطبقة العاملة العربية في كل المواقع، وبشكل خاص نضالات الشيوعيين العرب ابتداءً من ١٩٤٥، أصبحت احتفالات عيد العمال في أول أيار تقليداً متعارفاً عليه للطبقة العاملة العربية في فلسطين، وفي ذلك اليوم كانت تعلن الاضرابات وتعقد الاجتماعات العمالية في مدن البلاد وقراها[2]. تقاليد عديدة وجديدة أدخلها الشيوعيون العرب لعالم الطبقة العاملة العربية، فمن الاضرابات بأشكالها المختلفة، الى الأول من أيار، الى تشكّل الحركة النقابية بحد ذاتها، وانضواء العمال تحت لوائها، في تلك الظروف وبذلك الزخم الذي كان قائماً، يُعتبر شيئاً جديداً بمقاييس المراحل السابقة من نضالات الطبقة العاملة الفلسطينية... الخ، وهو بالتالي شيء وعامل جديد في الاطار العام للمجتمع الفلسطيني.

ان هذه الصورة الموجزة للنضالات الطبقية للطبقة العاملة الفلسطينية لتعكس أمامنا وبشكل موضوعي حجم الدور ومستواه الذي لعبته عصبة التحرّر الوطني في فلسطين على صعيد تطوير نضالات الطبقة العاملة، ان ممثّلي العصبة لعبوا دوراً ريادياً، وساهموا مساهمة رئيسية في تعزيز دور الطبقة العاملة في حياة المجتمع، وعملوا على رفع مستوى وعيها الطبقي والقومي. ووقفوا كممثلين طليعين للطبقة العاملة في الصفوف الأولى، في كل المعارك التي خاضتها الطبقة العاملة، وفضحوا الاصلاحيين

---

(1) د . موسى البديري ـــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٦٨ .
(2) المصدر السابق ص ٦٦ .

وغيرهم من قيادات الحركة الوطنية التقليدية وسياساتهم التضليليّة للطبقة العاملة.

٢ ــ عصبة التحرّر الوطني والمسألة القومية

ان المسألة الوطنية تحتل مكاناً مركزياً في نضال كل حزب شيوعي يعيش مرحلة التحرير الوطني، ولهذه المسألة الأولوية على ما عداها من المسائل بما في ذلك المسألة الطبقية، ولكن لا يعني ذلك بأي حال من الأحوال فقدان هذه المسألة (الطبقية). فالحزب الشيوعي وهو يناضل من أجل طرد الاستعمار من بلاده وإنجاز الاستقلال الوطني، وبالطبع يسبق ذلك تشكل ائتلاف وطني عريض، ابتداءً من البرجوازية الوطنية وانتهاءً بالطبقة العاملة نفسها، لا ينسى الحزب الشيوعي بتاتاً موقعه، في هذه العملية، ولا ينسى للحظة مَنْ يُمثل، بل يبقى دائماً محافظاً على استقلاله الايديولوجي والتنظيمي.

ولا يمكن للحزب الشيوعي أن ينجرف في التيار القومي، ويجب ألّا يتم ذلك، لأنه في هذه الحالة يكون قد فقد بوصلته الفكرية والنضالية، وضلّ الطريق الماركسي ــ اللينيني. ان الحزب الشيوعي هو الذي يجمع بحنكة ودراية عالية جداً ما بين قضيته الوطنية وقضيته الطبقية، هو مَن يجمع بين وطنيته وأمميته. ويبقى الحزب يعمل كميزان الذهب، بشكل دقيق جداً، يتابع أي القضايا التي رجحت كفّتها، أي الحلقات هي من بين مجموع السلسلة التي يجب أن يلتقطها لكي يحلّها، لأن بحلّها سيتقدّم خطوة للأمام في طريق حلّ الحلقات الأخرى كافة. يبقى الحزب دائماً، وهو يتقدّم ويتراجع، وهو ينجح ويفشل وهو يهاجم ويتهجّم، يبقى مسيطراً على قواه، لا يتضعضع، لا يهاب الدفاع عن قضيته الأساسية في كل الحالات، قضية الطبقة العاملة وإيديولوجيتها الماركسية ــ اللينينية.

الحزب الشيوعي، هو، الحزب الذي لا تغيب للحظة واحدة عن تفكيره وعن ممارسته مصلحة الطبقة العاملة، فيمزج بشكل ديالكتيكي ناضج ما بين الاستراتيجية والتكتيك، هو الحزب الذي يربط ما بين العملية التحرّرية

الوطنية، والعملية التحرّرية الاجتماعية، حيث تشكّل العملية النضالية من أجل التحرّر الوطني المقدمة الضرورية للعملية النضالية من أجل التحرّر الاجتماعي وبناء المجتمع الاشتراكي، مجتمع العدالة والمساواة والسلام والاشتراكية.

ماذا بشأن عصبة التحرّر الوطني في فلسطين ؟ كيف تعاطت مع هذه المسائل، هل صحيح انها غلبت الوطني على الطبقي ؟؟ أم بقيت محافظة على انتمائها الطبقي وبالتالي الايديولوجي ؟؟

أولاً، ان عصبة التحرّر الوطني في فلسطين حدّدت بدقة طبيعة المرحلة النضالية التي يعيشها الشعب العربي الفلسطيني، بمرحلة التحرّر الوطني الديمقراطي، ولهذا التحديد متطلّبات من أهمّها : تحديد ماهية الحلقة التي يجب أن تمسك بها العصبة لكي تناضل من أجل حلّها، والتي يترتّب عليها حلّ باقي حلقات السلسلة. وبناءً على تحديد طبيعة المرحلة، تمّ تحديد الحلقة الرئيسية، وهي حل الحلقة الوطنية. وهكذا نرى ان « الاتحاد » (ربطت) مثلها مثل عصبة التحرّر الوطني، بين النضال الوطني والديمقراطي. فدعت الى الاستقلال ووقف الهجرة ومنع بيع الأراضي، كما طالبت بتوسيع الحريات الديمقراطية وإجراء انتخابات بلدية ومحلية وإطلاق سراح السجناء السياسيين[1]. (٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٤).

ولحلّ هذه الحلقة، ماذا يجب على العصبة أن تعمل ؟ هل يمكنها إنجاز هذه المهمة لوحدها أم يتطلّب ذلك عملاً مشتركاً مع باقي القوى الوطنية ؟؟ ومَن هي الحركة الوطنية برأي العصبة ؟

ان العصبة كانت ترى، أن الحركة الوطنية هي حركة شعبية، يشترك فيها الشعب بجميع طبقاته وفئاته، لأن التحرّر الوطني هو هدف الشعب بأسره، هدف صاحب المشاريع الوطنية (البرجوازي)، والعامل الوطني،

(١) د . اميل توما ــ يوميات شعب... مصدر سابق ص ١٣ .

وهدف التاجر والفلاح الوطني، وهدف المثقف كما هو هدف الأمي[١].

والحركة الوطنية ليست احتكار طبقة معينة من طبقات مجتمعنا العربي، وليست ممثلة لمصلحة طبقة معينة بالذات فهي حركة الشعب بأكمله طبقات وأفراد حركة شاملة جامعة تنظّم تحت لوائها جميع العناصر الراغبة في السير مع قافلة الحرية[٢].

اذن العملية النضالية التحرّرية، تشمل كل القوى الوطنية التي لها مصلحة في تحقيق الاستقلال ووقف الهجرة ومنع بيع الأراضي... الخ، ولا تقتصر هذه الحلقة في إنجازها على فصيلة محدّدة أو طبقة محدّدة، وإنما هي بحاجة الى مجموع الطبقات والفئات الاجتماعية الوطنية، ومن هنا يجب على عصبة التحرّر الوطني أن تشترك مع الفصائل الأخرى من أجل إنجاز ذلك. ومن هنا تنشأ ضرورة بل حتميّة اشتراك الطبقة العاملة العربية في الحركة الوطنية، وهي تمدّ سواعدها الجبّارة لمصافحة أيدي الوطنيين الأحرار من طبقات الشعب كافة[٣].

انطلاقاً من ذلك، نؤكد ان الطبقة العاملة وطليعتها السياسية معنيّة بالنضال الوطني وبإنجاز التحرّر الوطني وتحقيق الاستقلال السياسي للبلاد، بقدر ما هي معنية بإنجاز التحرّر الاجتماعي وإقامة سلطتها السياسية — ديكتاتورية البروليتاريا — انها في ظروف النضال التحرّري، معنية بالتخندق في الموقع الوطني مع باقي القوى الوطنية، التي لها مصلحة في تحقيق الاستقلال السياسي للبلاد. وهذا الأمر لا يعيب الطبقة العاملة وفصيلتها الطليعية، بل انه وسام على صدر هذه الطبقة وقيادتها شرط أن تبقى محافظة على استقلالها الايديولوجي والتنظيمي.

---

(١) د. ماهر الشريف — الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٧٥.
الملحق العاشر، موسى الدجاني (رئيس العصبة) — مقال بعنوان — حركتنا الوطنية — حركة جماهير الشعب العربي — عصبة التحرر الوطني في فلسطين. (داخلي)، النشرة الثالثة، ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٤٤.

(٢) د. موسى البديري — تطور الحركة... مصدر سابق ص ٢٦١.
من الأوراق — الوثائق — بولس فرح — العمال العرب وقضية التحرر الوطني.

(٣) المصدر السابق ص ٢٦١.

وبعد أن حدّدت العصبة طبيعة المرحلة، وحدّدت الحلقة المركزية المطلوب حلّها، وحدّدت القوى الطبقية المعنيّة بحلّها، حدّدت العصبة أيضاً الاطار الذي يجب أن ينخرط الجميع فيه من أجل أن يشكّل الوسيلة التي من خلالها يمكن قيادة العمل لانجاز المهمة المحدّدة، وهكذا دعمت من خلال صحيفتها «الاتحاد»، الى تأليف هيئة وطنية، تتجمّع فيها القوى الوطنية كافة، وتصوغ برنامجاً موحّداً تلتف حول رايته الجماهير وتخوض النضال من أجل تحقيقه[١].

ولهذا الغرض لم تكتفِ العصبة ولا صحيفتها «الاتحاد» بما تطرحه هي حول هذا الموضوع، بل جنّبت «الاتحاد» شخصيات وطنية في هذه المعركة فنشروا دعوتهم على صفحاتها الأولى تحت عنوان «الاتحاد الوطني والظروف الحاضرة».. ومن هؤلاء أحد زعماء حيفا رشيد الحاج ابراهيم (...)، رئيس حزب الكتلة الوطنية عبد اللطيف صلاح (...) ورئيس بلدية يافا عمر البيطار[٢].

ولم تطرح العصبة مسألة الاتحاد الوطني كيفما كان، بل انها طرحت على بساط البحث طريق عصبة التحرّر الوطني الصحيح نحو تحقيق الاتحاد الوطني ودخلت في جدال غير عدائي مع ممثّلي البرجوازية القومية المذكورين أعلاه.

أعلنت: لن يكون الاتحاد الوطني بدون الرجوع الى الشعب... وبهذا يجب دعوة ممثّلي العمال والحركة العمالية وممثّلي الفلاحين للمشاركة في إقامته[٣].

ورفضت العصبة مزاعم اولئك الذين يدعون ان الجمود في الحركة القومية يعود الى جمود الجماهير.. وأبرزت ان الجمود يعود الى عدم الرجوع الى الجماهير وتجاهلهم إيّاها[٤].

---

(١) د. اميل توما — يوميات شعب — ٣٠ عاماً على الاتحاد... مصدر سابق ص ٨.
(٢) المصدر السابق ص ٨.
(٣) المصدر السابق ص ٨.
(٤) المصدر السابق ص ٩.

ان معالجة العصبة لهذه المسألة، وبهذا الأفق ليوضح لنا مجدّداً، مستوى الوعي الذي تتحلّى به قيادة العصبة، فهي لم تكتفِ بالمطالبة بالاتحاد الوطني، لا بل، انها أشركت قوى طبقية أخرى لكي تساهم معها في عرض المسألة عبر صحافتها، مستهدفة خلق حالة من الحوار والجدل في صفوف الحركة الوطنية من أجل إغناء هذا الموضوع، وفي الوقت نفسه سجّلت العصبة وجهة نظرها بشكل موضوعي وهادف، وأكّدت على ضرورة إشراك الطبقة العاملة والفلاحين، ولهذا الأمر مضامين واضحة المغزى وغنيّة عن الايضاح.

وفي هذا السياق، برزت مواقف معادية لاشتراك الطبقة العاملة في العمل السياسي من قبل أصحاب الأعمال، ومن قبل القيادات التقليدية، وذلك نابع من حرصهم على مصالحهم، وخوفهم من تنافي الوعي السياسي الطبقي لهذه الطبقة الأكثر ثورية من بين مجموع طبقات المجتمع.

ويصف بولس فرح هؤلاء بـ « الاقتصاديون »... (الذين) يطلبون عزل العمال العرب عن حياة الشعب العامة وأهداف الأمة. ان العمال العرب يحسّون ويدركون ان الهجرة الدافقة تؤدّي الى استفحال البطالة (التي) تفاقم أسباب شقائهم. كما انهم لا يمكنهم أن يقفوا موقفاً سلبياً تجاه بيع الأراضي وهم يعلمون ان هذا البيع يؤدّي الى تشريد الفلاحين العرب وتعاستهم[1].

ان العمال العرب معنيّون بالنضال السياسي، لأن مصلحتهم الطبقية تحتّم عليهم خوض غمار هذا النضال ومصلحتهم أيضاً الوطنية تؤكد ضرورة ذلك، ولا يمكن للعمال أن يكتفوا بالنضال النقابي، لأن هذا الشكل من النضال بقدر ما يخدم مصالحهم المطلبية المحدودة بقدر ما يعزّز استغلالهم وبقائهم تحت رحمة البرجوازيين ومن فوقهم الاستعمار، وهذا ما لا يمكن أن تقبل به الطبقة العاملة ولا يمكن لحزبها الطليعي إلّا أن يرشدها ويوجّهها ويرفع من مستوى وعيها السياسي والطبقي لكي

(١) د. موسى البديري — تطور الحركة... مصدر سابق ص ٢٦٤ — ٢٦٥ . من الأوراق — الوثائق — بولس فرح — العمال العرب.

تكون مساهماً رئيسيًّا في كل أشكال النضال القومية والطبقية وبما يتلاءم ومصالحها أولاً ومصالح المجتمع ثانياً.

صحيح، ان التنظيم النقابي قائم على أساس الدفاع عن حقوق العمال الاقتصادية المسلوبة منهم وتحسين شروط عملهم ولكن العمال تعلّموا من تجاربهم ان الحصول على هذه المطالب الاقتصادية يتعلّق في أغلب الأحايين بشكل النظام الاقتصادي والسياسي القائم.

ليس لدى العمال العرب هوى خاص في السياسة، ولكنهم باتوا يرون ان مشاكلهم الاقتصادية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوضعيّة سياسيّة معيّنة تعيق تقدّمهم ورقيّهم.

وليس ثمّة ما يخشاه العمال العرب من تدخّلهم في السياسة ما دامت تفرض نفسها فرضاً عليهم وهي لا تكون خطراً على حاضرهم فحسب بل تهدّد سرعة تطوّرهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي[1].

ان العمال لا يمكنهم أن يناضلوا نضالاً اقتصادياً ناجحاً، وأن يقطفوا ثمار نضالهم، ما لم تؤمّن الحريات الديمقراطية، عامة وفردية، فتتمكّن نقاباتهم من العمل في ظل حكم وطني ديمقراطي صحيح يفسح المجال أمامها ويحميها من أعدائها. فتناضل في سبيل مطالب العمال الاقتصادية، من زيادة أجور، وتنقيص (تخفيض) ساعات عمل، وتشريع يحفظ حقوقهم ويؤمّن معيشتهم من خطر البطالة والشيخوخة وما يتبعها من عوز وفاقة. وما نضال عمالنا في سبيل مساواة الأجور والمعاملة بين العمال العرب وغيرهم إلّا نضال سياسي في سبيل التحرّر الوطني[2].

ان اشتراك الطبقة العاملة في النضال الوطني يمليه أولاً كونها احدى طبقات المجتمع الأكثر ثورية ؛ ثانياً، ان الطبقة العاملة الفلسطينية أخذت في الاتساع والنمو بحيث شكّلت تقريباً ثلث أفراد المجتمع ؛ وثالثاً،

(١) المصدر السابق ص ٢٦٥ .
(٢) د. ماهر الشريف — الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٧٥ — ١٧٦ . الملحق العاشر — موسى الدجاني — حركتنا.

ان مادة النضال الوطني الرئيسية دائماً وابداً يتحمّلها العمال والفلاحون الفقراء والصغار مضافاً اليهم البرجوازية الصغيرة المدينية وبالتالي المثقفون، ورابعاً، هي مصلحة الطبقة العاملة نفسها في تحقيق الأهداف الوطنية العامّة، بحيث تشكّل لها، المدخل الضروري جداً لاستمرار تصاعد أشكالها النضالية لبينما تصل لتحقيق أهدافها الخاصة باستلام السلطة السياسية. وبناءً عليه، فإن ابعاد عناصر العمال والعناصر الشعبية (عن العملية التحرّرية) يعني إبعاد بلادنا عن هدفها الرئيسي الحرية والاستقلال[1].

ان الطبقة العاملة العربية وطليعتها السياسية عصبة التحرّر الوطني في فلسطين، وهي تؤكد على ضرورة اشتراكها في النضال الوطني التحرّري، لم تنسَ موقعها ضمن خارطة الصراع الدائر على الأرض الفلسطينية، وهي لم تدع وتناضل من أجل تحقيق وحدة صفوف الحركة الوطنية على حساب مصالحها وبرنامجها بل العكس صحيح، فهي لا ترضى بأن تكون في ذيل الحركة الوطنية، بل في الصفوف الأمامية لها ممثلوها المجرّبون القادرون على عرض مطالبها وتوضيح أغراضها، مشتركة في وضع برنامج وطني يتضمّن بعض أهداف الطبقة العاملة العربية الحاضرة[2].

انسجاماً مع هذا التوجّه لم تدخل الطبقة العاملة العربية في عملية صدام مع البرجوازيين الوطنيين أصحاب المصانع، بل خفّفت من حدّة الصراع الطبقي مؤقتاً، وتخلّت عن بعض حقوقها، وذلك كشكل من أشكال التضامن مع الصناعة العربية التي تعيش في صراع ومنافسة قوية مع الصناعة الأجنبية وتحديداً الصهيونية ؛ ولأنه أيضاً لا يمكن أن تؤمّن لجماهير العمال المتزايد عددهم يوماً بعد يوم، أعمالاً بشروط انسانية حسنة... إلّا إفساح المجال أمام صناعتنا الوطنية لتتقدّم وتزدهر وتتغلّب على منافسة الصناعة الأجنبية ومقاومتها. وهذا لا يتمّ كما لا يخفي على

(١) د . موسى البديري ـــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٢٦١ .
من الأوراق ـــ الوثائق ـــ بولس فرح ـــ العمال العرب.
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٤ .
من الأوراق ـــ الوثائق ـــ فؤاد نصار ـــ حركتنا العمالية واللجنة العربية العليا.

الجميع إلّا في ظل حكومة وطنية عربية حرّة، وان مشكلة البطالة التي تهدّد العمال ليس من حلّ عملي لها إلّا تنشيط الصناعة الوطنية ومساعدة المشاريع العمرانية الوطنية وهذا يعني السعي أولاً في سبيل التحرّر الوطني[1].

ان هذا التضامن ليس « لسواد عيون » البرجوازيين، لأنهم برجوازيون، بل ان متطلّبات الصراع القائم في البلاد يحتّم مثل هذا الشكل من التضامن، وفي الوقت نفسه لفتت العصبة،.. نظر صاحب المصنع العربي، الى ان مسؤوليته نحو وطنه متساوية مع مسؤولية العامل نحو وطنه. ولذلك فحق الوطن على العامل مثل حقه على صاحب المصنع. وان تحقيق طلبات العمال العرب واجب وطني قبل كل شيء فيه الفائدة لصاحب العمل وللعامل وللوطن على وجه العموم[2]. وانه ليس من الوطنية ومصلحة الوطنية في شيء أن تبلغ أرباح مؤسسات وشركات اقتصادية عشرات الألوف من الجنيهات ثم تبخل على عمّالها وموظّفيها بزيادة زهيدة على أجورهم تعينهم على سد حاجاتهم أمام مستوى المعيشة المتصاعد[3].

وأعارت قيادة العصبة اهتماماً خاصاً بالفلاحين. الحليف الاستراتيجي للطبقة العاملة، وأكّدت على ضرورة الاهتمام بمصالحهم ومتطلّباتهم، حيث يشكّلون الأكثرية في وطننا، مضافاً الى انهم قدّموا تضحيات جسيمة وما زالوا يقدّمون في النضال الوطني التحرّري، كما ان الحركة الوطنية لا يمكنها نهائياً الاستغناء عن دور هذه الطبقة في إنجاز الأهداف الوطنية، وبالتالي، لا بدّ من دعم وإسناد الفلاحين من خلال نشر المدارس بينهم وتوفّر لهم المستشفيات والمعالجة الطبية، وتعمل على تحسين قراهم ومزارعهم وأراضيهم، فتوصل إليهم المياه وتحسّن مشاريع الري، وتمدّ

(١) د . ماهر الشريف ـــ الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٧٦ .
الملحق العاشر ـــ موسى الدجاني ـــ حركتنا الوطنية.
(٢) د . موسى البديري ـــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٢٧٦ .
من الأوراق ـــ الوثائق ـــ حسن عيتاني ـــ علاقة حركة العمال العرب بصناعتنا الوطنية.
(٣) المصدر السابق ص ٢٧٤ .
من الأوراق ـــ الوثائق ـــ بولس فرح ـــ الاقتصاد الوطني والعامل العربي.

الفلاح بالمحاريث الميكانيكية والتركتورات والسماد الصناعي، وتقدّم له المساعدات المالية والقروض الزراعية بفوائد زهيدة ولمدد طويلة[1].

وقد اهتمّت عصبة التحرّر الوطني اهتماماً كبيراً لقضية الدفاع عن الأراضي العربية ووقف اتصالها الى أيدي الصهيونيين. وأعلنت تأييدها لكل « مشروع يؤدّي الى الاحتفاظ بالأراضي الزراعية في أيدي فلاحينا »، مثل « مشروع صندوق الأمة » الذي اقترحته بعض الأوساط الوطنية، ومشروع « دونم فلسطين » الذي اقترحه « السيد الترزي »[2].

وفي الوقت نفسه، أكّدت العصبة ان قضية الأراضي في فلسطين ترتبط ارتباطاً مباشراً بقضية البلاد السياسية، ولا يمكن حلّها، الحل العملي، ما لم يتمكّن العرب من الوصول الى استقلالهم السياسي، ومقاومة أي تدخّل يمكنه الانتقاص من سيادتهم وحريتهم في تقرير مصائرهم. وقد انتقدت العصبة، في هذا السياق، أفكار بعض الوطنيين العرب، الذين يعتقدون ان قضية البلاد السياسية هي قضية عامة يحتاج حلّها الى وقت طويل، ولذلك فمن حق الوطن عليهم أن يبادروا الى انقاذ ما يمكن إنقاذه « من أراض »، وأكّدت ان القضية السياسية، قضية استقلال فلسطين، هي « قضية الساعة » والظروف تصبح كل يوم أكثر ملاءمة لتوحيد جميع القوى في سبيل حرية تقرير المصير، كما أشارت الى ان مشاريع انقاذ الأراضي العربية، لا يكون بجمع المال لشراء الأراضي العربية المعروضة للبيع، وإنما بإصلاح حال الفلاح وتحسين أدوات إنتاجه ومساعدته مساعدة اقتصادية واجتماعية حتى لا يحتاج آخر الأمر الى عرض أرضه في الأسواق.

وقد دعت العصبة الحركة الوطنية العربية الى أن تجعل من حركة إنقاذ الأراضي العربية، حركة فلاحين جماهيرية قوية بواسطة إشراك

(1) د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٧٦ .
الملحق العاشر ــ موسى الدجاني ــ حركتنا الوطنية.

(2) د . ماهر الشريف ــ عصبة التحرر الوطني والمسألة القومية العربية في فلسطين ٤٣ ــ ١٩٤٨ . منشورات التنظيم الشيوعي الفلسطيني في لبنان ــ آذار (مارس) ١٩٨١ ــ ص ١٠ .

[الفلاحين] في إدارتها، كما دعت الفلاحين الى الانضمام لصفوف العصبة « ليؤلفوا معها جبهة واحدة ضمن وحدة الشعب العربي في فلسطين للنضال في سبيل سعادة شعبنا »[1].

وفي الوقت نفسه اهتمّت العصبة بالمثقفين الوطنيين تلك الفئة المناضلة الواعية، وطالبتهم العصبة بأن يتحمّلوا مسؤولياتهم تجاه النضال الوطني الفلسطيني. وان واجباتهم نحو بلادهم وشعبهم خطيرة وسامية، فعليهم تقع تبعات تثقيف الشعب وأبنائه، ورعاية النشء الجديد، والاهتمام بالشؤون الفكرية والاجتماعية والاقتصادية[2].

هكذا نرى ان عصبة التحرّر الوطني خاطبت القوى الطبقية الوطنية كافة من أجل حثّها على الانخراط في إطار جبهوي « الاتحاد الوطني » عريض يجمعها جميعاً في خندق المواجهة مع المشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين، ولطرد الانتداب البريطاني وتحقيق استقلال البلاد السياسي، وأكّدت على ضرورة مشاركة العمال والفلاحين، وطالبت ببناء هذا الاطار الجبهوي على أساس ديمقراطي وبحيث يشمل القوى كافة.

غير ان القيادات القومية التقليدية، التي عادت الى ميدان العمل السياسي، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، واصلت نهجها القديم، وعارضت المساعي التي بذلتها العصبة من أجل دفع جماهير العمال والفلاحين للانخراط بنشاط في العمل الوطني، وأصرّت على عزل ممثّلي القوى الوطنية التقدّمية، ومنعهم من المساهمة بنشاط في العمل الوطني، وأصرّت على عزل ممثّلي القوى الوطنية التقدّمية، ومنعهم من المساهمة الفعّالة في قيادة النضال الوطني، ففي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥، عارض ممثلو الأحزاب القومية الفلسطينية ـ التقليدية، بالتواطؤ مع جامعة الدول العربية، اشتراك ممثّلي عصبة التحرّر الوطني، ومؤتمر العمال العرب، ورابطة المثقفين العرب، في اللجنة العربية العليا التي تشكّلت إثر الزيارة التي قام بها،

(1) المصدر السابق ص ١١ .

(2) د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٧٧ .
الملحق العاشر ــ موسى الدجاني ــ حركتنا الوطنية.

إلى فلسطين « جميل مردم بك » المكلّف من قبل جامعة الدول العربية بإعادة تشكيل اللجنة[1].

ورغم إدراك العصبة لمساوئ هذه القيادة وأثرها السلبي على نضاله، ورغم عدائها لكل ما هو تقدّمي، رغماً عن كل ذلك، لم تتخذ العصبة موقفاً عدائياً منها، فبالرغم من اننا لم نمثل فيها (اللجنة العربية العليا)، لا نرى أي حرج من تأييدها إذا كان برنامجها ديمقراطياً يستهدف العمل على تحرير هذه البلاد وتخليصها من الاستعمار والصهيونية. فنحن كما كنا دائماً لا نسير وراء أشخاص أو هيئات، انما نسير دائماً وراء برامج[2].

لكن العصبة لم تؤيّد هذه اللجنة دون أن تقول كلمتها في تشكيل هذه اللجنة وتعريها، وتبرز نقاط الضعف فيها، وهو ان تكوين هذه اللجنة لم يراع فيه البناء على أساس شعبي ديمقراطي، بل كان على أساس تشكيلي توفيقي جاء عن طريق الجامعة العربية[3].

وأكّدت العصبة فيما أكّدت عليه، انه لم يعد باستطاعة أية منظمة وأي حزب أن يتجاهل وجود طبقة العمال ومدى تأثيرها في النضال لأجل الحرية والاستقلال[4].

ومع ذلك، ورغم ان العصبة تعاطت مع مسألة تشكيل اللجنة العربية العليا بروح المسؤولية، حرصاً منها على عدم فتح ثغرة في الجسم الوطني، ولكن ضمن الشروط التي وضعتها العصبة لهذه العلاقة إلّا ان تلك القيادة التقليدية لم تكتفِ بأنها رفضت دخول ممثّلي العصبة، ومؤتمرا العمال العرب ورابطة المثقفين العرب، بل انهم شكّكوا في وطنية هذه المنظمات السياسية والنقابية والاجتماعية، فهذا جمال الحسيني يعلن في الاجتماع

(١) المصدر السابق ص ١١٤ .
(٢) د . موسى البديري ـــ تطور الحركة... مصدر سابق ص ٢٩٤ .
من الأوراق ـــ الوثائق ـــ فؤاد نصار ـــ حركتنا العمالية.
(٣) المصدر السابق ص ٢٩٣ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٩٤ .

العام الذي دعا اليه الحزب العربي وانعقد في القدس بتاريخ ١٩٤٦/٦/٢ بأنه يرفض دخول مندوب عن مؤتمر العمال العرب في اللجنة العربية العليا، لأن مؤتمر العمال العرب يريد التعاون مع (بن غوريون)[1].

يبدو جليًّا، ان القيادة التقليدية باتهامها ممثّلي مؤتمر العمال العرب بالتعاون مع الصهاينة، انما تريد منه تبرير موقفها العدائي من ممثّلي « المؤتمر » أمام الحركة العمالية العربية، التي لم يعد بإمكانه (جمال الحسيني) ولا بإمكان أمثاله أن يتغاضوا عن تمثيلها في الهيئات القيادية الوطنية، لذا وكما هي عادة البرجوازية والمتبرجزين من الاقطاعيين يلجأون للكذب والافتراء والدسّ الرخيص والجبان في مواجهة أعدائهم الطبقيين، من أجل إبعادهم قدر المستطاع عن مجال الفعل السياسي، الذي يعني تضييق الخناق على البرجوازية وحشرها في الزاوية من خلال فضح ضيق أفقها والكشف عن مخازي برامجها، الأمر الذي يعني صعود دور الطبقة العاملة في الاطار الوطني والقومي، وهو ما لا ترغب به البرجوازية.

وفي سياق الرد على حملة الافتراء الرخيصة، أكّد بيان اللجنة المركزية لمؤتمر العمال : ان سياسة منظمتنا وأعمالها وما صدر عنها، وتصريحات البارزين فيها، وكتاباتهم في الصحف، ينفي القول الذي قاله السيد جمال الحسيني في خطابه، واننا كحركة عمالية صحيحة، نعرف تماماً ان حركتنا الوطنية وعملنا في مناهضة الاستعمار وكفاحنا من أجل استقلال بلادنا، هو العمل التحرّري الصحيح الذي لا يمكن بحال من الأحوال أن ينطبق على سياسة (بن غوريون) الاعتدائية، والتي هي جزء لا يتجزّأ من الاستعمار، والتي تمنعنا مبادئنا ومواثيقنا الوطنية والعالمية من مهادنته، أو مهادنة أذنابه من أمثال (بن غوريون)[2].

وأكّد المؤتمر على صحة موقفه من المشكلة اليهودية في البلاد. فبينما

(١) المصدر السابق ص ٣٠٣ .
من الأوراق ـــ الوثائق ـــ بيان اللجنة المركزية لمؤتمر العمال العرب في فلسطين ـــ رداً على تصريح جمال الحسيني.
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٥ .

شجب الصهيونية كحركة عمالية للاستعمار، طالب « بإيجاد تفاهم مع الجماهير اليهودية، ليس على أساس إقامة دولة يهودية أو فتح أبواب فلسطين للهجرة، بل على أساس مساندة الجماهير اليهودية للعرب في نضالهم في سبيل حرية البلاد واستقلالها، وفي سبيل إقامة دولة لا تمييزية يعيش فيها العرب واليهود في سلام وتفاهم »(١).

من البديهي القول، ان تكالب القيادة التقليدية الفلسطينية ومعها الرجعية العربية ممثّلة بالجامعة العربية ضد عصبة التحرّر الوطني ومؤتمر العمال العرب ورابطة المثقفين، لم يثن ممثلي الطبقة العاملة عن متابعة نهجهم العلمي، لم يمنعهم من طرح وجهة نظرهم وعبر كل البوابات والنوافذ وفي كل المواقع، ولم ترهبهم سياسة التشكيك التي يقودها المتبرجزون العرب ؛ فهذا الأمر أدركه الشيوعيون العرب منذ زمن، وليس بالجديد عليهم. استمرّوا في خندق الجماهير العمالية دفاعاً عن حقوقهم ومطالبهم العادلة القومية والطبقية.. أمّا اولئك المتبرجزون فلم يمرّ وقت طويل قبل أن يظهر عقم التناقض الذي تعاونت الجامعة مع قيادة بعض الأحزاب القومية التقليدية على فرضه على الشعب... وكان في وسع « الاتحاد » التي انشغلت بهذه القضية الهامّة أن تلخص في آذار ١٩٤٦، ان اللجنة العربية ولدت مفلوجة ولا طاقة لها على العمل ومن الضروري إقامة هيئة جديدة بإشراك جماهير الشعب(٢).

ومن أجل إصلاح ذلك التناقض حاول زعيم الحزب العربي، جمال الحسيني أن يرمّم اللجنة فيعيّن مكانه الذين قاطعوا اللجنة، ممثلي بعض الأحزاب التقليدية المعارضة. فتصدّت العصبة في قرار اتخذته لجنتها المركزية وأعلنت انها لا تعترف بفرض أية لجنة ودعت الى تكوين لجنة تحضيرية تضع دستوراً ديمقراطياً تجري بموجبه انتخابات لتأليف الجبهة الموحّدة(٣)..

(١) المصدر السابق ص ٦٧ .
(٢) د . اميل توما — يوميات شعب... مصدر سابق ص ٢٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٣ — ٢٤ .

ان العصبة لم تقف مكتوفة الأيدي أمام السياسة الصلفة للقيادات التقليدية، بل تابعت معركتها معها يوماً وراء يوم، وفتحت حواراً مع كل القوى من أجل تحقيق « الجبهة الموحّدة » على الأسس الديمقراطية، ومما ساعد على انتشار هذه الفكرة ان القوى الوطنية في كل من يافا وحيفا استطاعت إقامة جبهتين عربيتين تمثّلت فيهما الأحزاب والمنظمات الشعبية كافة الأولى في ١٣ أيار ١٩٤٥، والثانية في ١ حزيران ١٩٤٥(١).

ولم ينحصر نشاط العصبة عند هذا الحد ؛ بل ان نشاطها تجاوز ذلك، عندما بادرت في الثاني من يونيو ١٩٤٦، بالتعاون مع أحزاب الاستقلال والاصلاح والدفاع والكتلة الوطنية ومؤتمر الشباب ومؤتمر العمال العرب، الى إقامة « الجبهة العربية العليا » في فلسطين. وقد أكّدت ان قيام هذه الهيئة الوطنية الجديدة لا يمثل انشقاقاً داخل الحركة الوطنية العربية الفلسطينية، على اعتبار ان الجبهة العربية العليا قد نظّمت قوى لم تستقطبها أو تنظّمها اللجنة العربية العليا. وقد أشارت « الاتحاد » في افتتاحية عددها الصادر في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٤٦، الى ان الجبهة العربية العليا قد بدأت عملها بقرارين تاريخيين، حيث « أقرّت دستوراً ديمقراطياً وسارت على أساليب شعبية، وطالبت برفع قضية فلسطين الى مجلس الأمن، ورفضت سياسة المساومة والتفاوض مع الاستعمار ».

وإزاء هذا التطور الايجابي، في مسيرة الحركة الوطنية العربية في فلسطين، تحركت جامعة الدول العربية بالتواطؤ مع القوى الرجعية المحلية، ونجحت، بالضغوط التي مارستها على الأحزاب القومية التقليدية، التي ساهمت مع العصبة في إقامة الجبهة العربية العليا، في دفع هذه الأحزاب الى الانسحاب من الجبهة والمشاركة مع الأحزاب والقوى المنتمية الى اللجنة العربية العليا، في إقامة هيئة جديدة دُعيت باسم « الهيئة العربية العليا » حيث تمّ استبعاد ممثلي القوى الوطنية والتقدّمية من عضويتها(٢)،

(١) المصدر السابق ص ٢٤ .
(٢) د . ماهر الشريف — الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٠٦ .

وتحديداً العصبة ومؤتمر العمال العرب ورابطة المثقفين العرب، وان دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ مجدداً على ان هيئة القوى تخاف مشاركة ممثّلي العمال في الهيئات الوطنية، ومن جانب آخر تريد فرض الحصار عليهم وبالتالي خنق صوتهم الصاعد أبداً. وللرد على المناورة الجديدة التي قامت بها الجامعة العربية، نظّمت عصبة التحرّر الوطني حملة واسعة، شملت مدن وقرى فلسطين الرئيسية، للتنديد بالوصاية التي تفرضها الجامعة العربية على الحركة الوطنية العربية في فلسطين. وقد استهدفت هذه الحملة دفع جماهير الشعب، من عمال وفلاحين ومثقفين تقدّميين، الى الانخراط بنشاط، في النضال الرامي الى تنظيم الحركة الوطنية على أسس ديمقراطية، وذلك من خلال الإصرار على عقد مؤتمر وطني قطري تنبثق عنه قيادة تمثيلية. ووصلت هذه الحملة أوجها، حين وقع أكثر من ١٢ ألف مواطن عربي فلسطيني، على بطاقات، أصدرتها عصبة التحرّر الوطني ووجّهتها الى الهيئة العربية العليا، تطالبها فيها بعقد مؤتمر وطني قطري تنبثق عنه قيادة وطنية شعبية[1].

ان نضال العصبة وقيادتها، كان نضالاً شاقًا، وكمَن يحفر في الصخر، ومع ذلك لم يصل اليأس الى قيادتها، ولم تستكين نهائياً، وبقيت تناضل وتقاتل ضمن امكانياتها ولكن ضمن أفكارها ومفاهيمها هي الخاصة بها، بعيداً عن منطق تلك القيادة التقليدية ومفاهيمها، لا بالعكس، ان العصبة تمكّنت من نشر مفاهيمها العلمية الجديدة في الأوساط الشعبية.

وفي مقال بعنوان «سياستنا الوطنية وخطتنا في الحركة التحرّرية» قام «الاتحاد» بتعميق الفرق بين الأحزاب القومية التقليدية وعصبة التحرّر الوطني من حيث المفاهيم الاجتماعية والسياسية والارتباط بالجماهير والدفاع عن مصالح العمال والفلاحين والبرنامج ازاء السكان اليهود والكفاح ضد الدول الامبريالية كافة. [الاتحاد ١٠ — ٢ — ١٩٤٦][2].

(١) المصدر السابق ص ١١٧ .
(٢) د . اميل توما — يوميات شعب... مصدر سابق ص ٢٥ .

وتؤكد افتتاحية «الاتحاد» ٢١ نيسان (ابريل) ١٩٤٦، على ان، المفاهيم الاشتراكية — العلمية — الماركسية — اللينينية. هي التي أرشدت مؤتمر العمال العرب الذي قاده الشيوعيون فوضع في دستوره : «العمل على التعاون والتضامن بين جميع عمال فلسطين بغض النظر عن الجنسية واللون والدين والمذهب السياسي. وأهمية هذا التوجّه المبدئي تظهر ازاء اصدار اتحاد العمال اليهود (الهستدروت) على الاكتفاء بتنظيم العمال اليهود»[1].

ولقد وقفت العصبة منذ البداية موقفاً علمياً، تجاه ربط قضيتنا الوطنية مع قضايا الشعوب المناضلة من أجل حريتها واستقلالها وكل الشعوب المحبة للسلام والديمقراطية فقالت :

ان قضيتنا الوطنية لجزء من القضية العالمية، قضية القضاء على النظم العنصرية، قضية استقلال جميع الشعوب ضمن أوطانها، وتآخي الشعوب ومساواتها، قضية سلام عالمي دائم يضمن تقدّم الانسانية باطّراد نحو سعادة حقيقية، وهناء دائم.

انها قضية جميع الشعوب المناضلة ضد النازية والفاشستية ونظمها العنصرية، قضية الشعوب السوفياتية والشعوب الانكليزية والأمريكية والفرنسية واليوغوسلافية وغيرها من الشعوب المناضلة للقضاء على أكبر خطر يهدّد الحريات الوطنية[2].

ولم تترك العصبة أو مؤتمر العمال العرب مضافاً لرابطة المثقفين العرب مناسبة إلّا وأكّدوا على تضامنهم مع قضايا الشعوب وإسنادهم لنضالات الطبقة العاملة العالمية من خلال دعمهم لاتحاد النقابات العالمي، وجرت العادة على أن يلقي نشيطو الحركة العمالية (في الأول من أيار). خطابات

(١) المصدر السابق ص ٢٥ .
(٢) د . ماهر الشريف — الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٧٩ .
الملحق الحادي عشر — حركتنا الوطنية والقوى التحريرية العالمية — عصبة التحرر الوطني في فلسطين (داخلي) النشرة العاشرة، الأربعاء ١٢ نيسان (ابريل) ١٩٤٤ .

تصف التقاليد العظيمة للحركة العمالية العالمية، وتؤكد مساندة الحركة النقابية العربية للجناح اليساري في داخل اتحاد النقابات العمالي العالمي. كما كانت تتخذ قرارات التضامن مع حركة القرن الهندية في نضالها ضد الاستعمار البريطاني، ومع نضال الشعب الأندونيسي في مواجهة الاستعمار الهولندي(1).

كما ان صحيفة العصبة « الاتحاد » قامت بدور هام جداً ومنذ قيامها، حين أخذت بإبراز مواقف الاتحاد السوفييتي المعادية للامبريالية والداعية الى الاستقلال خصوصاً حين تجسّمت في مواقفه ازاء قضايا الشرق الأوسط... وخلال السنة الأولى التي مرّت على نهاية الحرب العالمية الثانية أكدت « الاتحاد »، ما كان واقعاً في الوضع الدولي، فأعلنت ان الاتحاد السوفييتي أصبح « حجر الزاوية »، ولم يعد من الممكن تسوية أي قضية دولية كبرى بدون مشاركته(2).

وفي عددها الصادر يوم ١٧ آذار ١٩٤٦ أكدت « الاتحاد » ان مطالعات فيشنيسكي بشأن اليونان وأندونيسيا وسوريا ولبنان قد أظهرت للعالم ان الاتحاد السوفييتي سيدافع دائماً عن حق الشعوب في تقرير مصيرها والاعتراف، بالأعمال لا بالأقوال، بالسيادة التامّة لجميع أعضاء المنظمة(3).

وفي السياق نفسه وقفت العصبة ومن خلال صحيفتها الى جانب نضالات الجماهير العربية التي تصاعدت بفعل موازين القوى الجديدة، بحيث اشتدّت مخاوف الامبرياليين ازاء النهوض الوطني المتعاظم في الشرق الأوسط... وارتفاع الأصوات في مصر وسوريا ولبنان والعراق، كلها تنادي بجلاء الجيوش الأجنبية. فالشعوب العربية ترى في بقاء الجيوش الأجنبية رمزاً للضغط على حرياتها وانتقاصاً لاستقلالها وأداة ترسيخ للاستعمار..

(١) د . موسى البديري ـــ تطور الحركة.. مصدر سابق ص ٦٦.
(٢) د. اميل توما ـــ يوميات شعب.. مصدر سابق ص ١٧.
(٣) المصدر السابق ص ١٨.

ودعماً لهذه النضالات نقلت « الاتحاد » على صفحاتها معطيات عديدة من النضالات من بينها : نزول الأحزاب الوطنية التقدّمية الى الميدان في العراق.. تشديد المعركة من أجل الجلاء في سوريا ولبنان... والغضبة الثورية في مصر بقيادة لجنة العمال والطلاب في شباط ١٩٤٦(1).

وحرصاً من الأمبرياليين على لجم هذه الحالة الثورية ووضع حدّ لها، قرّروا قطع العلاقات الديبلوماسية والاقتصادية، التي بدأت تنشأ وتتسع بين الدول العربية المستقلة سياسياً والاتحاد السوفييتي، وذلك لأنها تقوم بدور كبير في تعميق العملية الثورية لمواقف الاتحاد السوفييتي المبدئية.

وأصبح من الممكن سماع نغمة « مكافحة النفوذ السوفييتي في الشرق الأوسط ».. والدعوة المغرقة في الرجعية، التي نادت البلاد العربية الى التفاهم مع الصهيونية والاستعمار البريطاني « للوقوف أمام الروس الى الجنوب ».. في هذه الفترة أوضح هارولد بيلي، كبير مستشاري أرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا، على الوجه التالي : « يجب رؤية القضية الفلسطينية في إطار التوسّع السوفييتي (!) فالروس يريدون الدخول الى الشرق الأوسط. وعلى بريطانيا بتأييد الولايات المتحدة اذا أمكن أن تقيم « حجراً صحيًّا » (طوق) من الدول العربية، وفلسطين كدولة عربية ستكون حلقة قوية في السلسلة(2).

ان العصبة من موقعها الشيوعي ـــ الأممي وقفت بلا تردّد في مواجهة هذه السياسة الاستعمارية، التي استهدفت بريطانيا من ورائها عزل العرب عن حليفهم الأصيل، المبدئي الاتحاد السوفييتي وكل القوى الديمقراطية. ودافعت عن قضية السلام في كل المواقع، ومن على كل المنابر، في الاطار المحلي (الوطني)، وفي المحيط العربي (القومي) وفي النطاق العالمي. وفي الوقت نفسه، فضحت وعرّت دور الأمبريالية البريطانية التي أعلنت بدء الحرب الباردة، ومعها الادارة الأميركية والأمبرياليات كافة على

(١) المصدر السابق ص ١٨.
(٢) المصدر السابق ص ١٩.

العكس تماماً من القوى التقليدية، التي كانت تبحث لها عن موقع في إطار الدول الأمبريالية. وهذا التمايز ليس جديداً، بل رافق العصبة منذ أن ظهرت الى مسرح الحياة السياسية.

٣ ــ عصبة التحرّر الوطني في فلسطين وحل المسألة القومية الفلسطينية

مع نهاية الحرب العالمية الثانية بالشكل الذي تمّت به، الهزيمة الساحقة للنازية الهتلرية والموسولينية والعسكرية اليابانية، وانتصار قوات الحلفاء السوفيتية ــ البريطانية ــ الأميركية. ومع هذا الوضع الجديد تبلورت موازين قوى جديدة، احتلّ فيها الاتحاد السوفييتي « حجر الزاوية » في حلّ أي قضية من قضايا العالم. وذلك بفضل الدور العظيم الذي قام به الجيش الأحمر السوفييتي بتحطيم القوة الرئيسية للفاشية الالمانية، وبفضل انتصار العديد من الشعوب في جنوب شرق أوروبا وإقامتها سلطة الديمقراطية الشعبية، ممّا أدّى الى تعاظم مرحلة النهوض الثوري ليس في أوروبا فحسب بل في كل العالم.

وترافق مع ذلك، أن خرجت الأمبريالية الأميركية كأقوى قوة أمبريالية، ممّا حتّم أن تحتلّ الموقع المقرّر في عالم الأمبريالية. وأخذت هذه الأمبريالية تسعى جاهدة لاستثمار الوضع الجديد في مصلحة احتكاراتها، فبدأت تتجه نحو احتلال مواقع الأمبرياليات التي تراجعت للمركز الثاني أو الثالث. ورغم ان الاحتكارات الأوروبية كانت ترفض ذلك بشدّة، حفاظاً على مصالحها، إلّا ان الواقع كان أكبر من رغبات الاحتكارات الأوروبية ورفضها.

ومن الجدير بالذكر، ان منطقتنا العربية احتلّت مكاناً هامًّا وأساسيًّا في الاستراتيجية الأميركية حتى قبيل انتهاء الحرب العالميةالثانية بوقت طويل، مضافاً الى ان الصهيونية، التي أدركت الواقع الجديد، وبحكم طبيعتها النفعية الارتزاقية (مرتزقة)، وإدراكاً منها لحتميّة تبوّء الولايات

المتحدة مكان الصدارة بين الدول الاستعمارية بعد انتهاء الحرب، نقلت الصهيونية مركز ثقلها من لندن الى الولايات المتحدة[1].

وأولت الولايات المتحدة فلسطين اهتماماً خاصاً، على الأخص بعد حصول الاحتكارات الأميركية على امتيازات في العربية السعودية وبعد إعداد مشروع لمد خط لأنابيب البترول من العربية السعودية الى فلسطين. ولتأمين نجاح هذا المشروع، أخذت الشركات البترولية الأميركية تدعم بقوة وحزم مشروع إنشاء دولة يهودية في فلسطين. وحتى في عام ١٩٤٢، قدّم ٦٨ شيخاً أميركياً، كانت الشركات البترولية تقف وراءهم وتدعمهم، بياناً للرئيس روزفلت أعلنوا فيه عن عزمهم على تشجيع هجرة اليهود الى فلسطين.

... و « أخذت ميول التقارب مع الصهاينة تشتدّ وتهيمن في الولايات المتحدة الأميركية. كان كبار المصرفيين والاحتكاريين الأميركيين يأملون في حال انشاء دولة صهيونية يهودية في فلسطين، أن ينالوا امتيازات كاسبة ويمنحوا هذا البلد القروض بشروط مجحفة بالنسبة له، ويخضعوه لأنفسهم اقتصادياً في البدء ثم سياسياً »[2]...

ان هذه الرغبة الأميركية، لم تنحصر في إطار التمنّي، بل ان موازين القوى الجديدة جاءت لتدعمها، وفي الوقت ذاته قدّمت القيادة الصهيونية بسياستها الآنفة الذكر مدخلاً حيوياً لعبور الأمبريالية الأميركية الى موقع هام جدًّا في المنطقة ــ فلسطين.

ولهذا دعا الرئيس ترومان في أيلول ١٩٤٥ الى إدخال مئة ألف مهاجر يهودي من اللاجئين الى فلسطين، في حين كانت الهجرة تشغل الحركة القومية العربية في فلسطين والأقطار العربية وتستخدم بريطانيا قرارها في رفض نداء ترومان من أجل خلق الموازنة المرغوبة و « كسب الرأي العام العربي »[3].

---

(١) عبد القادر ياسين ــ كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨... مصدر سابق ص ٢٠٩ .

(٢) تاريخ الأقطار العربية المعاصر... مصدر سابق ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

(٣) د . اميل توما ــ يوميات شعب... مصدر سابق ص ٢٠ .

وفي هذا السياق، لم يخل الصهاينة في التأكيد على المصالح المشتركة بينهم وبين الامبريالية الأميركية والانجليزية، ففي تل أبيب في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٤٦ قال أحد الزعماء الصهاينة في مؤتمر صحفي، بأن «من واجبنا أن نقنع البريطانيين والأميركيين ان الاعتبارات الاستراتيجية هي التي تجعل السكان اليهود الأحرار في فلسطين ربحاً لا خسارة في النضال بين العالم الأنغلو ــ ساكسوني والعالم الروسي... علينا أن نقنع الانجليز ان مصلحة الجيش الانجليزي تطابق مطالب الصهيونية. يجب أن نكون وصلة في الحلقة الأنغلو ــ أمريكية»(١).

ممّا أوردناه يتبيّن ان موازين القوى الجديدة، جاءت لتضيف تعقيداً جديداً لقضيتنا الفلسطينية، حيث دخلت الأمبريالية الأميركية حلبة الميدان، وبدأت تضغط بدورها على سلطات الانتداب البريطاني لتفتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية. وذلك نتيجة مصالح احتكاراتها ونتيجة تشابك هذه المصالح مع المشروع الكولونيالي الصهيوني، وحاولت الأمبريالية البريطانية أن تبدو وكأنها تقف في جانب «القضية العربية»، وليس دفاعاً عن موقعها في المنطقة. حين رفضت في البداية الموافقة على طلب الرئيس ترومان، ولكنها وافقت بعد ذلك، ودعت الى تشكيل لجنة أميركية ــ انجليزية لتقصّي الحقائق. وذلك كشكل من أشكال إرضاء الأمبريالية الأميركية.

في هذا الجو المليء بالغيوم السوداء، حيث تصطف القوى الأمبريالية في خندق دعم المشروع الصهيوني، ولا تترك فرصة دون أن تؤكد على ضرورة إقامة «الوطن القومي» لليهود في فلسطين. وهنا يبرز سؤال، كيف عالجت العصبة هذا الجديد؟ وما هو الجديد في موقف العصبة؟ ما هو الحل الذي تراه لصيانة البلاد من التدمير؟ في وقت أخذت موجات الهجرة تزداد بشكل مُطرد، وأخذت مواقع المشروع الكولونيالي الصهيوني تتضح أكثر فأكثر.

(١) عبد القادر ياسين ــ كفاح الشعب... مصدر سابق ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

مما لا شك فيه ان مواقف العصبة لم تراوح في مواقعها، بل تطورت، ورافقت الأحداث في سيرورتها وصيرورتها، وتصدّت لكل الأفكار الرجعية التي أخذ في ترويجها الاستعمار البريطاني، وحلفاؤه الصهاينة، والتي استهدفت أن تجذب الرأي العام الفلسطيني، في معرض مناوراتها وأحابيلها، الى الناحية التي تريدها من قضية فلسطين، فأصبحت القضية الفلسطينية باعتبار هذه العناصر، قضية هجرة أو إيقاف هجرة لا أكثر ولا أقل(١).

ولكن الحقيقة الدافعة ليست كما يدّعي هؤلاء الاستعماريون؛ بل ان قضية فلسطين، مثل قضية كل بلد مستعمر: هي قضية الاستقلال وهي قضية التحرّر من كل نفوذ أجنبي استعماري.. ولن يأمن العرب شرّ الهجرة الصهيونية ما دامت مقدرات هذه الهجرة في غير أيديهم.

والهجرة الصهيونية، بل الصهيونية كلها من «مآثر» الاستعمار في بلادنا ولا يزول الأصل بزوال الفرع، ولا تحّل المشكلة بحل القضايا التي نجمت عنها(٢).

وحدّدت قيادة العصبة في المذكرة التي أرسلتها الى المستر اتلي رئيس الوزارة البريطانية، مطلبين رئيسين لحلّ القضية الفلسطينية: حق تقرير المصير، وانتشار الديمقراطية(٣).

وفي سياق عرضها للقضية الفلسطينية تعرّضت قيادة العصبة للشعارات غير العملية التي يحلو لبعض الأوساط العربية إطلاقها، دون أن تدقّق في أبعادها والتي ستؤدّي في آخر الأمر.. الى تقسيم فلسطين، والتقسيم هو أخطر حل يجرّ البلاد الى المصائب والاضطرابات الداخلية.

(١) عصبة التحرر الوطني ــ وثيقة ــ المذكرة التي أرسلها مكتب السكرتاريا لعصبة التحرر الى المستر اتلي رئيس الوزارة البريطانية، باللغة الانجليزية في ١٩٤٥/١٠/١٠ ــ نُشرت تحت عنوان «العقدة الفلسطينية والطريق الى حلها» ــ منشورات التنظيم الشيوعي الفلسطيني في لبنان. تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٠ ص ١٢.
(٢) المصدر السابق ص ١٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٥ .

... فالتقسيم يعني تأمين مستقبل للصهيونية وبالتالي تأمين قدم الاستعمار في جميع البلاد العربية. اننا نريد فضح الصهيونية والاستعمار، لذلك نعلن ان الحركة الوطنية في فلسطين، بنضالها لتحرير فلسطين، تؤمّن حقوق اليهود الديمقراطية فيها[1].

كما أوضحت قيادة العصبة في مذكرتها المذكورة، ان السبب في الذي يجري في فلسطين، السبب في « العقدة الفلسطينية » هو السياسة العدوانية التي انتهجتها الحكومة البريطانية مدة حكمها فلسطين منذ الأيام الأولى للانتداب حتى الآن. فهذه السياسة، تركت للصهيونية المجال، أمامها، رحباً لتنمية قواها الاعتدائية وتوطيد مراكزها الهجومية في فلسطين، وذلك كله يهدّد وطننا بالدم والدموع[2].

وطرحت العصبة في مذكرتها وكخلاصة لمجمل عرضها، الحل الوحيد لما يعتور فلسطين من آفات وما ينتظرها في مستقبلها من مآس، هو اعطاء شعبها حق تقرير المصير.

وأشارت للوسائل التي من خلالها يمكن الوصول الى حل « العقدة الفلسطينية ».

١ ــ .. أن نوجد في فلسطين جوًّا يمنع في مضمونه وكالات الأنباء الأجنبية من إثارة الخواطر إثارة استفزازية، فمن الواجب، لتحقيق ذلك، تطهير جهاز الادارة الفلسطيني من جميع العناصر الرجعية، والعناصر التي تنحرف في تفكيرها انحرافاً فاشستياً.

٢ ــ من واجب الادارة المحلية أن تسير على خطة ديمقراطية في تسيير دفّة الحكم في فلسطين. ذلك يكون بأن يشترك الشعب بجماهيره الواسعة في إدارة شؤونه. وهذا في لغة الواقع يعني : اجراء انتخابات ديمقراطية للمجالس البلدية، وإجراء انتخابات ديمقراطية لمجلس تشريعي، ومنح الشعب حريات واسعة في إدارة شؤونه.

---

(١) المصدر السابق ص ١٨ و ١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١ .

٣ ــ يجب إعادة النظر في تنظيم الدوائر المحلية... من الواجب تنظيمها تنظيماً جديداً يتناسب مع هذا الهدف ومع التطور الحاصل في فلسطين وفي عقلية الحكم الاداري.

٤ ــ ان تأمين حياة الشعب بجماهيره الواسعة هو من ضروريات حفظ السلم في فلسطين. لذلك الواجب الآن سنّ التشاريع التي تؤمّن العامل من خطر البطالة ومن شبح الفاقة، الواجب حلّ مشكلة الفلاح العربي بطريقة تزيد من إنتاجه.

٥ ــ ان سياسة الحكومة تجاه الاقتصاد العربي. سياسة التفرقة والحرمان والتضييق، لا تقود إلّا الى خلق الفوضى والاضطراب وإثارة العداء مما يهدّد حتماً استقرار الأمن والسلم في فلسطين[1].

لكن الأمبريالية البريطانية، كما عادتها، لم تعر اهتماماً لمثل هذا الطرح، ولم تفكر للحظة واحدة بإيجاد حل لمشكلة البلاد، بقدر ما كانت تبحث في الظروف الجديدة عن شرعية استمرار انتدابها على فلسطين، وكما لاحظنا من خلال ما أوردته مذكرة العصبة الآنفة الذكر، ان جهاز الادارة البريطاني مع الصهاينة، أخذوا يغذون الاشاعات ويثيرون المشاعر الاستفزازية بين جماهير اليهود والعرب في البلاد، وينسجون القصص ذات الطابع الشوفيني من أجل استمرار حالة الانفصال بين هذه الجماهير، وذلك من أجل أن يقولوا لهيئة الأمم، بأن بقاء الانتداب ضرورة تمليها ظروف البلاد، وان سكان البلاد غير قادرين على أن يأخذوا زمام الأمور بأيديهم، « لأن ذلك لن يكون في مصلحة أهل البلاد ! ». والصهاينة من جانبهم، يستثمرون ذلك من أجل المحافظة على سيطرتهم على جماهير اليهود المضلّلة، لكي يستثمروهم في تنفيذ مشروعهم الكولونيالي الاستيطاني. ولكن العصبة فضحت وعرّت هذا الطرح المشوّه، الأسود والبغيض، وأكّدت ان إمكانية التعايش بين الجماهير اليهودية والعربية هو أمر ممكن، وان القضايا المشتركة بين هذه الجماهير أكبر من قضايا الخلاف، والأدلّة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧ و ٢٨ .

العملية على ذلك اضرابات العمال اليهود والعرب في معسكرات الجيش وفي مؤسسة البريد وغيرها من المؤسسات الحكومية في ١٩٤٦، ١٩٤٧...

في هذه الظروف، كما في السابق تابعت عصبة التحرّر الوطني معاركها على كل الجبهات، فعلى الجبهة العمالية تصدّت لحالة التفكّك والانقسام القائمة في صفوف الحركة العمالية العربية، ودعت عبر قيادتها، وعبر ممثّليها في مؤتمر العمال العرب رَصّ الصفوف، وإعادة اللحمة لصفوف الحركة العمالية العربية، ودعا المؤتمر لتشكيل مجلس أعلى للعمال، يقود نضالهم ويوجّههم باتجاه مصالحهم القومية والطبقية، لكن قيادة الجمعية رفضت كل الدعوات التي وجّهها لها مؤتمر العمال العرب، وقامت بتشكيل مجلس أعلى للعمال من فروعها فقط، وهذا يدلّ على ان تلك القيادة الصفراء، رغم اهتمامها في أيامها الاخيرة بالقضايا السياسية ومحاولتها تشكيل حزب خاص بها، على شاكلة حزب العمال البريطاني، رغم ذلك، بقيت دون مستوى المسؤوليات العمالية والوطنية، وهكذا استمرّت الحركة العمالية منقسمة على نفسها حتى النهاية (نهاية تلك المرحلة ١٩٤٨).

وعلى الجبهة الوطنية والقومية، تصدّت قيادة العصبة لاستمرار قيادة جامعة الدول العربية بالهيمنة على القرار السياسي في البلاد، وذلك بنتاج خضوع قيادة الهيئة العربية العليا لسياسات الجامعة، ورغم كل العوامل المشتركة بين الشعوب العربية، إلّا ان ذلك لا يعني إخضاع القرارات الوطنية لرأس الجامعة العربية لأنها لا تمثّل جماهير الشعوب العربية بقدر ما تُمثل سياسة الأنظمة التابعة والخاضعة للأمبريالية البريطانية أو الأميركية، وأشارت العصبة في صحيفتها « الاتحاد » الى « اننا لا نريد أيضاً أن نتنازل عن قيادة نضالنا الوطني ولا نريد أن نهمل حق الشعب العربي الفلسطيني في أن يقرّر بنفسه منهاجه الوطني الصادق ».

ولم تكتف بذلك، بل ندّدت بسياسة الجامعة العربية، التي لم تخرج عن اطار سياسة النظم الأمبريالية التي باركت تأسيسها (بريطانيا). نددت بسياستها الديماغوجية، والتي أخذت تردّد كالببغاء ما يقوله أسيادها الأمبرياليون، فهذا سكرتير الجامعة عبد الرحمن عزام يصرّح.

« ان أبناء الأقطار العربية سيحاربون الاستعمار الفرنسي بذات العزم الذي يحاربون به « الاستعمار السوفييتي » !، واتهمت (العصبة) قيادة الجامعة بمهادنة الأمبريالية[1]. بدل أن يعملوا على تعزيز العلاقة مع الاتحاد السوفييتي، المناضل الأممي الأول، والذي يقف الى جانب قضايا الشعوب المناضلة من أجل تحرّرها، منذ أن انتصرت ثورة اكتوبر العظمى في اكتوبر عام ١٩١٧. بدل ذلك أخذوا بسياسة أسيادهم الأمبرياليون، الذين أُدخل الرعب لقلوبهم نتيجة النهوض الثوري الذي ساد شعوب الأرض قاطبة بفضل الانتصارات المجيدة للجيش الأحمر، فأخذوا يردّدون معزوفاتهم النشاز عن « الاستعمار السوفييتي » و « الأطماع السوفييتية » الى آخر هذه الأغاني الرتيبة، والباعثة على القرف والاشمئزاز »..

وانسجاماً مع هذا التوجّه لقد « لعبت الجامعة العربية دوراً أساسياً في تغذية » التيار الذي يدعو الى « إيجاد تفاهم مع الاستعمار البريطاني » حليف العرب وصديقهم التقليدي، وكان « القسم الأعظم من القيادة القومية العربية الفلسطينية »[2] من ضمن هذا التيار، وكانوا غير قادرين على رؤية حليفاً آخر غير بريطانيا، التي لعبت الدور التخريبي الأول فيما حلّ بفلسطين من جرّاء سياستها المؤيّدة للمشروع الصهيوني متعدد الجنسيات الاستعماري.

وبقيت قيادة العصبة مشدودة أبداً، الى التأكيد الدائم على صيغة الحل للمسألة القومية الفلسطينية. إن كان ذلك في أحاديث قياداتها، أو في مذكراتهم للجهات العالمية والمحلية المختلفة، أو في مؤتمراتها العمالية، أو عبر صحيفتها « الاتحاد »، تؤكد دائماً على ضرورة منح فلسطين الاستقلال السياسي ومنح شعبها حق تقرير المصير، واشاعة الحريات الديمقراطية.

ولم تترك العصبة مناسبة إلّا ودعت للأخذ بمطالبها الآنفة الذكر، ففي البيان الذي نشرته « الاتحاد » في ٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٤،

(١) د. اميل توما — يوميات شعب... مصدر سابق ص ٢٢ و٢٣.
(٢) د. موسى البديري — تطور الحركة... مصدر سابق ص ٦٠.

أكدت... ان استقلال فلسطين يشكل ركناً من أركان السلم في الشرق الأوسط ودعت الى تشديد النضال من أجل إلغاء الانتداب والعمل من أجل توسيع الحريات الديمقراطية[1].

وفي إطار منطقها ومنهجها العلمي الثوري، ورفضها، لمنطق القيادات التقليدية التي استمرّت في تمسّكها بأهداب « الكتاب الأبيض » الصادر عام ١٩٣٩، أوضحت العصبة الفرق بين ظروف عام ١٩٣٩ وخريف العام ١٩٤٤، على الرغم مما يحمله « الكتاب الأبيض » من بعض الايجابيات فيما يتعلق « بوقف الهجرة اليهودية » و « منح فلسطين استقلالها لاحقاً »، إلّا ان الظروف الجديدة تتطلّب موقفاً جديداً، وإعلاناً جديداً، حيث ان أماني الشعب العربي القومية تتفق مع قرارات مؤتمرات موسكو وطهران وبنود ميثاق الأطلسي... أمّا الكتاب الأبيض فاعتبرته العصبة « لاغياً لأنه صدر في مرحلة طغت فيها على العالم موجة رجعية وكانت الأمبريالية البريطانية لا تزال تتمتع بقدرات كبيرة ».

فالكتاب الأبيض، الذي وعد فلسطين باستقلال مقبل لا يختفي منه النفوذ الأمبريالي البريطاني، كان أمراً ايجابياً في عام ١٩٣٩ اضطرّت اليه بريطانيا نتيجة ضغط الحركة القومية العربية.. أما في عام ١٩٤٤/١٩٤٥، في ظروف الانتصار على النازية واحتدام التحرّر السياسي والاجتماعي، فقد أصبح سلبياً[2].

وفي المعركة التي أولتها العصبة اهتماماً خاصاً، واحتلّت مكاناً مركزياً في عملها، معركة اقامة الجبهة العربية الموحّدة. لم تتخل قيادة العصبة في مجرى نضالها من أجل اقامة هذه الجبهة عن ضرورة إتباع « سياسة إيجابية ديمقراطية تجاه السكان اليهود » وأكّدت دائماً بأنه لا يوجد أي « تناقض بين مصلحة الشعب العربي والسكان اليهود »[3].

(١) د. اميل توما — يوميات شعب... مصدر سابق ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢ .

ووقفت بشكل ثابت، ومنذ أن أعلنت عن وجودها كفصيل سياسي في الساحة الفلسطينية، وقفت ضد سياسة الخلط التي تتبعها القيادات التقليدية ما بين الصهيونية والجماهير اليهودية المضلّلة. صحيح انها خاضعة لتأثيرات الايديولوجية الصهيونية، وصحيح أيضاً، ان وجودها بحد ذاته، هو شكل من أشكال تجسيد المشروع الصهيوني الاستعماري ؛ ولكن الصحيح أيضاً، اننا يجب أن نميز بين الصهاينة وجماهير اليهود المضلّلة. فمثلاً ان « الاتحاد » في تلك الأيام أبدت يقظة ازاء مظاهر التمييز الطائفي في المجتمع اليهودي في فلسطين وأذاعت رسالة بعث بها العمال اليهود الشرقيين الى سكرتير عام حكومة الانتداب البريطاني ينتقدون فيها سياسة الهستدروت التي تميّزت بإهمالهم والتمييز ضدهم ويطالبون بوقف الهجرة اليهودية طالما هناك يهود شرقيون عاطلون عن العمل[1].

ان هذا المثال البسيط، لهو دليل واضح، على ان الصهيونية. وتحديداً البرجوازية اليهودية — متعددة القوميات والجنسيات — وبشكل خاص الأوروبية الغربية. كانت تقف موقفاً عدائياً من اليهود الشرقيين، ويمكننا التأكيد على ذلك، بأنه حتى اللحظة الراهنة، يوجد تمييز ضد اليهود الشرقيين، ولهذا شكّلوا منظمتهم « الفهود السود ». ان البرجوازية اليهودية، رغم أضاليلها وديماغوجيتها حول « الأمّة اليهودية العالمية » وكل المقولات المماثلة، رغم ذلك، إلّا انها، في الحقيقة تقف موقفاً عنصرياً حتى من اليهود الشرقيين، على اعتبار، انهم متخلّفون !.

ولم تترك عصبة التحرّر الوطني مناسبة، إلّا وفضحت فيها سياسة الصهيونية المعادية لكل ما هو ديمقراطي وتقدّمي، لأن ذلك يتنافى مع إيديولوجيتها العنصرية والرجعية الى أبعد الحدود، إيديولوجية البرجوازية اليهوديّة الكبيرة، إيديولوجية الاستقلال والنهب لعرق اليهود الفقراء ودمهم قبل الشعب العربي، ولهذا فالعصبة « حذّرت من أن القيادة الصهيونية تحارب الديمقراطية والاستقرار في فلسطين خوفاً من زوال سيطرتها على

(١) المصدر السابق ص ٧ .

السكان اليهود مما يؤدّي الى استقلال البلاد وتطوّرها مما يضمن أماني الشعب العربي ومصالح السكان اليهود »[1].

وهذا أيضاً، ما أكّدته العصبة، في مذكراتها المرسلة للمستر اتلي في اكتوبر ١٩٤٥ حين قالت ان « الحركة الصهيونية لا تريد الديمقراطية تنتشر في فلسطين، إذ ان ذلك يعني إنشاء حكم وطني ديمقراطي في فلسطين، إذ ان ذلك يعني القضاء على حلم الدولة اليهودية، والدولة اليهودية لا يمكن أن تقوم إلّا بالقضاء على دعامتي كل حركة وطنية تحرّرية : حق تقرير المصير وانتشار الديمقراطية »[2].

وعلى الرغم من بعض الأخطاء في الشعارات غير العملية التي يطلقها بعض الزعماء العرب، إلّا « ان الحركة الوطنية العربية ليست عنصرية مهما حاولت الصهيونية تشويهها ». وهناك أكثر من دليل على ذلك، ليس مواقف عصبة التحرّر الوطني فقط، لا بل، اذا نظرنا لمواقف الجامعة العربية، والقيادة التقليدية الفلسطينية، نجد انهما موافقتان على الكتاب الأبيض الصادر عام ١٩٣٩ والذي يؤكد على حق اليهود في العيش في فلسطين ومنحهم المساواة والحقوق الأخرى كما الشعب العربي.

كذلك الأمر، أشارت « الاتحاد » الى اجتماع اللجنة التحضيرية في الاسكندرية حول الوحدة العربية فكتبت تقول :

« ويهمّنا أن ننبّه هنا الى ان هذا الاجتماع التاريخي قد أفسد على الصهيونية مزاعمها القائلة أن نضال الشعب العربي في فلسطين هو نضال عنصري فأظهر عطفه على اليهود المضطهدين في أوروبا وأوضح الاختلاف بين الصهيونية الاحتلالية وقضية، هؤلاء اليهود الذين طرحت بهم أهواء العنصريين في المانيا وغيرها.

كما ان « الاتحاد » نشرت مذكرة الشباب المثقف في يافا، وردّاً

(١) المصدر السابق ص ٢١ .
(٢) عصبة التحرر الوطني ـــ المذكرة المرسلة الى المستر اتلي... مصدر سابق ص ١٧.

على مقترحات حزب العمال البريطاني، الذي اقترح اجلاء الشعب العربي عن فلسطين وإقامة دولة يهودية :

« ان حلّ المشكلة اليهودية لا يكون بإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين بل في اجتثاث الأنظمة النازية من بين الشعوب في أوروبا وغيرها وإقامة أنظمة ديمقراطية للحكم على أنقاض تلك الأنظمة الاستبدادية[1].

ان هذه المواقف، وغيرها من المواقف للأحزاب والمؤسسات العربية، مضافاً لعدالة القضية التي يناضلون من أجلها، قضية التحرّر الوطني، وإقامة نظامهم السياسي المستقل الديمقراطي، تثبت ان الوطنيين العرب ليسوا عنصريين، ولا يعرفون الحقد العنصري، على الرغم من ان بعض شعاراتهم تحمل الطابع الشوفيني أحياناً، وهذا الأمر بحد ذاته مفهوم من قبل القوى شبه الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة التي كانت آنذاك متقلّدة زمام القيادة السياسية بفعل موازين القوى الطبقية التي كانت تعيشها البلاد في تلك المرحلة، إلّا ان الصبغة العامة لنضالهم، هي صبغة التحرّر الوطني، والتي لا بدّ وان تحمل الطابع القومي ولكن هذا النضال يؤدّي الى تقدّم الشعوب وليس العكس، كما هو الحال مع الصهيونية وكيانها السياسي « اسرائيل ».

ان ادارة حزب العمال البريطاني، رغم انها رفضت من حيث المبدأ، طلب الرئيس ترومان السماح بهجرة مئة ألف يهودي لفلسطين. إلّا انها لم تغلق الباب أمام « تجليس » هذه العلاقة بما يخدم مصالح الامبرياليتين البريطانية والأميركية، ففي ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥، أعلنت ان الحكومة الأمريكية وافقت على اقتراح بريطانيا إقامة لجنة انجلو ـــ أميركية تحقق في ظروف فلسطين السياسية والاقتصادية والاجتماعية وارتباط ذلك بقضية الهجرة والاستيطان وبمستقبل البلاد.

واتفق أكثر الكتّاب السياسيين على ان بريطانيا أرادت باقتراحها أن تسوّي الصراع بينها وبين الولايات المتحدة لأن احتدامه من شأنه أن يضعف مواقعها في المنطقة وفي فلسطين[2](!).

(١) د. اميل توما ـــ يوميات شعب... مصدر سابق ص ١٠ و ١١.
(٢) د. اميل توما ـــ ستون عاماً... مصدر سابق ص ١٩٣ .

وقد عارضت عصبة التحرّر الوطني فكرة تشكيل اللجنة الانجلو ــ أميركية المقترحة، ودعت في بيان أصدرته قيادتها ونُشر في صحيفة « الاتحاد »، وفي السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥، الى تشكيل لجنة دولية تبحث في مشكلة اللاجئين اليهود، بعد أن أكّدت ان فلسطين لا يمكنها أن تحلّ هذه المشكلة الدولية التي يرتبط حلّها تضافر جهود جميع الدول الأوروبية، لايجاد حل ديمقراطي لها في إطار الأمم المتحدة، وقد طالبت العصبة في بيانها المذكور، باستقلال فلسطين وإقامة حكومة ديمقراطية فيها، وإشاعة الحريات الديمقراطية وإيقاف الهجرة اليهودية إليها.

وبعثت، في الوقت نفسه، بمذكرة الى اللجنة العربية العليا، أكّدت فيها ان تعاون الاستعماريين الأمريكي والبريطاني، وتشكيل لجنة التحقيق المقترحة، ليس في مصلحة الشعب العربي الفلسطيني، ودعت اللجنة العربية العليا الى رفض التعاون مع اللجنة المقترحة، ومطالبة الوفود العربية في هيئة الأمم، بطرح قضية فلسطين على جدول أعمال الجمعية العمومية للأمم المتحدة[1].

وعشيّة وصول لجنة التحقيق الانجلو ــ أميركية الى فلسطين، أصدرت قيادة العصبة في أوائل آذار (مارس) ١٩٤٦ بياناً أكّدت فيه ان لجنة التحقيق « سوف تتقدّم بحلول استعمارية مجحفة نرى في أولها وآخرها مشروع التقسيم الذي نعرف مدلوله وأهدافه ». وقد دعت العصبة، في بيانها المذكور، الى إفشال مؤامرة لجنة التحقيق وإحباط مهمّتها. وانتقدت في الوقت ذاته مواقف اللجنة العربية العليا التي قرّرت، بعد الضغوط التي مارستها عليها الجامعة العربية، الاتصال بلجنة التحقيق والشهادة أمامها، وقد ناشدت العصبة الشعب العربي الفلسطيني « بإرسال البرقيات والعرائض الى اللجنة العربية العليا مطالباً اياها برفض التعاون مع لجنة (التضليل) الأنجلو ــ أميركية[2].

(١) د. ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة القومية... مصدر سابق ص ١٢٣ .
(٢) د. ماهر الشريف ــ عصبة التحرر والمسألة القومية... مصدر سابق ص ٢٠ .

وفي ٣٠ نيسان (ابريل)، نشر في لندن تقرير اللجنة الأنجلو ــ أميركية، وكان محوره الأساسي الحفاظ، بأي ثمن كان، على النظام الاستعماري البريطاني في فلسطين وتوطيد مواقع الولايات المتحدة الأميركية فيها. وحصرت اللجنة المسألة الفلسطينية في علاقات العداء بين العرب واليهود، ولزمت الصمت حول السبب الأساسي الذي استتبع العداء بين العرب واليهود ألا وهو وجود الانتداب البريطاني والنظام الاستعماري البريطاني[1].

ومن إحدى التوصيات التي أقرّتها اللجنة السماح بهجرة ١٠٠ ألف يهودي لفلسطين، وهذه هي التوصية الوحيدة التي تمسّك بها الرئيس الأميركي، ترومان، (من بين مجموع التوصيات)، مما دفع المستر اتلي الى القول ان توصيات اللجنة عديدة والهجرة هي واحدة منها.

وبنتيجة التباين الذي برز بين وجهتَي النظر الأمبرياليتين البريطانية والأمريكية، لم يتمّ تطبيق التوصيات التي أقرّتها اللجنة، مما دفع الرئيس الأميركي، ترومان، لإرسال مستشاره في تموز ١٩٤٦، السفير هنري غريدي، الى لندن لمباحثة المسؤولين البريطانيين بغية التوصّل الى موقف مشترك أو « حلّ » متفق عليه.

ونجح الطرفان البريطاني والأميركي في الوصول الى اتفاق. وصاغا مشروعاً عُرف بمشروع غريدي ــ موريسون.

وأعلن موريسون المشروع في مجلس العموم البريطاني في غياب وزير الخارجية « بيغن » في ٣١ تموز ١٩٤٦[2].

وهذا المشروع يتضمّن في جوهره تقسيم فلسطين كلها الى أربع مناطق : اثنتان بريطانيتان، واثنتان ذات حكم ذاتي (عربية ويهودية)[3].

(١) تاريخ الأقطار العربية المعاصر... الجزء الأول ــ مصدر سابق ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ .
(٢) د . اميل توما ــ ستون عاماً... مصدر سابق ص ١٩٤ ــ ١٩٥ .
(٣) تاريخ الأقطار العربية المعاصر... مصدر سابق ص ٢٣٢ .

رفضت الأحزاب التقليدية (القومية) والقوى الوطنية التقدمية (العصبة) توصيات لجنة التحقيق الأنجلو ـ أميركية ورأت القوى الوطنية فيها محاولة لكسب الشرعية الانتدابية.

أمّا القيادة الصهيونية فرحّبت بتوصية إدخال مئة ألف مهاجر وبقاء الانتداب البريطاني، فقضية جلاء القوات البريطانية واستقلال البلاد لم تكن من أهدافها في تلك المرحلة بل كانت تريد تحويل فلسطين الى دولة يهودية بغض النظر عن تركيب البلاد السكاني.

كذلك رفض الطرفان مشروع غريدي ـ موريسون الذي سرعان ما تحوّل الى مشروع موريسون بعد أن أعلن الرئيس الأميركي ترومان، ان حكومته ترفضه[1].

وللالمام بموقف عصبة التحرّر الوطني، من المفيد إيراد بعض ما جاء في بيانها الذي أصدرته عقب صدور التوصيات التي وردت في تقرير اللجنة، والذي أكّدت فيه « رفضها القاطع للتوصيات التي تضمّنها » التقرير، وبنتيجة إدراكها لموازين القوى الجديدة في العالم، حيث ان الاتحاد السوفييتي يتمتع بمركز هام في الأمم المتحدة، فطالبت بـ « إخراج القضية الفلسطينية من الطوق الأمبريالي، الى الميدان الدولي، وذلك من خلال عرضها على مجلس الأمن »، ودحضت وجهات النظر المتفشية بين الأوساط العربية الرجعية والمشكّكة « بفكرة عرض القضية على الأمم المتحدة، مؤكدة ان تأييد الاتحاد السوفييتي لسوريا ولبنان في مجلس الأمن قد اضطرّ بريطانيا وفرنسا الى الجلاء عن القطرين العربيين »[2].

وفي إطار معالجتها لما جرى ويجري بشأن القضية الفلسطينية، لم يفت العصبة، أن تطالب القيادات التقليدية « في فلسطين الى تغيير سياستها القائمة على التعاون مع الاستعمار »، وهذا الموقف ليس جديداً للعصبة، بل هو استمرار لمواقفها السابقة، وكانت العصبة معنيّة بفضح « تقرير

(١) د . اميل توما ـ ستون عاماً... مصدر سابق ص ١٩٥ و١٩٦ .
(٢) د . ماهر الشريف ـ الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٢٤ .

اللجنة »، الذي « دلّ على عدم إمكانية الاستمرار في سياسة التفاهم مع الاستعمار »، وشدّدت على ضرورة أن يكون موقف القيادات القومية التقليدية هو « موقف الخصومة التي لا هوادة فيها (ضد الاستعمار)، لأنه صاحب سياسة مبيتة لا قيمة للأدلة ولا للحقوق عنده[1] ».

وبهذا الصدد، عادت العصبة مجدداً، لتبيان موقفها من المسألة اليهودية، فأشارت « الى أن المسألة اليهودية خارج فلسطين » تختلف من الأساس عنها في داخل فلسطين. وان الاضطهاد الذي عانوه (أي اليهود) في الخارج يختلف كلية عن مقاومتنا للهجرة في الداخل، باعتبار ان المقاومة العربية للهجرة اليهودية الى فلسطين هي « في الحقيقة حركة تحريرية، فبينما كان اليهود قبل الاستعمار، نسبة ضئيلة لا خطر لها، فإنها أصبحت اليوم تقارب ٤٠٪ وبينما كان السكان اليهود، قبل الاستعمار يعتبرون أنفسهم مواطنين وقطعة من الكيان الفلسطيني، أصبحوا اليوم ذوي أطماع سائرة بعون الاستعمار نحو التحقيق، ولا ترض بغير الاستيلاء على فلسطين وجعلها (يهودية كما ان انكلترا انكليزية) ». وخلصت الى القول ان الصهيونية هي « ذنب للاستعمار وشريكة له »، وان المهاجر اليهودي هو « أداة استعمارية ظالمة »، وليس « أدلّ على ذلك من مقاومة الصهيونية لاستقلال فلسطين[2] ».

ولمجابهة مسألة الهجرة اليهودية والحدّ منها، وقطع الطريق على الاستعمار، الذي يساهم مساهمة مباشرة في سبيل الهجرة المتدفّق على فلسطين، حثّت العصبة، القيادات القومية التقليدية وغيرهم من القوى العربية، للاتصال بمنبع هذه الهجرة، ألا وهو، شعوب دول أوروبا الوسطى والشرقية، « وإظهار قضيتنا على وجهها التحرّري وإظهار ضرر الهجرة على اليهود فيها ». ومن جانب آخر، طالبت « الحكومات العربية المجاورة لفلسطين باتخاذ التدابير المناسبة، لمنع تسرّب اليهود من حدودها « ما دمنا نحن لا نستطيع منعهم ».

(١) د . ماهر الشريف ـ عصبة التحرر الوطني والمسألة القومية... مصدر سابق ص ٢٠ ،
(٢) المصدر السابق ص ٢٠ و٢١ .

وتصدّت العصبة في سياق بيانها، لمسألة « انتقال الأراضي، من يد العرب الى اليهود »، وأوضحت ان هذا الانتقال « دائم غير قابل للتداول » حيث تصبح الأرض العربية المباعة « صهيونية صرف لا يمكن أن تعمل عليها الأيدي العربية ». وحملت المسؤولية في جزء ممّا يجري في هذا الجانب، أي بيع الأراضي العربية، للملاك العرب الكبار، وقالت العصبة « ان الجماهير العربية تنظر الى بائع الأرض، نظرها الى ما هو أفتك من الطابور الخامس[1] ».

كما ان العصبة ومجدّداً، قامت بفضح سياسة الجامعة العربية المتخاذلة، والتي تعاطت مع القضية الفلسطينية، بعكس ما نظر لها، الشعب الفلسطيني « فرآها تؤجل البحث في مشكلة فلسطين، ثلاث مرات، كأن الأمر ليس من الأهمية بمكان، وكأن القضية ليست قضية حياة أو موت بالنسبة الى عرب فلسطين[2] ».

ان الهجين البريطاني ــ العربي الرجعي (الجامعة العربية)، لا يمكن إلّا أن يكون نتاجاً لهذا التزاوج، وبالتالي لا يمكن إلّا أن يسبح في إطار سياسة الزوجين البريطاني والعربي الرجعي، ويخدم مصالح هذا التزاوج، ولكن بحكم الوعي المحدود للجماهير العربية، ولسياسة التضليل من قبل القيادات التقليدية، ارتسم في ذهن جماهير الشعب العربي الفلسطيني، ذلك الوهم عن الجامعة العربية. ولكن من ممارسة هذا الهجين (الجامعة العربية)، تمّ الكشف عن جانب من صورة الجامعة العربية البشعة. وهكذا نراها عندما فشلت بريطانيا وأمريكا بالوصول الى حلّ، دعت بريطانيا من جانبها، الطرفين العربي والوكالة اليهودية، للحوار المشترك، من خلال عقد مؤتمر جديد في لندن، هكذا نرى، ان الجامعة العربية، ترسل مندوبيها فوراً « الى الجولة الأولى من « مؤتمر لندن » في شهر أيلول ١٩٤٦ »، مما دفع العصبة، لأن تنزل الى الشارع بثقلها، وتعقد « سلسلة من الاجتماعات الشعبية في مدن فلسطين الرئيسية، اتخذت

(١) د . ماهر الشريف ــ الشيوعية والمسألة... مصدر سابق ص ١٢٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢٥ .

خلالها عدة قرارات تدعو الى رفض التعاون مع بريطانيا وتؤكّد على ضرورة رفع القضية الفلسطينية الى مجلس الأمن ».

وبنتيجة هذا النضال، ووقوف الجماهير الشعبية لجانب هذا النضال، وبالتالي ممارستها الضغط على القيادة التقليدية، أعلنت « الهيئة العربية العليا » رفضها الاشتراك في مؤتمر لندن، وأعربت عن عدم رغبتها في الجلوس مع الجانب الصهيوني، ودعت بريطانيا الى الاعتراف باستقلال فلسطين ».

إلّا ان هذه القيادة المتهاودة مع الاستعمار، كما عوّدتنا على عدم تمسّكها بكلمتها التي قطعتها على نفسها، « بعدم الاتصال » مع الصهاينة، نجدها تحت ضغط، الجامعة العربية، توافق في كانون الثاني ١٩٤٧، على الاشتراك في الجولة الثانية من مباحثات لندن. ممّا أدّى بالعصبة للنزول مجدداً للشارع، وعقد الاجتماعات الشعبية، حيث أوضحت للجماهير مخاطر المواقف التساومية التي تمارسها تلك القيادات، وطالبت خلال حملتها الشعبية « الى انتخاب قيادة شعبية جيدة قادرة على وقف الانزلاق الى مواقف مهادنة الأمبريالية[1] ».

وأكّدت العصبة ان « مشروع موريسون ومن بعده مشروع بيغن، وغيرها مما وضع في السنتين الماضيتين وراء ستار حلّ القضية الفلسطينية، مشاريع تتفق كلها في ظاهرة بارزة واحدة وهي المحافظة على سلطة المندوب السامي ومنحه القوة الموازنة بين مطالب العرب واليهود.

والدولة الثنائية في فلسطين هي مشروع آخر من المشاريع الاستعمارية التي قدّمت، فهي مشروع لا يؤمن الاستقرار الداخلي من جهة ولا يحقّق تصفية النفوذ الاستعماري من جهة أخرى[2]...

(١) د . ماهر الشريف ــ عصبة التحرر... والمسألة القومية... مصدر سابق ص ٢٢ .
(٢) عصبة التحرر الوطني ــ طريق فلسطين الى الحرية ــ من المذكرة... مصدر سابق ص ٤٨ .

ومن المفيد ونحن نقف على حقيقة موقف العصبة من كل المشاريع الاستعمارية، أن نفضح التزوير الذي ورد في مجلة الكاتب المقدسية، التي أوردت ضمن ما أوردته عن، برنامج العصبة الديمقراطي لحل القضية الفلسطينية في عام ١٩٤٤، عن ان العصبة وافقت على « استقلال فلسطين وإقامة دولة ديمقراطية ثنائية القومية فيها[1] ».

ان الفقرة كلها صحيحة، باستثناء « ثنائيةالقومية ». فهذا ما لم تقله العصبة حتى شباط ١٩٤٨، وبالتالي لا يجوز للبعض أن يملي على التاريخ رغباته، ويضعها وكأنها، « الحقيقة »، فهذا تاريخ، ووثائق العصبة من أولها حتى الأيام الأخيرة لها وهي ضد هذه الفكرة، لذا المسؤولية في كتابة التاريخ مطلوبة من كل مَن يريد أن يؤرّخ للقضايا التاريخية.

استمراراً لموضوعنا، في ذلك الوقت، وبينما كان الأمبرياليون البريطانيون والأمريكيون « يفتشون » عن مخرج من الوضع الناشئ. كان الصهاينة يواصلون عملياتهم الارهابية. ففي ٢ تموز (يوليو) ١٩٤٦ أحدثت الفرق الارهابية في القدس انفجاراً في فندق « الملك داوود » الذي كان مقرّ هيئة أركان القوات المسلحة البريطانية والمقيم العام للادارة الاستعمارية البريطانية، مضافاً الى ان أكثر من عملية تفجير لخطوط السكك الحديدة، ولم يقتصر الأمر على سنوات ما بعد الحرب، وحتى قبل الحرب في شنّ هجمات ارهابية على القوات البريطانية. وقد ظهر الصراع في البلاد وكأنه مواجهة بين المتطرّفين الصهيونيين والاستعمار البريطاني، بينما بدا العرب وكأنهم يتخذون دور المتفرّج، وكان هدف الجماعات الارهابية الصهيونية إجبار بريطانيا على التراجع عن « الكتاب الأبيض » لعام ١٩٣٩[2]. وليس هذا فسحب، بل كان من أهدافهم أيضاً، تحويل أنظار

(١) مجلة الكاتب — للثقافة الانسانية والتقدم — الصادرة في القدس — مقال لمحات من تاريخ عصبة التحرر الوطني ونضال الشيوعيين الفلسطينيين — العدد ٣٤ شباط (فبراير) ص ١٩ .

(٢) د . موسى البديري — تطور الحركة... مصدر سابق ص ٥٩ و ٦٠ .

العالم عن القضية الأساسية، قضية الشعب العربي الفلسطيني، قضية تحرّره ونيله الاستقلال الوطني السياسي. أراد الصهاينة أن يقولوا للعالم، ان مشكلة فلسطين، هي مشكلة « الدولة اليهودية » و « حل المسألة اليهودية »، وليس مستبعداً أن يكون جزءً من العمليات « مرتّباً » بين عدد من الضباط الانكليز وقادة المنظمات العسكرية الصهيونية. لماذا نقول ذلك ؟ لأنه رغم هذه العمليات الارهابية ضد المواقع البريطانية، فانها لم تؤثّر على العلاقات الايجابية ما بين الصهاينة والبريطانيين، صحيح ان العلاقة فترت لبعض الوقت. وذلك بفعل تحوّل الصهاينة في اعتمادهم على قوة امبريالية أخرى، هي الأمبريالية الأميركية، ولكن الصهاينة لم يتخلّوا في الوقت نفسه عن حليفهم القديم — البريطاني — وإذا تتبّعنا لمجرى السياسة الصهيونية وكيانها فيما بعد اقامته، لاتضح لنا صحة ما ذهبنا اليه — على سبيل المثال لا الحصر. عدوان ١٩٥٦ على الجمهورية العربية المتحدة وقطاع غزة.

لم يتمكن البريطانيون والأمريكان من التوصّل الى حلّ يُذكر، بل يمكن القول، ان السياسة البريطانية بشكل خاص مُنيت بفشل ذريع في تلك الفترة، مما اضطرّها، ازاء هذه الاخفاقات... الى احالة قضية فلسطين الى الأمم المتحدة. وفي شباط (فبراير) ١٩٤٧ أعلن وزير خارجية بريطانيا قرار حكومته بهذا الشأن بعد أن أخفق مشروعه القائم على فرض الوصاية على فلسطين مدة خمس سنوات[1].

٤ — القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة

لقد بذلت بريطانيا، كل جهودها، من أجل بقاء نفوذها في فلسطين، ولكنها أخفقت، مما دفعها الى « أن تطلب رسمياً في ٢ نيسان (ابريل) ١٩٤٧ من سكرتير عام الأمم المتحدة وضع القضية الفلسطينية على جدول أبحاث دورة الجمعية العامة القادمة.

(١) د . اميل توما — ستون عاماً... مصدر سابق ص ٢٩٦ .

وفي الوقت ذاته اقترحت بريطانيا أن تعقد الأمم المتحدة دورة طارئة تُؤلف، خلال الجمعية العامة لجنة خاصة تحقّق في القضية وتقدّم تواصيها الى الدولة المقبلة[١] ».

ان الموقف البريطاني الجديد، ليس نتيجة لتغيير في الموقف البريطاني، بقدر ما هو محاولة جديدة، تلعبها بريطانيا، من أجل اقتناص موقف داعم لبقائها من قبل الشرعية الدولية، في فلسطين، وهي بموقفها الجديد، تريد أن تقول فلسطين لا يمكن أن تعيش بهدوء دون وجود طرف ثالث، يُهدأ من الخواطر والممارسات المتطرّفة من قبل العرب ضد اليهود أو العكس..

وفي هذا الاطار، أصابت الحمية ممثلي الوفود العربية الموجودين بالأمم المتحدة، والذين رضخوا في نهاية الأمر لارادة « الكفاح التحرّري القويم في فلسطين والأقطار العربية، وتحت ضغط نداءات القوى الوطنية الثورية ».. وطالبوا سكرتير عام الأمم المتحدة وضع مسألة « إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين وإعلان استقلالها، على جدول أبحاث دورة الجمعية العامة الطارئة ».

إلّا ان حليفه ممثلي الدول العربية والولايات المتحدة « التي تؤيد الشعوب الحرة » !!، قادت في الجمعية العامة « معارضة الطلب » العربي، حيث « قرّرت بأكثرية ثمانية أصوات مقابل صوت واحد وامتناع خمسة أعضاء » الى رفض الطلب العربي المذكور أعلاه. و « انفرد الاتحاد السوفييتي في تأييده[٢] ».

والجمعية العامة التي بدأت دورتها الطارئة في ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٤٧ واستمرّت حتى ١٥ مايو (أيار)، وافقت على « أن تدعو ممثلي الوكالة اليهودية والهيئة العربية العليا للاشتراك في المناقشة حول القضية الفلسطينية والادلاء بآرائهم حول مستقبل البلاد ».

(١) المصدر السابق ص ١٩٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١٩٨ .

ماذا كان رأي كل منهم ؟ الصهاينة لم يرغبوا « في احالة القضية الفلسطينية الى الأمم المتحدة، كما انهم لم يعارضوا في الانتداب. لقد قامت استراتيجيتهم على بقاء الانتداب وخلافهم مع بريطانيا حول تنفيذ بنوده[١] » وهذا دليل جديد يؤكد ما ذهبنا اليه أثناء تصدّينا لمسألة الارهاب الصهيوني ضد القوات البريطانية..

أمّا القيادة القومية التقليدية، فلم « ترغب هي الأخرى في إحالة القضية الفلسطينية الى الأمم المتحدة أو الخروج من إطار التعامل مع بريطانيا والدول الأمبريالية عامة.. (وفي ذات الوقت) لم تتجاوب مع القوى الثورية العالمية التي أبدت استعدادها لمساندة الكفاح القومي التحرّري في فلسطين ». ان حرصهم على العلاقة مع بريطانيا وأمريكا والدول الأمبريالية عموماً، أعماهم عن رؤية الصديق الحقيقي لشعوبنا العربية، على الرغم من أن الوفد السوفياتي اتصل « بعدد من ممثلي حكومات الدول العربية في منظمة الأمم المتحدة عارضاً استعداد حكومة الاتحاد السوفييتي لدعم النضال الفلسطيني من أجل جلاء القوات البريطانية وتحقيق الاستقلال ».. « ولكن نتيجة للارتباط والالتزامات العربية البريطانية رأت وفود حكومات الدول العربية، أن لا تفتح « ملفًا » لعلاقات عربية ــ روسية لأنه ــ حسب اعتقادها ــ قد يسيء ويؤثر على استمرارية العلاقات العربية ــ البريطانية[٢] ».

وفي إطار المناقشات، أثناء الدورة الطارئة،أعرب « مندوب الهيئة العربية العليا (غن رفضه) مزاعم الصهيونية حول العلاقة التاريخية بين اليهود وفلسطين وتحدث عن أوضاع الطوائف اليهودية في الأقطار العربية وأكّد انها عاشت بسلام دائم مع الشعوب العربية وطالب بالاعتراف باستقلال فلسطين. وعرض ممثل الوكالة اليهودية مطلب الصهيونية الجوهري وهو اقامة دولة يهودية[٣] ».

(١) المصدر السابق ص ١٩٩
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٠ و ٢٠١ .

ان عصبة التحرّر الوطني انتقدت « مواقف ممثلي الدول العربية الذين توجّهوا الى الولايات المتحدة «التي تؤيّد الشعوب الحرة » !! ودعوها الى تأييد استقلال فلسطين، وأشارت العصبة الى أن من أسباب إضعاف القضية الفلسطينية في المحافل الدولية انجرار الدول العربية و « الهيئة العربية العليا » وراء أضاليل الاستعمار وعرض القضية « من وجهتها الخاطئة » وحصر المسألة « على تبيان التناقض والاختلاف بين العرب واليهود » وليس على وضع القضية « على انها نضال تحريري ديمقراطي ضد الاستعمار والصهيونية، وفي سبيل جلاء الجيوش الأجنبية وإقامة حكومة مستقلة تؤمن أيضاً حقوق السكان اليهود[1] ».

وأعرب عن موقف الاتحاد السوفييتي أندريه غروميكو (اليوم رئيس مجلس السوفييت الأعلى) فدعا الى تصفية الانتداب البريطاني ودعا الى تكوين دولة عربية — يهودية واحدة ديمقراطية مستقلة، وقال ان هذا هو الحل المرغوب به في فلسطين، وأضاف : « واذا ظهر أن هذا الحل غير عملي بسبب سوء العلاقات بين العرب واليهود فلا بدّ من تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية ».

وقال غروميكو : « وأكرّر ان هذا الحل (التقسيم أ.ت.) لا يجب الأخذ به إلّا اذا ثبت ان العلاقات بين العرب واليهود تبلغ من السوء حدًّا يمتنع فيه تحقيق (الاستقلال أ.ت.) بجلاء التعاون السلمي بينهما ولا يرجى منه أي صلاح[2] ».

بمحصلة النقاشات، أقرّت دورة الجمعية العامة الطارئة « في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٧ تأليف لجنة (من أحد عشر مندوباً). مهمتها التأكّد من الحقائق، وتحرّي المسائل والقضايا المتعلقة بالمشكلة الفلسطينية، وتقديم اقتراحاتها الملائمة لحلّ تلك المشكلة قبل أيلول (سبتمبر)

(١) د . ماهر الشريف — عصبة التحرر والمسألة... مصدر سابق ص ٢٣.
(٢) د . اميل توما — ستون عاماً... مصدر سابق ص ٢٠٢ .

١٩٤٧ لعرضها على دورة الأمم المتحدة العادية في خريف ذلك العام[1] ».

إلّا ان القيادة القومية التقليدية، كشفت عن وجهها السافر في عمالتها للأمبريالية البريطانية، حينما رفضت عرض القضية على اللجنة الدولية التي شكّلتها الأمم المتحدة. حيث يُعتبر هذا الموقف بحدّ ذاته انتصاراً للهدف البريطاني الذي يتمنى فشل مهمة اللجنة في الوصول الى حلّ، وهو لم يخرج عن التناغم البريطاني العربي الرجعي، لأن بريطانيا، تريد أن تبقى المشكلة وحلّها محصوراً فيها، لكي تستمر في البلاد، وتستمر عملية الاستغلال للأرض والشعب العربي الفلسطيني. وهكذا اتخذت تلك القيادة المتهادنة مع الأمبريالية البريطانية، قراراً بـ « مقاطعة اللجنة الدولية »، وعلى الرغم من ان العصبة وافقت على قرار المقاطعة، مع انها من حيث المبدأ ضد هذا القرار، وحتى لا تضيع فرصة توضيح موقفها، قامت العصبة بإرسال مذكرة الى سكرتير عام الأمم المتحدة.. « استعرضت فيها تاريخ العقدة الفلسطينية وشرحت أوضاع البلاد السياسية والاقتصادية وطالبت بجلاء القوات البريطانية وتصفية الانتداب وإقامة دولة ديمقراطية مستقلة تحفظ حقوق جميع السكان.

وبعد أن تسلّم السكرتير العام مذكرة العصبة، تجاوب مع اقتراحها، فوزّع نسخاً عنها على أعضاء الأمم المتحدة[2] ».

أمّا فيما يتعلق باللجنة المشكّلة، فهي تشكّلت من دول مختلفة الاتجاهات والأهواء السياسية، ولقد « ظهرت مؤثرات الحسابات الدولية والعلاقات فيما بينها » وهذا بدوره ساهم فيما وصلت اليه اللجنة من توصيات لا تمتّ للعدالة والمبدئيّة وحقوق الشعوب التاريخية في أراضيها بأي شيء.. فدول أميركا اللاتينية التي تمثّلت في اللجنة : غواتيمالا وبيرو وارغواي (ومعهم كندا) انحازوا الى الموقف الأميركي وكانت

(١) المصدر السابق ص ٢٠٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٤ و٢٠٥.

الولايات المتحدة تؤثر عليهم. في حين أخذت استراليا موقف بريطانيا بعين الاعتبار.

وارتباطاً بهذا الجو، ولغيره من الأسباب « كانت اجتماعات لجنة التحقيق عاصفة وانتهت بالاجماع على عدد من التوصيات وما يشبه الاجماع عن توصية واحدة. وجميع الأعضاء وافقوا على إنهاء الانتداب ومنح فلسطين استقلالها، وأقرّوا مرحلة انتقال تتسلّم خلالها الأمم المتحدة المسؤولية، كذلك أقرّوا ان على الجمعية العامة أن تتخذ الأمم المتحدة اجراءات سريعة لحلّ مشكلة اليهود الأوروبيين الواقعين في ضائقة (اللاجئين في المعسكرات) وذلك لتخفيف عبء مشكلة فلسطين[1].

وفي هذه الأثناء « حذّرت العصبة « الهيئة العربية العليا » والأوساط الوطنية العربية في فلسطين من مغبّة الانقياد وراء المناورة الأمبريالية الجديدة الهادفة الى فرض مشروع التقسيم، بحجّة استحالة التعايش بين العرب واليهود، ودعت الجماهير الشعبية الى التصدّي للمناورة الأمبريالية الجديدة من خلال تأليف لجان شعبية في الأحياء لمنع امتداد الاضطرابات والنزاعات الدموية، التي كانت قد اندلعت، في أوائل شهر آب (أغسطس)، بين العرب واليهود في يافا وتل أبيب، الى بقيّة المدن الفلسطينية.

كما ان العصبة في ذلك الحين استنكرت « لجوء بعض القيادات القومية التقليدية العربية الى أسلوب الارهاب الفردي بهدف تصفية معارضيها... كما جرى (مع حادث) اغتيال النقابي « سامي طه » سكرتير جمعية العمال العربية الفلسطينية في حيفا[2].

وعندما عقدت الجمعية العامة دورتها العادية في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧، وضعت اللجنة الدولية توصياتها أمام الجمعية العامة، « وقد أوصت اللجنة، بإجماع أعضائها، على ضرورة تصفية الانتداب وجلاء القوات البريطانية عن فلسطين، إلّا انها لم تتفق على حل موحّد للقضية الفلسطينية :

(١) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

(٢) د . ماهر الشريف ـــ عصبة التحرر الوطني والمسألة... مصدر سابق ص ٢٤ .

حيث اقترحت أكثرية اللجنة تقسيم فلسطين الى دولتين دولة عربية وأخرى يهودية تجمع بينهما وحدة اقتصادية. أمّا الأقلية فقد اقترحت إقامة دولة فلسطينية اتحادية مستقلة من ولايتين عربية ويهودية تكون القدس عاصمتها[1].

بعد بدء أعمال الدولة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة، عقدت اللجنة المركزية لعصبة التحرّر اجتماعاً لها بكامل أعضائها، في مساء الجمعة ١٧ تشرين أول (أكتوبر) سنة ١٩٤٧، في مركز العصبة العام بيافا، وصدر بيان بعد ذلك في صحيفة « الاتحاد » في ٢٥ تشرين أول (اكتوبر) ١٩٤٧، أكّدت فيه، رفضها لمشروع التقسيم وقالت « وإذ تبيّن شعبنا ان اتجاه أكثرية الدول في منظمة الأمم يهدف الى تأييد التقسيم بشكل أو بآخر ».

« فانه قد أدرك منذ اللحظة الأولى أيضاً، ان مشروع التقسيم هو مشروع استعماري، عمل للتحضير له المستعمر من يوم أن وطأت أقدامه أرض فلسطين ».

وتابع البيان في فضح الموقف البريطاني الذي تظاهر في الأمم المتحدة « وأمام العرب واليهود بانه يقف من مشروع التقسيم أو غيره من المشاريع موقف المحايد (!)، وبانه لا يرضى عن تنفيذ أي حل إلّا اذا وافق عليه العرب واليهود ! «هذا التظاهر يساعد الحركة الصهيونية على التعلّق بأهداب التقسيم والاصرار على إنشاء الدولة اليهودية ». وأمّا حقيقة موقف المستعمر البريطاني هو إشعال « نار الحرب العنصرية للوصول الى التقسيم خلال المآسي والدموع والخراب والدمار ».

وفي هذا السياق، حذّر البيان، « الجماهير اليهودية في فلسطين الى خطر السير وراء الأهداف الصهيونية في تأييد التقسيم وإنشاء الدولة اليهودية ».... وأضاف، الى ان « الدولة اليهودية لن تؤمن للجماهير اليهودية في فلسطين ما تنشده من سلم واستقرار، لأنها ستقود الى نقل الاحتراب

(١) المصدر السابق ص ٢٦ .

العنصري المقيت من أوروبا الى فلسطين التي لم تعرفه في يوم من الأيام، ولن تكون هذه الدولة المزعومة إلّا موطئ قدم لتدخّلات الاستعمار الأنجلو ــ أميركي في الأقطار العربية، يهدّد بواسطتها حرية هذه الأقطار..

وأشار البيان الى « ان مستقبل فلسطين ليس في التناحر العنصري وليس في التقسيم، ولكن هو في تعاون سكانها أجمعين وعملهم السلمي الانشائي على بناء فلسطين ديمقراطية مستقلة موحّدة غير مجزّأة ».

ولمجابهة هذا الأمر ــ التقسيم، دعت العصبة الى تشكيل اللجان القومية « في كل مدينة وقرية لتنظيم النضال الوطني وحشد القوى في سبيل تحقيق الجلاء وتصفية الانتداب ومقاومة التقسيم وتحقيق استقلال فلسطين موحّدة في ظل حكم ديمقراطي ».

وفي هذه الظروف أكّدت العصبة في البيان المذكور، « انها تسير في النضال الوطني متعاونة مع الهيئات الوطنية في كل خطوة تخطوها لتحرير فلسطين وتحقيق استقلالها. وانها في الوقت نفسه تحتفظ بسياستها الوطنية المستقلة التي تستوحيها من واقع أحوالنا ومن أهداف شعبنا في نضاله التحريري[1] ».

وفي ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، أشار المحرر السياسي لصحيفة « الاتحاد » لمواقف الاتحاد السوفييتي والقوى الديمقراطية، حيث أوضح « ان الاتحاد السوفييتي والقوى الديمقراطية التحرّرية في العالم تدرك ان مصلحة فلسطين، قبل كل شيء آخر هو في تحقيق استقلالها وتصفية السلطة البريطانية عنها وجلاء جميع الجيوش الأجنبية عن أراضيها.

وتابع القول « وهي تدرك ان حلّ التقسيم هو أسوأ الحلول، كما صرّح بذلك المندوب السوفياتي نفسه، ولكن مؤامرات الاستعمار والسياسة

(١) « الاتحاد » ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٧ ــ بيان اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني بفلسطين ــ أسماء أعضاء اللجنة المركزية ــ رشدي شاهين، فؤاد نصار، اميل توما، محمد نصر، اميل حبيبي، حسن أبو عيشة، محمد موسى سليم، عصام العباسي، رشيد الهباب، سامي الغضبان.

الصهيونية وموقف القيادة الوطنية التي لم ترد أن تتبين الحقائق المحيطة بها وما نتج عن ذلك من توتّر في العلاقات بين العرب واليهود، كل ذلك هو الذي أوصل فلسطين الى حلّ التقسيم.

وأورد في سياق توضيحه لمواقف الدول الديمقراطية، عندما استشهد بما قاله المندوب البولوني الذي أيّد به التقسيم : ان مستقبل فلسطين ليس بالتقسيم والتجزئة ولكن في تفاهم أهلها جميعاً وعملهم السلمي الانشائي.

وأوضح المحرّر السياسي مدى الدور السلبي الذي لعبته سياسة القيادة التقليدية في دفع العديد من القوى الديمقراطية على الموافقة على مشروع التقسيم. « ويُعتبر هذا بحد ذاته دليلاً على فشل تلك السياسة القديمة، موجباً لتغييرها وإتباع أساليب جديدة في الحركة الوطنية الفلسطينية[1] ».

وفي المعركة في سبيل الموافقة على قرار التقسيم بذلت الولايات المتحدة جهوداً كثيفة واستخدمت وسائلها المعروفة في الضغط على بعض مندوبي الدول الأعضاء من آسيا وأمريكا اللاتينية.

وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة، بأكثرية الثلثين، على قرار يدعو الى تصفية الانتداب البريطاني، وتقسيم فلسطين الى دولتين ــ عربية ويهودية ــ بحدود إقليمية محدّدة، والى تدويل القدس، والى تعاون اقتصادي بين الدولتين.

وحسب هذا القرار تُقسم مساحة فلسطين البالغة ١٠,٤٣٥ ميل مربع على الوجه التالي : دولة عربية على مساحة ٤,٤٧٦ ميل مربع أو ٤٢,٨٨ في المئة من مساحة البلاد. دولة يهودية تقوم على مساحة ٥,٨٩٣ ميل مربع أو ٥٦,٤٧ في المئة من البلاد. ومنطقة القدس الدولية وتحتل ٦٨ ميل مربع أي أقل من واحد في المئة[2].

(١) « الاتحاد » الحيفاوية ــ مقال بقلم المحرر السياسي « للاتحاد » ــ الآن نستطيع أن نكشف النقاب عما يجري في منظمة الأمم ــ ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ .

(٢) د . اميل توما ــ ستون عاماً... مصدر سابق ص ٢٠٩ .

واشتملت الدولة اليهودية على الجليل الشرقي ومرج ابن عامر والقسم الأكبر من السهول الساحلية ومنطقة النقب وبئر السبع و ٤٦٠ ألف عربي و ٥٣٠ ألف يهودي و ١٤٢٠٠ كيلومتر مربّع مع التنبيه على ان ثلثي الأراضي الزراعية والعقارات في هذه المنطقة ملك للعرب !

واشتملت الدولة العربية على الجليل الغربي ومناطق نابلس والقدس وغزة والجليل و ٦٥٠ ألف عربي و ١١ ألف يهودي و ١٢٠٠٠ كيلومتر مربع مع التنبيه على انه ليس في المنطقة إلا نحو مئة ألف دونم زراعية لليهود وعدد (محدود جداً) من العقارات !

واشتملت منطقة القدس الدولية على مئة ألف يهودي ومئة وخمسين ألف عربي[1].

وعلى اثر صدور توصيات لجنة التحقيق الدولية أذاع مكتب سكرتارية عصبة التحرّر الوطني يوم الجمعة الموافق ١٩٤٧/٩/٥ بياناً أوضح فيه موقف العصبة من ذلك، وحيث أدركت قيادة العصبة أن الأمور تتجه نحو الهاوية التي سيغرق فيها الشعب العربي الفلسطيني. وفي الوقت نفسه، استحسنت قيادة العصبة بعض التوصيات التي وافقت عليها اللجنة ومن بينها « تصفية الانتداب البريطاني وتحقيق استقلال فلسطين في أقرب وقت، وإقامة نظام ديمقراطي وإلغاء جميع الامتيازات الأجنبية، وان حل المشكلة اليهودية العالمية لا يكون بفلسطين ».. وبصدد اقتراح اللجنة لحل التقسيم، جاء في البيان « ولم يكن من واجب هذه اللجنة الدولية ولا من واجب منظمة الأمم المتحدة ان تفرض شكل فلسطين المستقلة، بل من واجبها وواجب جميع أصدقاء فلسطين، وجميع الراغبين في المحافظة على السلم في هذا الجزء من العالم، أن يوجدوا الظروف التي تمكن سكان فلسطين، مختارين وبحرية تامة من أن يقرّروا مستقبلهم بأنفسهم[2] ».

(١) محمد عزة دروزة ـــ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ـــ الجزء الثاني ـــ دائرة الاعلام والثقافة ـــ منظمة التحرير الفلسطينية ـــ دار الجاحظ للطباعة ـــ الطبعة الثالثة ١٩٨٤ ص ٩٧ .

(٢) عصبة التحرر الوطني ـــ بيان صادر عن سكرتارية عصبة التحرر الوطني يوم الجمعة الموافق ١٩٤٧/٩/٥ .

وأشارت « الاتحاد » بوضوح في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ الى مسؤولية « الهيئة العربية العليا » عن تردّي القضية الى هذا المأزق الحرج ».. وتتابع « الاتحاد » لقد أصبح الشعب العربي على جهل تام بموقف الهيئة العليا من مشاريع عمان ـــ بغداد ـــ لندن، ومن مهمة الجيش (العربي) الأردني، ومن المقترحات التي تقدّمت بها الدول العربية والتي وافق عليها مندوب الهيئة العربية العليا والتي طالبت الدول العربية ببقاء الانتداب البريطاني على فلسطين بشكل من الأشكال ». وبعد ذلك يقف جمال الحسيني ليعلن باسمها « رفضها للتقسيم » بينما هي « تسكت عن المقترحات التي عُرضت في منظمة الأمم من قبل الدول العربية والتي تتعارض مع أهدافنا الوطنية ولا تتلاءم إلّا مع مصالح المستعمر البريطاني ». ان هذا الموقف للهيئة العربية لن يساعد « إلّا الاستعمار وأعوانه في العالم العربي من أمثال الملك عبدالله ونوري السعيد وسمير الرفاعي وشركاهم ». وأكّدت « الاتحاد » بان قضية فلسطين، هي قضية الشعب الفلسطيني وهو الذي « يقرّر في مصيرها..، وعلى الحكومات العربية، إن أرادت ذلك، أن تؤيدنا أو على الأقل أن تفسح المجال أمام شعوبها لتنصرنا[1] ».

بقيت عصبة التحرّر الوطني محافظة على موقفها المبدئي والثابت، برفض قرار التقسيم حتى بعد الاعلان عنه في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، وعقدت لجنتها المركزية اجتماع لها بعد ذلك القرار، إلّا ان الأكثرية كانت ضد قرار التقسيم. واستمرّ الحال على هذا الشكل، حتى تمّ عقد كونفرنس موسّع للعصبة، تغيّبت عنه الأكثرية، وتمكّنت من خلاله الأقلية من أخذ قرار بالموافقة على مشروع التقسيم، وأصدروا بياناً بعد ذلك، أعلنوا فيه موقفهم الجديد، وطالبوا في خلاله جماهير الشعب بعدم النزوح عن البلاد، ودعوهم للصمود، وكذلك طالبوا بإخراج الجيوش العربية من البلاد..

(١) « الاتحاد » الحيفاوية ـــ ٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ ـــ مقال « قضية فلسطين قضية الحرية قبل كل شيء آخر ».

وفي هذه الأثناء قامت سلطات الانتداب في ١٥ يناير (كانون ثاني) ١٩٤٨ بـ « تعطيل مطبعة النصر بيافا وإلغاء امتياز جريدة « الاتحاد »، وقد استنكرت العصبة، في بيان أصدرته قيادتها في ٣١ كانون الثاني (يناير). (تلك) الخطوة التي أقدمت عليها سلطات الانتداب بحق جريدة « الاتحاد »، واعتبرتها « لطخة جديدة سوداء تُضاف الى تاريخ الادارة الحكومية في فلسطين[١] ».

وفيما بعد، دخلت الجيوش العربية لفلسطين (السبع) « بحجة انقاذ أهلها وكانت حسب قرارات الجامعة العربية بقيادة الملك عبدالله الذي كان يقود جيشه الجنرال الانكليزي « جلوب »، وقد أدّى دخول الجيوش العربية الى تسليم جزء كبير من فلسطين الى الصهاينة وكان ما احتلّوه نتيجة حربهم مع الجيوش العربية التي كانت واقعة تحت تأثير القيادات والسياسات الاستعمارية. أكثر ممّا كان مقرراً لليهود في مشروع التقسيم[٢] ».

وبنتيجة الحرب.. والانقسام والتجزئة التي حصلت للأرض الفلسطينية، كما يقول فؤاد نصّار في مذكراته، « .. تقسّمت أيضاً عصبة التحرر الوطني فأغلبية العصبة بقيت في اسرائيل (بعد قيامها)، وبقي عدد قليل نسبياً من أعضاء العصبة وكوادرها، وكنت أحدهم، فيما أصبح يُعرف بالضفة الغربية...[٣] ».

الموقف من قرار التقسيم

هل كان الموقف الذي اتخذته قيادة العصبة (الأقلية) صحيحاً ؟ واذا كان غير صحيحاً فلماذا ؟

ان قرار العصبة، لم يكن أبداً سليماً، ولم يكن لينسجم مع مصالح

---

(١) د. ماهر الشريف ـــ عصبة التحرر والمسألة... مصدر سابق ص ٢٧ .

(٢) رفيق النتشه (أبو شاكر)، د. اسماعيل أحمد ياغي ود. عبد الفتاح أبو عليه ـــ تاريخ مدينة القدس ـــ دار الكرمل للنشر والتوزيع ـــ عمان ـــ الأردن ـــ الطبعة الأولى ١٩٨٤ ص ١٥٣ ـــ ١٥٤ .

(٣) د. ماهر الشريف ـــ عصبة التحرر والمسألة... مصدر سابق ص ٢٧ .

الشعب العربي الفلسطيني، ولم يكن بالأساس لينسجم مع مواقف العصبة السابقة، ويمكننا القول، ان عصبة التحرّر ختمت تجربتها بقرار لا يوحي بتاتاً بتلك الحكمة التي تمتّعت بها قيادة العصبة في السنوات السابقة.

وعندما نقول ذلك، نقوله ليس من باب التجنّي، ولا من باب الاساءة لقيادة العصبة، بل انسجاماً مع الرؤية العلمية، وانسجاماً مع روح الماركسية ـــ اللينينية، حيث ان هذا القرار كان انفعالياً ومتسرّعاً، وغلب عليه الاقرار بالواقع ونقطة ! ودون البحث في أبعاد ذلك القرار من كل الزوايا الفلسطينية، العربية، الصهيونية والدولية... اذن ما هي الأسباب التي تدحض موقف الموافقة على ذلك القرار ؟؟

أولاً : لا يوجد أية حقوق تاريخية لليهود بفلسطين، وان فكرة وجود وبناء « وطن قومي » لليهود هي فكرة استعمارية، رجعية صرف، ولا تخدم بأي حال من الأحوال جماهير اليهود المعذبة، والمضطهدة مضافاً الى ان المشكلة اليهودية ومعاداة السامية وُجدت في أوروبا الغربية والشرقية (ولهذه أسبابها المتعلقة بدور اليهود في المجتمعات الاقطاعية والرأسمالية ـــ دورهم الربوي). وفيما يتعلق بالهجرة اليهودية، فهذه أيضاً مشكلة عالمية، وليست مشكلة معنية بها الأرض الفلسطينية الصغيرة، ومطلوب كان من العالم حلّها بشكل يؤمّن عيش جماهير اليهود في أوطانهم..

وبناءً عليه فان عملية إيجاد « الوطن القومي » والعمل على تحقيقه، كان عملاً ونشاطاً مزدوجاً بين الصهيونية العالمية التي ترغب في اقامة مشروعها الكولونيالي وبين الرأسمال العالمي البريطاني، الأميركي، الفرنسي والألماني وغيرهم، من أجل خدمة مصالح الأمبريالية في منطقة الشرق الأوسط ذات الأهمية الاستراتيجية.

« ان... زعماء الحركة الصهيونية، الذين وضعوا أيديهم على الدولة اليهودية في فلسطين أثناء عملية ولادتها، والذين وجّهوا تطوّرها نحو طريق تحويلها إلى دولة صهيونية بكل ما في هذه الكلمة من معنى وخاصة إعطاء اسرائيل الطابع النازي[١] ».

---

(١) لاديكين ـــ مصدر الأزمة الخطيرة... مصدر سابق ص ٢٤١ .

ومن هنا نخلص الي القول بأن اليهود الذين جاؤوا لفلسطين في قوافل الهجرة الصهيونية المنظمة، من أجل إقامة دولتهم، لا يحق لهم حق تقرير المصير بنتيجة ما أوردناه.

ولتعميق الفكرة، وحتى لا يصرخ في وجهنا أحد. نستشهد بالمعلم لينين الذي يقول في مؤلفه « الثورة الاشتراكية وحق الأمم في تقرير مصيرها » تعليقاً على موقف ماركس الذي رفض للشعب التشيكي حق تقرير المصير سنة ١٨٤٨، يقول : « كانت ثمّة أسباب تاريخية وسياسية سنة ١٨٤٨ للتمييز بين الأمم « الرجعية » والأمم الديمقراطية الثورية، وكان ماركس على حق في شجب الأولى، وفي الدفاع عن الثانية. ان حق تقرير المصير هو أحد مطالب الديمقراطية الذي ينبغي بالطبع أن يخضع للمصالح الديمقراطية.

بذات المعنى كتب في « خلاصة النقاش حول حق الأمم في تقرير مصيرها » يقول : « كان التشيكيون بالفعل شعوباً رجعية، مراكز أمامية للقيصرية ». واننا نتبيّن صورة مماثلة، الى حدّ كبير، لهذا الواقع في أي تحليل للوضع الذي خلقه قيام اسرائيل في الشرق الأوسط[1].

ونتابع الاستشهاد بما قاله لينين من المقالة نفسها، حيث يؤكد : « فاذا وجدتم الوضع الملموس الذي واجهه ماركس في المرحلة التي كانت تؤثر فيها القيصرية تأثيراً بالغاً أولياً في السياسة العالمية (....). وبمعنى ان شعوباً أخرى تكون الدعائم الرئيسية للرجعية البرجوازية، ترتّب علينا أيضاً أن نؤيّد قيام حرب ثورية ضد هذه الشعوب بغية « سحقها »، بغية القضاء على جميع مراكزها الأمامية، أيًّا كانت حركات الأمم الصغيرة ذات العلاقة[2] ».

ومن البديهي القول ان التجمّع اليهودي في فلسطين قبل تشكّل، كيانه السياسي الجغرافي، كان يشكّل مثل ذلك المركز، وتطوّر هذا المركز

---

(١) إنفولا الشاوي — كتابات ودراسات — دار الفارابي — بيروت ص ٤٦٥ — ٤٦٦ .

(٢) لينين — في الاممية البروليتارية — من مقال خلاصة المناقشة حول حق الامم في تقرير مصيرها دار التقدم — موسكو — طبع في الاتحاد السوفيتي ص ٩٠ .

بعد أن تشكّل الكيان الصهيوني في اطار جغرافي سياسي. وليس صحيحاً مَن يقول ان عدوانية الكيان الصهيوني ورجعيته اكتشفت بعد قيامه، فهذا الحديث مردود على كل مَن ينطق به، لأن إيديولوجية الصهيونية، إيديولوجية البرجوازية اليهودية الكبيرة مثبتة وواضحة منذ بداية القرن العشرين، وكل المعاهدات التي وقّعتها الصهيونية مع الدول الأمبريالية بكل فروعها بما في ذلك الفاشية الألمانية والنازية الايطالية، تؤكّد ما نذهب اليه..

وبالتالي شكل هذا الكيان منذ ولادته بؤرة خطرة على كل ما هو تقدّمي وسلمي وتحرّري واشتراكي ليس في المنطقة العربية، بل في العالم ككل. وممارسات ذلك الكيان الواضحة ضد الحركة العمالية والشيوعية العالمية وتحديداً المنظومة الاشتراكية، خير دليل على ما نقول.

ومن هنا، نقول ان الموافقة على قرار التقسيم، وبالتالي الموافقة على اقامة الكيان الصهيوني، هو موقف خاطئ من أساسه، ولم يخدم حل المسألة اليهودية ولا أعطى الشعب الفلسطيني حقّه في تقرير المصير.

ثانياً : لم يؤخذ بعين الاعتبار المزاج الجماهيري، فالعصبة وجميع الشيوعيين العرب، تناسوا هذا الجانب الهامّ جداً، والذي أكّد عليه ماركس في ملفه « الثامن عشر من برومير »، عندما أشار لكيفية استغلال لويس بونابرت للمزاج الجماهيري في تحقيق أغراضه، ومع الفارق في الحالة والزمن، لكن العملية من حيث المبدأ تؤكد ان من الواجب مراعاة المزاج الجماهيري، والحالة التي عاشتها البلاد والمنطقة عموماً كانت تتطلّب الاهتمام بهذا الجانب، لأن هذا المزاج المعادي للتقسيم لم يكن منتشراً فقط بين عامة الناس، بل أيضاً، بين الأعضاء الشيوعيين أنفسهم.

وهكذا نجد ان الرفاق الشيوعيين خسروا لفترة من الوقت الجماهير، بالطبع تختلف هذه الفترة من موقع لآخر، لبينما أدرك الناس طبيعة المؤامرة الرجعية حتى خفّ موقف العداء للحركة الشيوعية العربية.

ثالثاً : لم يقدّر الشيوعيون الموقف تقديراً سليماً، حيث اعتقدوا بإمكانية تطبيق مشروع التقسيم، وبالتالي امكانية استحصال شيء للشعب العربي

الفلسطيني يحفظ له هويته وكيانه السياسي، ويقطع الطريق على القوى المتآمرة !؟، لكن ذلك لم يكن ممكناً، ولم يكن قابلاً للتحقيق، لماذا ؟

١ ــ أطماع الصهيونية المحدّدة والواضحة في وثائقها والمدعومة من قبل الرأسمال المالي والصناعي العالمي.

٢ ــ الرجعيّة العربية ودورها التخريبي التآمري المعادي لمصالح الشعوب العربية، والشعب العربي الفلسطيني بشكل خاص، والمنسجمة تماماً مع مصالح الاستعمار والصهيونية، وهذا بغض ما جاء في تقرير لغولدا مئير عن محادثاتها مع الملك عبدالله : « قبل شهرين، أي قبل حوالي عشرة أيام من اتخاذ قرار الأمم المتحدة (٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧) جرى لقاء مع عبدالله، اشترك فيه من جانبنا ساسون ودانين وأنا. لقد جرى الحديث آنذاك على أساس ان هناك بين الطرفين تنسيقاً وتفاهماً بالنسبة لما يريده هو ولما نريده نحن، وان مصالح كلينا لا تتعارض(١) ».

فالرجعية الأردنية تحديداً كانت لها أطماعها الخاصة في جزء من فلسطين، وكذلك المصريون، ولذا جعل غياب هذه النقطة الموقف غير واضح بالنسبة للشيوعيين.

٣ ــ ضعف الحركة الوطنية الفلسطينية، لدرجة انتقال القرار السياسي من يدها، ليد الرجعية العربية، وتجلّى ذلك حتى قبيل دخول الجيوش العربية السبعة لفلسطين. ومن خلال ما أوردناه أيضاً ثبت ان القيادة القومية التقليدية كانت خاضعة الى حد بعيد لتأثيرات السياسة الرجعية العربية والانتداب البريطاني.

٤ ــ رغبة البريطانيين بفشل الحلّ، لعل وعسى، أن يؤخذ قرار بإعادة وصياتها على الأرض الفلسطينية.

---

(١) مايز فلنر ــ السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي ــ ٦٠ عاماً على تأسيس الحزب الشيوعي الاسرائيلي ــ اصدار الحزب الشيوعي الاسرائيلي ــ تل أبيب ــ ١٩٨٠ ــ مطبعة الاتحاد التعاونية بحيفا، ص ٧٦ .

لهذا كان تقدير الرفاق الشيوعيين خاطئاً وغير صائب، وكانت النتيجة عكسية تماماً لما قدروه، ونسجوا تحليلهم على أساسه.

رابعاً : غاب عن الرفاق الشيوعيين، ان الرجعية العربية كانت تبيت النيّة السوداء ضد كل مَن هو تقدّمي في فلسطين والمنطقة، لهذا لاحظنا فوراً، وبعد أن أعلن الشيوعيون موقفهم من قرار التقسيم، قامت « حملة تحريض على الشيوعيين، ...، صار حملة في العالم العربي كله، وفي العراق استغلوا الظروف وأعادوا محاكمة الرفاق الثلاثة فهد، وصارم وحازم وأعدموهم، في سوريا صار هجوم على مكاتب الحزب وقُتل رفيق أو رفيقين، في لبنان جرى هجوم على الحزب ومكاتب الحزب، أخذ رياض الصلح قرار بمنع الحزب الشيوعي من العمل(١) ».

وفي هذا الصدد، يقول أيضاً الرفيق د. يعقوب زيادين : « .. وكان هناك يومها جمعية للصداقة السورية ــ السوفياتية أعلنت عن حلّ نفسها بنفسها. وفي لبنان حلّ رياض الصلح الحزب الشيوعي اللبناني وبدأوا بمطاردة أعضائه وفي مصر والأردن سادت أجواء قاتمة(٢) ».

ان الرجعية العربية طبّقت المثل القائل « قتل القتيل ومشى في جنازته »، فهي التي ساهمت في قتل هوية الشعب الفلسطيني وتدميره، وهي التي عملت على ما هو أخطر من التقسيم، ابادة الهوية السياسية والوطنية للشعب العربي الفلسطيني، وبالمحصلة ظهرت للرأي العام العربي، وكأنها « حامية الحمى »، وكأنها براء من الدم الفلسطيني، ومن ما جرى على الأرض الفلسطينية، وهكذا حمّلت مسؤولية جريمتها التي ارتكبتها بالتعاون مع الأمبريالية العالمية والصهيونية العالمية، حمّلتها للرفاق الشيوعيين، واستغلت ذلك، فشنّت حملة مسعورة، معادية للسوفييت، ومعادية لكل

---

(١) لقاء شخصي مع الرفيق عبد العزيز العطي (أبو الوليد) في صوفيا بتاريخ ١٩٨٥/٢/١٦، (أبو الوليد، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الأردني).

(٢) د . يعقوب زيادين ــ البدايات (سيرة ذاتية ــ أربعون سنة في الحركة الوطنية الأردنية) صادرٌ عن دار ابن خلدون ــ بيروت الطبعة الأولى في ١٩٨٠/١٠/١ ص ٤٠. ص ٤٠ .

ما هو شيوعي ليس في المنطقة بل في العالم، وفي سياق حملتها السافرة التي ضلّلت بها جماهير الشعوب العربية في أقطارها المختلفة لفترة ليست بسيطة، من ان الشيوعية « شريكة للصهيونية في جريمتها في فلسطين ».

خامساً : الحق التاريخي للشعب العربي الفلسطيني بأرضه، وبالتالي، كان يجب على الأمم المتحدة أن تعطي الشعب العربي الفلسطيني حقه في اختيار نظام الحكم الذي يريد، وليس مطلوباً منها أن تفرض عليه فرضاً قراراً جائراً، لا يمتّ بصلة لمصالح الشعب العربي الفلسطيني، وهو نتاج موازين القوى التي كانت مائلة بوضوح لمصالح الأمبريالية وحلفائها.

بالتأكيد هذه الاشارة، لا تعني الرفض لمبدأ المساومة، وحتى أحياناً في ظل ظروف محدّدة ممكن أن يجري تعديل حدود الدول بنتاج موازين قوى محدّدة، والأمثلة على ذلك عديدة في البلقان، وفي صلح برست وغيرها. ولكن الصورة عندنا تختلف فشعبنا لم يفاوضه أحد، بل فرض عليه الأمر فرضاً، وكان الهدف تبديد هويته الوطنية والسياسية وابادته، كما حصل مع الهنود الحمر في أمريكا.. ومن هنا نقول، ان حق شعبنا يجب أن لا يتمّ التخلي عنه، ويجب التمسّك بهذا الحق حتى عودته كاملاً.

ومن الملاحظ، ان الفلسطينيين الآن، يطرحون حلاً مرحلياً للمسألة الفلسطينية، وهو شكل من أشكال المساومة، ولكن هذا الحل المرحلي، هو خطوة على طريق الحلّ الأشمل الذي يؤمّن الحياة الكريمة والمساواة لجميع السكان في البلاد وبغض النظر عن الدين أو العرق أو اللون أو القومية.. دولة فلسطين الاشتراكية، التي ستطرح حلاً عادلاً واستناداً الى مبادئ الماركسية ــ اللينينية للمسألة اليهودية.. وهذا الحلّ تتمسّك به فصائل المقاومة الفلسطينية كافة ــ قد يختلفون من فصيل لآخر حول شكل الدولة، ولكنهم لا يختلفون من حيث الجوهر فيما هم ذاهبون اليه.

مما لا شك فيه ان هذا البند لم يغب عن بال الشيوعيين آنذاك، بل هم، أشاروا لذلك، ولكنهم تعاطوا مع ما هو مطروح..

سادساً : لم يدرك الرفاق الشيوعيين العلاقة الديالكتيكية جيداً بين

الفردي (الوحيد) الفلسطيني والخاصّ العربي والعام الشيوعي الأممي، حيث اعتبر البعض، وإن لم يعلن ذلك، بأنه لا يجوز بروز أي تباين بين الموقف الشيوعي العربي والموقف الشيوعي الأممي، وبناءً عليه، يجب إتباع الموقف السوفييتي ! الأمر الذي يتنافى مع أبسط تعاليم الفلسفة الماركسية ــ اللينينية وكل مقرّرات الحركة الشيوعية العالمية ومَن يعتقد بأنه بإتباع الموقف السوفييتي دونما تقدير وتقييم للمعطيات المحلية والاقليمية، يخدم الشيوعية ويدافع عنها، ليس إلّا جاهلاً في العلم الماركسي ــ اللينيني ؛ فالدفاع عن الموقف السوفييتي يكمن أولاً وقبل كل شيء بتصويب هذا الموقف اذا كان خاطئاً وبالدفاع في ذات الوقت عن الموقف العلمي الصحيح وليس الخضوع لسلطة عبادة الفرد الستالينية !

أضف لكل ذلك، ان الشيوعيين لم يدركوا الظروف التي أحاطت بالموقف السوفييتي عندما وافق على قرار التقسيم، وهي التالية :

١ ــ شعور القيادة السوفياتية بأن الصراع الدائر على الأرض الفلسطينية قد يؤدّي الى اندلاع نزاع حربي جديد نتيجة « العداء الذي أشعلته القوى الأمبريالية بصورة مصطنعة بين الجاليتين القوميتين (...) ــ لهذا ــ الاتحاد السوفييتي (صوت الى جانب) الموافقة على فكرة تقسيم فلسطين... رغم كونه حلاً وسطاً توفيقيًّا، حسب تعبير الباحثين السوفيتيين دمترييف ولاديكين[1].

٢ ــ ظهور المأساة اليهودية من جرّاء ممارسات النازية، بشكل حاد وبحيث دفعت للخلف كل ما عداها من الحقائق والمبادئ عن الصهيونية ودورها الاجرامي في مأساة اليهود، التي استغلت آلام اليهود ومعاناتهم من أجل تنفيذ مشروعها الكولونيالي الاستيطاني.

اذن الجو الذي وُلد فيه « أول قرار هيئة الأمم تجاه المشكلة الفلسطينية قد تأثر بالعديد من العوامل العاطفية، التي ساعدت في بلورة مواقف

(١) زدرافكو فيليف ــ جمهورية بلغاريا الشعبية والبلدان العربية ــ باللغة العربية ــ صوفيا برس ١٩٨٢ .

العديد من الدول، التي كان القرار يتوقف على أصواتها، ومن هذه العوامل مشاعر العطف على ضحايا الفاشية، ومن بينها اليهود الأوروبيون[1] ».

٣ ــ بدء مرحلة الحرب الباردة، التي قادتها الأمبريالية الأميركية ضد الاتحاد السوفييتي ودول الديمقراطية الشعبية الجديدة، والتهديد بالقنبلة الذرية، التي لم يكن مكتشف سرّها حتى ذلك الحين، أوائل عام ١٩٤٧.

٤ ــ كانت المهمة الرئيسية والمركزية أمام الاتحاد السوفييتي، تنحصر في إعادة بناء ما دمّرته الحرب العالمية من مصانع ومزارع ومؤسسات وطرق.. الخ، مضافاً لدعم دول الديمقراطية الشعبية وأبناءها آنذاك، الأمر الذي يتوجّب عليه العمل بكل الوسائل من أجل إيقاف أي عامل من شأنه أن يعيد عجلة الحرب من جديد.

٥ ــ دور القيادات الرجعية العربية، والقيادة القومية التقليدية الفلسطينية، الذين رفضوا أي تعاون مع الاتحاد السوفييتي، على الرغم من ان المندوب السوفييتي غروميكو (آنذاك) اتصل بالمندوبين العرب أكثر من مرة في الأمم المتحدة وغيرها ؛ إلّا انهم وحرصاً منهم على حلفائهم الأمبرياليين لم يتجاوبوا مع الرغبة السوفييتية الصادقة في التعاون المتكافئ، وزاد « في الطين بلّة ! » ان زعيم الحركة القومية الفلسطينية الحاج أمين الحسيني زار المانيا الهتلرية ابان الحرب، اعتقاداً منه ان الالمان ضد اليهود ومع الشعب الفلسطيني !!

كل هذه العوامل أثّرت في الموقف الذي اتخذه الاتحاد السوفييتي عندما وافق على قرار التقسيم « الوسطي والتوفيقي »، ولكن الاتحاد السوفييتي الصديق نسي في ذات الوقت الموقف الايديولوجي، الموقف الماركسي ــ اللينيني، الذي عبّر عنه خير تعبير القائد العظيم لينين، والذي لو كان حيًّا آنذاك لما أقدم على ما أقدم عليه ستالين، لأنه هو الذي فضح وعرّى الصهيونية و « دولة اسرائيل » قبل نشوئها و « القومية اليهودية » الرجعية، وهو الذي أدرك قبل غيره الخطر الذي ستمثّله هذه

---

(١) لاديكين ــ مصدر الأزمة الخطيرة... مصدر سابق ص ١٥٥ .

الدولة « الاسرائيلية » كقاعدة أمامية « للقيصرية الأميركية وللامبريالية عموماً ». ضد شعوب المنطقة.

وقع الاتحاد السوفييتي وأوقع، أو الأصح ووقعت الأحزاب الشيوعية العربية في الخطأ الكبير بالموافقة على قرار التقسيم، ولكل موقف تقديراته، فالسوفييت اعتقدوا آنذاك، بأن إقامة الدولة اليهودية من جهة ستحلّ المسألة اليهودية ! ومن جهة أخرى، تصوّروا بأن هذه الدولة ستشكّل عامل « تطوير » للمنطقة وشعوبها « البدوية المتخلّفة! »، وغاب عنهم كليًّا التحليل اللينيني المنطقي والعلمي.

وأمّا الرفاق الشيوعيون العرب، الذين كانوا قد أعدّوا بيانات الرفض للتقسيم، وبعضهم وزّعه، ومن ثم بعد أن سمعوا الموقف السوفييتي، سحبوا البيانات وطبعوا بيانات جديدة تؤيّد التقسيم !!!؟، اعتقد الشيوعيون العرب بفعلتهم تلك انما يخدمون قضية الأممية والشيوعية !!، وكان هاجسهم أن لا يظهر أبداً أي تناقض بين الموقف الوطني والأممي !!، حتى لا يعطوا الأمبريالية والرجعية أي مكسب !! ونسيوا الأوضاع المحيطة بهم المحلية والاقليمية. وهذا يعود الى عاملين، الأول، استمرار سياسة عبادة الفرد « الستالينية » والتي لا يمكن لشيوعي إن كان داخل الاتحاد السوفييتي أو خارجه أن يخرج عن ارادتها « السامية ! »، والثاني، الضعف النظري وصغر التجربة العملية للأحزاب الشيوعية العربية، اضافة لنقطة مهمة، وهي ان معظم الأحزاب الشيوعية العربية كانت قياداتها من الأقليات القومية، التي لم تنتبه لمخاطر موافقتها على التقسيم.

لكن الاتحاد السوفييتي وبعد قيام الكيان الصهيوني وافتضاح نواياه العدوانية، أخذ تدريجياً يدرك حجم الخطأ الكبير الذي وقع فيه، وعلى اثر ذلك، بدأ بإعادة النظر في ذلك الموقف، وتحديداً بعد موت ستالين.

ولا يجوز أن يفهم من هذا التحليل العلمي لتطوّر الموقف السوفييتي والأحزاب الشيوعية العربية، بأن خلفيته العداء للسوفييت أو الأحزاب الشيوعية، لا، العكس صحيح لأن المسؤولية الوطنية والقومية والأممية تحتّم علينا أن نكون أمناء وأوفياء للماركسية ــ اللينينية، التي أعطتنا

القدرة على التحليل العلمي، ومنحتنا القوة والجرأة في معالجة أخطائنا وأخطاء رفاقنا في الخندق الأممي، دون أي خوف أو مواربة. ولا تمتّ هذه الجرأة والشجاعة بأي صلة للجماعات الاصلاحية، جماعة برنشتاين، التي دعت في نهاية القرن التاسع عشر « لحرية الانتقاد ! » بهدف مسح الماركسية وتفريغها من مضمونها الثوري، ولا ننطلق من موقف المغامرة والتطرّف في معالجة هذا الخطأ، الذي بنتيجته انعزلت الأحزاب الشيوعية العربية عن محيطها، والأهم من ذلك، المساهمة في ضياع حقوق الشعب العربي الفلسطيني حتى اللحظة. من حيث لا يدري، وهو ما ندفع ثمنه غالياً.

مرة أخرى، لم يكن هذا إلّا لحظة عابرة — رغم مأساويتها — في موقف الاتحاد السوفياتي، ولا يمكننا الانطلاق في معالجة الموقف السوفييتي من هذه النقطة، رغم أهميتها، بل يجب رؤية الصورة في تقييم الموقف السوفييتي من كل جوانبها، وليس من زاوية واحدة، الأمر الذي سيؤدّي بنا الى فقدان البوصلة، التي نهتدي بها، وضياعنا نحن عن الطريق الشيوعي، وانحرافنا نحو الطريق القومي الشوفيني.

اذن وحتى لا يحصل هذا الضياع، يتوجّب علينا الامساك بكل أطراف المسألة وعناصرها التي نحن بصددها، والثبات في التحليل العلمي، أي الاستناد الى الشيوعية العلمية، هذا وحده الذي يؤمّن استمرارنا في السير على الخط الأممي. وانطلاقاً من ذلك، واذا تتبّعنا الموقف السوفييتي منذ أن ظهرت المشكلة الفلسطينية وحتى اليوم، لثبت لنا، عظم موقف الاسناد الذي قدّمه الاتحاد السوفييتي ليس لشعبنا العربي الفلسطيني، بل لمجموع الشعوب العربية وعلى كل الأصعدة. « ففي ربيع سنة ١٩٥٧ صرّح بولفانين بأن وجود اسرائيل يجب أن يُعاد فيه النظر بعد اشتراكها في العدوان الثلاثي (عام ١٩٥٦ ضد مصر) ».

كما صرح خرتشوف في الوقت ذاته، « بأن اليهود غير مؤهلين لتكوين مجتمع ثابت(١)، هذا مضافاً للأسلحة التي قدمها لمصر آنذاك، والتي

(١) ناجي علوش — المسيرة الى فلسطين — دار الطليعة — بيروت — الطبعة الأولى — أيلول ١٩٦٤ ص ١٣٨ .

سميت « بالصفقة التشيكية » عام ١٩٥٥. ثم بناء السد العالي وغيرها أشياء لا يمكن حصرها قدمها وما زال يقدمها حتى الآن لشعوبنا العربية وشعب الفلسطيني بشكل خاص.

المهم ما يجب أن نخلص اليه هو، بأنه توجد في ظروف ما بعد حل الكومنترن في مايو ١٩٤٣، لأن يضطر أحد الأحزاب لأخذ موقف متباين مع موقف الحركة الشيوعية العالمية، على شرط أن لا يؤثر في جوهر سياسة ذلك الحزب. وهذا ما أكد عليه الرفيق جورج حاوي الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني في المقابلة التي أجرتها معه مجلة النهج النظرية، حيث قال: « لذلك لا يصح أن نلقي مسؤولية أخطائنا في القضية القومية وفي فلسطين على الاتحاد السوفييتي، من ذات المنطلق نناقش الموقف من قضية التقسيم، فإذا كان للاتحاد السوفيتي اعتباراته في الموافقة على قرار التقسيم في ظل تناسب القوى الذي كان قائماً آنذاك فقد كان على أحزابنا، ومنها حزبنا الشيوعي اللبناني، أن تحدد موقفاً خاصاً بها حتى ولو كان متناقضاً مع الموقف الاممي، ذلك لأن هذا التناقض سيكون مؤقتاً سطحياً وشكلياً. وبهذا كان سيؤثر على القضية الوطنية دون أن يباعد بينها وبين الموقف الأحمى »(١).

وهذا أيضاً ما أكدت عليه جميع المؤتمرات التي عقدتها الحركة الشيوعية العالمية في عام ١٩٦٠ و١٩٦٩، حيث أكدت « أن جميع الأحزاب الماركسية — اللينينية أحزاب مستقلة، متساوية في الحقوق، وهي تضع سياستها انطلاقاً من الظروف الملموسة القائمة في بلدانها(٢).

وتعميقاً لذلك جاء في بيان ١٩٦٩ ما يلي: « ان الأحزاب الشيوعية والعمالية تعمل في شروط نوعية مختلفة جداً تتطلب معالجات متنوعة لأجل

(١) جورج حاوي — الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني — مقابلة مع مجلة النهج — دفاتر الماركسية اللينينية في العالم العربي — تصدر عن مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي — العدد الرابع، الصادر في أيار (مايو) ١٩٨٤. ص ١٢٦.

(٢) بيان اجتماع الأحزاب الشيوعية والعمالية في موسكو ١٩٦٠ ص ٥٠.

انجاز مهماتها الحسية. وكل حزب، بالانطلاق من مبادىء الماركسية ــ اللينينية وأخذه في الحسبان الشروط الوطنية الحسية، يصوغ سياسته بكل حرية، ويحدد اتجاه نضاله وأشكاله وطرائقه...»[1].

بمجموع الأسباب التي أوردناها نؤكد مجدداً على أن عصبة التحرر الوطني أخطأت في الموافقة على قرار التقسيم، ومعها بالطبع الرفاق في الحركة الشيوعية العربية، وليس عيباً أن نعترف بأخطائنا فهذا كما يقول يشبه « نصف اصلاح الخطأ » ولكن أن نتشبث بتلك المواقف، وندافع عنها فذلك هو الجمود العقائدي، وعدم القدرة على التقاط الموقف الصحيح. ولا شك أن العديد من الأحزاب الشيوعية العربية أعادت النظر في موقفها السابق الذي اتخذته عام ١٩٤٨.

ثانياً : الحركة الشيوعية العربية والمسألة الفلسطينية

ان موقف العديد من الأحزاب الشيوعية العربية، انتقل خطوة للأمام في معالجته للمسألة الفلسطينية، ووقف العديد من أحزابنا الشيوعية وقفة نقدية جزئية أمام الأخطاء السالفة، متجاوزين بذلك حالة الجمود العقائدي، التي رافقة عملها سابقاً والمتعلقة بشأن المسألة الفلسطينية، ويمكننا القول إن أول مراجعة تمت، كانت من قبل الحزبين الشيوعيين اللبناني والسوري، واللذين كانا آنذاك في إطار حزب واحد، عام ١٩٥٦، جاء ذلك في تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني الصادر في ١٩٨٤/١٠/١٩ الذي يقول : « وفي الموقف الذي اتخذ في مطلع العام ١٩٤٨، حصل نوع من الانقطاع استمر بضع سنوات جرى تصحيحه جزئياً في اجتماع مشترك للجنة المركزية للحزبين الشيوعيين السوري واللبناني عام ١٩٥٦... يؤكد النص، في مطلعه على ما يلي : ... أما القرار عن قضية فلسطين فقد أكد على أن فكرة ايجاد « الوطن القومي » اليهودي بفلسطين، الذي تحول الى

---

(١) امؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية العالمي ــ موسكو ١٩٦٩ ــ منشورات « السلم والاشتراكية ــ براغ » ١٩٦٩ ص ٤١ .

« دولة اسرائيل »، كانت من أساسها فكرة استعمارية عدوانية مجافية للعدالة، ومنطوية على مؤامرة ساخرة ضد شعب آمن لا ذنب له »[1].

ثم انتقل هذا الموقف خطوة جديدة، أرقى من خطوة العام ١٩٥٦، على أثر عدوان العام ١٩٦٧، حيث انكشف وجه الكيان الصهيوني بشكل سافر، فالحزب الشيوعي السوداني في مؤتمره الرابع الذي عقده في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٧، توصل الى الآتي : « ان بقاء اسرائيل يهدد مباشرة الثورة العربية فأصبح عليها أن تناضل بحزم بين الجبهة الواسعة المناوئة للاستعمار العالمي لتهيئة الظروف المناسبة لتصفية هذا الكيان وليتمتع شعب فلسطين بحقوقه الثابتة على أراضيه بقيام دولة عربية تقدمية على أرضه ».

ويتابع « لقد استخدمت اسرائيل عام (١٩٤٨) لوقف المد الثوري الذي أعقب الحرب العالمية الثانية. واستخدمت عام (١٩٥٦) لضرب مصر بعد تأميم قناة السويس. واستخدمت عام (١٩٦٧) بعد فشل الردة الرجعية السياسية لوقف حركة التغيير الاجتماعي ».

وحول قرار التقسيم الصادر عام ١٩٤٧، يرى الحزب : « ان التجربة العالمية أيضاً أثبتت خطأ الافتراضات التي بررت التقسيم واعتباره حلاً لتحقيق التعايش السلمي بين الأقليات اليهودية والعرب في فلسطين »... ويرى الحزب ان إعادة النظر في قرار التقسيم يجلو الكثير من الضباب الفكري الذي أحاط بهذه القضية مما عزل عنها قوة عالمية ضخمة كان يمكن كسبها لصالح الحركة الثورية العربية ومطلب الشعوب العربية العادل في (إزالة الوجود الاسرائيلي الطفيلي). ان دولة الاحتلال تفتقد السمات الأساسية للدولة الوطنية لأنه كما يقول (انجلز)... (ليس في تاريخ اليهود ما يثبت أن اليهود فيما بعد صاروا قومية مميزة في أرض فلسطين أو غيرها).

ويدعو الحزب « القوى الاشتراكية الى إعادة النظر في قرار عام ١٩٤٧ المتعلق بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود لأن الافتراضات التي بررت

---

(١) تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني الصادر في ١٩٨٤/١٠/١٩، ونشر في جريدة النداء البيروتية في نفس التاريخ.

التقسيم واعتبرته حلاً لتحقيق التعايش السلمي مع الأقليات اليهودية والعرب في فلسطين قد أثبتت التجربة خطأها »[1].

وتم التأكيد على هذا الموقف في الرسالة الموجهة من قبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني، الى الحزب الاشتراكي اليمني في أوائل اكتوبر ١٩٧٨ بمناسبة انعقاد مؤتمره الأول، جاء فيها : « فقط من مواقع النضال غير المتهادن ضد الامبريالية والاستعمار الحديث وفي سبيل الديمقراطية والتغيير الاجتماعي الثوري، يمكن استنهاض القوة العربية العاتية وتنظيمها وتوجيهها وحشدها، من أجل تحرير الأرض المحتلة، واستعادة فلسطين وطناً مستقلاً ديمقراطياً لشعبها العربي »[2].

أما الحزب الشيوعي اللبناني فانتقل أيضاً خطوة جديدة للأمام بعد عدوان ١٩٦٧، وهذا ما جاء في برنامج الحزب المقر في المؤتمر الثاني عام ١٩٦٨ : « قامت اسرائيل على أساس انها جزء من حركة الامبريالية العالمية. وهي تحتل مكاناً خاصاً في الثورة العربية بوصفها كياناً غريباً قام على اغتصاب أرض عربية. فهي في مكانها عنصر تقسيم للعالم العربي وعائق في وجه الوحدة العربية، قائم على العدوان والتوسع[3] ».

ويتابع « ان الحل النهائي للقضية الفلسطينية يجب أن يعتمد المواقف المبدئية وينطلق من الاعتراف بحق العرب الفلسطينيين الذي لا ينازع في أرضهم ووطنهم، وبالتالي الاعتراف بحقهم بالعودة الى هذه الأرض وحقهم بتقرير مصيرهم فيها. وما قام على القوة والاغتصاب لا يمكن تبريره،

---

(١) عبد الرزاق محمد أسود — الموسوعة الفلسطينية — نشر وتوزيع الدار العربية للموسوعات.

(٢) رسالة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني للحزب الاشتراكي اليمني بمناسبة انتهاء أعمال المؤتمر الأول — عن برنامج « المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي اليمني — اكتوبر ١٩٧٨ ». دار ابن خلدون — الطبعة الأولى ١٩٧٩/٨/١. ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٣) برنامج الحزب الشيوعي اللبناني المقر في المؤتمر الثاني في تموز (يوليو) ١٩٦٨ — طبع على مطابع الأمل — بيروت. ص ٤٢ — ٤٣ .

ووجود اليهود في فلسطين اليوم لا يمكن أن ينال من حق عرب فلسطين الطبيعي والتاريخي في وطنهم »[1].

وفي مجال ممارسة النقد والنقد الذاتي بصدد هذه المسألة يقول الحزب « ... لقد نظر الحزب الى القضية الفلسطينية والى التآمر الاستعماري الصهيوني عليها نظرة ضيقة. ولم يفطن الحزب الى أن فلسطين وان كانت في المرحلة الأولى هدفاً بذاته في خطط الاستعمار والصهيونية، فالمراد من وراء تحقيق هذا الهدف بالدرجة الأولى، اتخاذ قضية فلسطين منطلقاً للجم وضرب حركة التحرر الوطني العربية التي انطلقت بقوة بعد الحرب العالمية الثانية »[2].

أما الحزب الشيوعي المصري فبعد عودته وانعقاد مؤتمره الأول عام ١٩٨١، أكّد على الآتي : « ان الحل الاستراتيجي الذي يتبناه حزبنا يتجسد في :

إقامة دولة ديمقراطية علمانية على كامل التراب الفلسطيني وقت الانتداب البريطاني. دولة يعيش في ظلها المسلمون والمسيحيون واليهود كمواطنين متساويين في الحقوق والواجبات... دولة لا مكان في ربوعها للصهيونية أو للعداء للسامية »[3].

وحول الربط الديالكتيكي بين الهدف الاستراتيجي والتكتيكي يرى الحزب الآتي : « ان طرح الهدف التكتيكي كهدف نهائي بديل عن الهدف الاستراتيجي مؤداه التسليم بالأمر الواقع الامبريالي الصهيوني في المنطقة والوقوع في مستنقع الخيانة والاستسلام. بينما التشبث بالهدف الاستراتيجي كهدف مباشر وعاجل مؤداه التعامي عن الظروف الموضوعية والذاتية القائمة والانزلاق الى متاهة المغامرات غير المحسومة النتائج.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٣ .

(٣) برنامج الحزب الشيوعي المصري — من وثائق المؤتمر الأول — دار ابن خلدون — بيروت — الطبعة الأولى ١٩٨١/١/١ ص ٥٦ — ٥٧ .

ولذلك فإن حزبنا يعارض أي حل تكتيكي على حساب الهدف الاستراتيجي... ويؤيد أي حل تكتيكي يخدم النضال العربي الشامل من أجل تحقيق الهدف الاستراتيجي ويوفر لهذا النضال ظروف أفضل »[1].

أما موقف الحزب الشيوعي الأردني، فيمكن استخلاصه من تقرير اللجنة المركزية الصادر في آذار ١٩٧١ حيث جاء فيه ما يلي : « ان الغزوة الصهيونية لفلسطين، بمساعدة الدول الامبريالية لا تختلف من حيث الجوهر عن غزو الاوروبيين لبعض بلدان أفريقيا واستيطانهم فيها. ولا يغير من هذه الحقيقة الخرافات والمزاعم الصهيونية عن ان فلسطين أو بعض أجزائها كانت في زمن سحيق أرضاً اسرائيلية »[2].

ويتابع التقرير فيقول : « ان الزمرة المنشقة، لا تحاول وضع القضية في إطارها التاريخي الملموس، فهي تتحدث عن حق تقرير المصير للشعب اليهودي في ظروف تجاوزت فيه اسرائيل هذا الحق على حساب حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره، وغدت المهمة الوطنية والأممية تبعاً لذلك هي النضال لاسترداد حقوق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره على أرضه »[3].

ويربط التقرير بين الحالة القائمة في الشرق الأوسط والحالة التي كانت قائمة في المانيا النازية فيقول : « فالحالة القائمة في منطقة الشرق الأوسط، تشبه من بعض الوجوه، الحالة التي نشأت في أوروبا بعد وصول النازية الى الحكم في المانيا عام ١٩٣٣، فخطر النازية لم يبق محضوراً داخل المانيا وحدها، بل تعداها الى أوروبا، بعد أن تحولت الامبريالية الالمانية الى قوة صدام للأمبريالية العالمية ضد الاتحاد السوفييتي، وضد الحركة العمالية

(١) المصدر السابق ص ٦١ — ٦٢ .
(٢) تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأردني، الذي أقرته بالاجماع في الاجتماع الذي عقدته خلال شهر آذار (مارس) ١٩٧١، نشرته بعنوان — حول القضية الفلسطينية والحركة الصهيونية وموقف الزمرة المنشقة منها — منشورات الحزب الشيوعي الأردني — الطبعة الثانية — آب (أغسطس) ١٩٧١ ص ٧ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢ .

العالمية، وضد الحركة الشيوعية... وبهذا لم تعد مهمة القضاء على النازية محصورة بالطبقة العاملة والقوى الديمقراطية والتقدمية الالمانية، بل أصبحت أيضاً مهمة رئيسية لجميع قوى السلم والديمقراطية والاشتراكية في العالم بأسره »[1].

ويتابع التقرير : « أولا ينطبق استشهاد لينين بما كتبه ماركس وانجلز ١٨٤٨ — ١٨٤٩ على الوضع الراهن في منطقتنا ! أو لم تبرهن اسرائيل، منذ السنوات الأولى لقيامها، على انها ليست فقط دولة مغرقة في الرجعية وحسب، بل انها دولة عدوانية وتوسعية ومركز أمامي في الشرق الأوسط للامبريالية العالمية و« القيصرية » الأميركية... لضرب الشعوب العربية الثورية وسد الطريق على مسيرتها التقدمية ؟ أو لا تقوم اسرائيل في الوقت الراهن بدور أشد رجعية وأخطر من الدور الذي كان يقوم به التشيك وسلاف الجنوب في عهد ماركس وانجلز في حين تقوم الشعوب العربية بدور تقدمي وثوري كما كان الحال بالنسبة للشعوب الالمانية والبولونية والمجرية عام ١٨٤٨ »[2].

ويختتم التقرير بقوله للكاتب الالماني برتولد بريشت : « لقد شنت قرطاجة العظمى ثلاث حروب، بعد الأولى ظلت قوية، وبعد الثانية بقيت مأهولة، وبعد الثالثة لم تعد موجودة »[3]. لكن الحزب في تقريره الثاني عاد وتراجع عن ذلك مكتفياً بالاقرار بالهدف المرحلي دون التأكيد على الهدف الاستراتيجي !

وفي السياق حدد الحزب الشيوعي السعودي موقفه بالشكل التالي : « بفعل التحالف الوثيق بين الحركة الصهيونية والامبريالية العالمية، وبخاصة الامبريالية البريطانية. ثم بمساعدة الامبريالية الامريكية وتآمر الرجعية العربية، تم سلخ فلسطين وسلمت الى الصهاينة ».

ويضيف : « لقد نشأت اسرائيل عام ١٩٤٨ م، باعتبارها نظاماً عنصرياً

(١) المصدر السابق ص ٢٣ — ٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٣١ .

عدوانياً في المنطقة العربية، كما مثلت على الدوام القاعدة الرئيسية المتقدمة لحماية مصالح الامبريالية في المنطقة وكعنصر تقسيم وتفتيت للأمة العربية المجزاة »[1].

ويتابع : « كما ان حزبنا سيواصل النضال من أجل...

١ ــ دعم نضال الشعب العربي الفلسطيني بقيادة م . ت . ف بمختلف الأشكال والوسائل المتاحة... ومن أجل اقرار حقوقه العادلة والمشروعة كافة، وفي مقدمتها إقامة الدولة الوطنية الفلسطينية المستقلة.[2] وهذا الموقف ليس بحاجة الى شرح وتفصيل، فالحزب الشيوعي السعودي مع كامل الحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني.

أما الحزب الشيوعي العراقي، فأشار في برنامجه الصادر عن مؤتمره الثالث، الى طبيعة اسرائيل الشوفينية، العنصرية والتوسعية، وأكّد على دعم نضال الشعب العربي الفلسطيني بمختلف الأشكال. وأوضح الحزب موقفه بصدد الحل الراهن فقال : « وفي الظرف الراهن، يكتسب النضال من أجل تحرير كامل الأراضي العربية المحتلة في عدوان حزيران (يونيو) واقامة الدولة الوطنية الفلسطينية أهمية علمية ومباشرة، تواجه الشعوب العربية بكاملها، يتطلب تحقيقها تعبئة طاقات البلاد العربية في النضال، بمختلف أشكاله السياسية والعسكرية والاقتصادية.

وتطرق الحزب لحقوق الشعب الفلسطيني الكاملة، حيث جاء كالتالي : لقد عانى الشعب العربي الفلسطيني محناً وويلات دامية، وسوف يأتي اليوم الذي يسترد فيه كامل حقه المشروع في أرض وطنه، بفضل إرادته وإرادة الجماهير الثورية في العالم العربي. وبالاستناد الى دعم قوى الاشتراكية والتحرير في العالم، وبالتحالف الثابت معا[3].

---

(١) الحزب الشيوعي السعودي ــ البرنامج والنظام الداخلي للحزب الشيوعي في السعودية ــ المرفق في المؤتمر الثاني أغسطس (آب) ١٩٨٤ ص ١١ ــ ١٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٣) برنامج الحزب الشيوعي العراقي، الذي أقره المؤتمر الثالث للحزب، الذي انعقد في الفترة من ٤ ــ ٦ أيار (مايو) ١٩٧٦ ص ١٦٨ .

هذه هي بعض مواقف الأحزاب الشيوعية العربية، التي استطعنا الحصول على وثائقها. ومما لا شك فيه، ان مواقف باقي الأحزاب الشيوعية العربية، لا تخرج عن هذه المواقف الواردة. وبالطبع ما زال هناك تباين في مواقف الأحزاب الشيوعية العربية من هذه المسألة، لكننا راسخو الاقتناع، بأن صيرورة الأحداث، وبالذات همجيّة الكيان الصهيوني وفاشيته، ستزيل ذلك التباين، وستوحد مواقف كل الشيوعيين ومحبي السلام في كل العالم وليس في منطقتنا العربية فقط.

ان العديد من القوى أدركت حقيقة الكيان الصهيوني، وأعلنت ذلك في وسائل اعلامها وأثناء محادثاتها وفي مذكراتها وفي أبحاثها. وهذا ما جاء في محادثات غروميكو، عندما كان وزير للخارجية في الاتحاد السوفييتي مع الوفد العربي السباعي عندما قال : « أساليب اسرائيل لا تختلف عن الأساليب الهتلرية في الحرب الثانية وعلى اليهود أنفسهم »[1].

وما ذهب اليه الجنرال السوفيتي دارغونسكي ــ اليهودي الذي يرأس اللجنة السوفيتية المناوئة للصهيونية في كتابة « حياة جندي » كان أبعد من ذلك عندما قال : « انني أعجب لهذه الذاكرة البشرية التي تنسى ما ألحق بها من أذى وقسوة على يد القوى الفاشية الحاقدة، فتعود لتلحق ذات الأذى والقوة ضد شعوب أخرى » ويضيف « إذا كانت البشرية قد دفعت ثمناً باهظاً في دحر النازية الهتلرية، فإنها ستدفع ما هو أبهظ منه اذا تسنى للنازية الصهيونية المضي في مشروعها العنصري الفاشي قدما »[2].

ويؤكد الرفيق الكسندر كراسنوف في مقالته « صلة رحم مع الفاشية » على الجذور المشتركة للصهيونية والفاشية الهتلرية فيقول : « ان للصهاينة والفاشيين طبيعة ايديولوجية واحدة. فهؤلاء واولئك يعبرون عن مصالح

---

(١) مجلة « الطريق » النظرية اللبنانية ــ العدد الثاني حزيران (يونيو) ١٩٨٣ ص ٣١٢ . من محضر لقاء غروميكو مع الوفد الوزاري العربي ــ الذي نشرته مجلة « كل العرب » الصادرة في باريس ونشرته جريدة « السفير » البيروتية في ١٩٨٢/٩/١١ .

(٢) جهاد صالح ــ مقال اندحار النازية الهتلرية وقيام النازية الصهيونية ــ نقلاً عن مجلة الهدف الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ العدد ٦٧٣ ــ الصادر في ١٩٨٣/٥/١٦ ص ٣٤ ــ ٣٥ .

البرجوازية الامبريالية الكبرى الأشد رجعية. وهؤلاء واولئك أعداء ألدّة لحركة التحرر الوطني والحركة الثورية، وللاشتراكية الشيوعية، وهؤلاء واولئك عنصريون مسعورون »[1].

ان سياسة الكيان الصهيوني، لم ولن تسمح لكائن من كان، أن يتردد في تحديد الموقف الذي ينسجم تماماً مع مصالح اليهود قبل غيرهم من البشر، لأن ممارسات هذا الكيان، أكدت وتؤكد مجدداً، ان انتقال جماهير اليهود من « غيتو » الى « غيتو » أوسع، وتحت يافطة كبيرة كتب عليها اسم « دولة اسرائيل » لن يحل مشكلة الجماهير اليهودية، فهذه المشكلة نتجت عن الانغلاق والانعزال الذي مارسه اليهود في أوروبا على أنفسهم وباختيارهم في ظل المجتمع الاقطاعي واستمر ذلك مع دخول المرحلة الرأسمالية مما دفع الشعوب الأوروبية الغربية أولاً، أن تهاجم هذه التجمعات اليهودية المنغلقة، وبعد أن انتقلوا لأوروبا الشرقية كونها متأخرة نسبياً عن الغربية لممارسة سياسة الربا، وعندما تطورت الرأسمالية هناك تم أيضاً مهاجمة تلك التجمعات... من هنا نقول من الواجب اندماج اليهود مع الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها وليس انغلاقهم أو انعزالهم، وبالتالي كان من أكبر وأفدح الأخطاء الموافقة على خلق « غيتو » كبير تحت اسم « اسرائيل »، حيث أثبتت التجربة الملموسة ان هذا الكيان لا يمكن أن يعيش بدون التوسع والعدوان.

وهذا يستوجب من القوى المحبة للسلام كافة أن تنظر للمسألة ليس من الزاوية العاطفية، بل من زاوية مصالح الجماهير الكادحة بغض النظر عن قوميتها ولونها ودينها. عليها أن تنظر لايجاد حل لمشكلتها وصيانة تطورها. أما الأحاديث التي تتردد عن وجود قومية « اسرائيلية »، فهذه « القومية »... بحكم النشأة والظروف التاريخية والمصالح المادية المباشرة، والايديولوجية المسيطرة، لا تنتمي في قليل أو كثير الى حركات القومية الناشئة والثورية

(١) الكسندر كراسنوف — مقال صلة رحم مع الفاشية — النداء — بيروت ١٩٨٥/٥/٥ العدد ٨٠٤٦ ص ٢٩ . نقلاً عن مجلة « المدار » السوفيتية في العدد المكرس للذكرى الأربعين للانتصار على الفاشية.

في القرن الشعرين، أو حركات البعث والتحرير الوطني، كما تحاول الصهيونية أن تصور الأمور، بل تنتمي على وجه التحديد الى القومية الرجعية الأوروبية الامبريالية، قومية الطبقات الشوفينية المتعصبة العدوانية، والتي لا تصنع قوميات ثورية بل عنصرية ولا تخدم حركة التقدم بل تعوقها[1]...

ان هذه القومية يجب « سحقها » و« تدميرها » على رأس مؤسسيها البرجوازيين اليهود الكبار — الصهاينة — ويجب العمل بلا كلل ودون تأخير على إنقاذ اليهود من مجزرة جديدة يعدها الكيان الصهيوني والامبريالية العالمية لهم، من خلال الدعم والاسناد لحركة التحرر الوطني الفلسطينية وحركة التحرر العربية، من أجل انهاء بؤرة التوتر والتوسع في المنطقة، وخلق ظروف جديدة تسمح لجميع السكان بالعيش المشترك، وتعيد حقوق الشعب العربي الفلسطيني الكاملة له بحيث تسمح لهذا الشعب الذي شُرد واضطهد طيلة عقود عديدة، بأن يُقيم دولته الاشتراكية على كامل التراب الوطني الفلسطيني.

بذلك نكون أسهمنا اسهاماً مباشراً في حل المعضلات التي واجهت شعوب الشرق الأوسط خصوصاً والعالم عموماً من خلال تطبيق الحل الديمقراطي للمسألة اليهودية ولمسألة التحرر الوطني والديمقراطي للشعب العربي الفلسطيني، الأمر الذي نعني إعادة الظروف الطبيعية والايجابية لتطور شعوب المنظمة وانعتاقها من الرجعية والامبريالية، وإقامة مجتمعاتها التقدمية والمحبة للسلام والمناضلة في سبيل الاشتراكية.

وبالتأكيد هذا الحل النموذجي في ديمقراطيته، لا يمكن أن يتم بضربة واحدة وبعصا سحرية، فالحل اذن لا بد وأن يمر بمراحل مختلفة، وأولى هذه المراحل، الهدف المرحلي، الذي تطرحه منظمة التحرير الفلسطينية وغالبية الفضائل الفلسطينية المنضوية تحت لوائها، والذي ينص على حق العودة وتقرير المصير وإقامة الدولة الوطنية المستقلة.

(١) أديب ديمتري — الماركسية والدولة الصهيونية (الوجود والكيان) — دار الطليعة بيروت — الطبعة الأولى — كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ ص ١٩٧ — ١٩٨ .
أديب ديمتري، هو، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري.

الاستنتاجات

أولاً : ان نشوء عصبة التحرر الوطني في فلسطين، كانت تمليه الحاجة الموضوعية والذاتية للشعب العربي الفلسطيني، وتحديداً حاجة العمال والفلاحين الفقراء والمثقفين، لممثل يصون مصالحهم ويدافع عنها، وبشكل خاص الطبقة العاملة الفلسطينية العربية، التي أخذت في ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية في النمو والاتساع عمودياً وأفقياً بالمقاييس النسبية للمرحلة السابقة لتأسيس العصبة.

ثانياً : ان العصبة ولدت منذ لحظة تأسيسها الأولى كحزب شيوعي فلسطيني، وليس كتنظيم تقدمي قومي، وشروط شيوعية العصبة كانت متوفرة تماماً، وان محاولات البعض لوي عنق الحقيقة لم يلغِ جوهر العصبة. ومحاولات هذا البعض ناتجة بالأساس عن إسقاطات حزبية سابقة لعملية دراسة تجربة العصبة وتحليلها، مما أفقد الدراسة جانبها الموضوعي. وأصحاب هذه الدراسات حاولوا تغميض العين عن رؤية الظروف التي نشأت في رحمها العصبة بشكل جيد، مما دفعهم لمحاكمتها بشكل غير واقعي، مما حتم وصولهم الى استنتاجات غير صائبة، أو بالأحرى وضعوا الاستنتاجات أولاً ثم بدأوا بدراسة تجربة العصبة.

ثالثاً : شكل عامل الانقسام داخل صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني، العامل الحاسم في تشكيل عصبة التحرر الوطني، والناتج بالأساس عن

ممارسات الرفاق « الشيوعيين اليهود »، الذين مارسوا دوراً معادياً لعملية تعريب الحزب، ولم ينحصر هذا التخريب في فلسطين، بل انتقل مع اليهود الذين نقلوا الى موسكو بنتيجة افتضاح مواقفهم المعادية للعرب وانتفاضاتهم، وخضوعهم للايديولوجية الصهيونية، فمارسوا ذلك ضد الشيوعيين العرب في مدرسة الشرق للكادحين، وتجلى في أشكال مختلفة، ان كان في اختيار الرفاق العرب المرسلين للدراسة في دورات نظرية في موسكو، لكي يتم تأهيلهم ككوادر قيادية ـــ فاختاروا كبار السن والأميين! أو في محاولة التقليل من إمكانية قدرات الرفاق الشيوعيين العرب، أو في وضع العراقيل أمام عودة العرب الى بلادهم... الخ. مترافقاً مع ذلك، الابتعاد عن سياسة الحزب المركزية، واشتقاق سياسة خاصة بالقسم اليهودي، الذي شُكل في الظروف الاستثنائية التي مرت بها البلاد بنتيجة ثورة ١٩٣٦ ـــ ١٩٣٩ . والتفسير الخاطىء لقرارات المؤتمر السابع للكومنترن ـــ حول الجبهة الشعبية.

رابعاً : لم يكن الانقسام بالمعنى المبدئي، حالة ايجابية، ولم يخدم تطور الشيوعيين العرب أو حتى اليهود الذين قدموا كمستوطنين لفلسطين. لقد كان الانقسام في مصلحة أعداء الطبقة العاملة الطبقيين والقوميين. ولكنه نتيجة الممارسات العدائية للرفاق اليهود المتشيعين أضحى ضرورة لا بد منها، لأن الحزب في ظل قيادة المستوطنين اليهود المتشيعين كان بعيداً عن الجماهير الشعبية العربية الكادحة بُعد الأرض عن السماء، تلك الجماهير، التي كانت بأمس الحاجة لمن يقود نضالاتها ويوجهها صوب الطريق الصحيح من أجل الوصول لأهدافها في الحرية والاستقلال السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

خامساً : كان الرفاق اليهود المتشيعون يبتعدون عن سياسة الحزب الصائبة كلما كان المشروع الكولونيالي الاستيطاني يقترب من الاكتمال والتبلور، وكانت طروحاتهم بخصوص « البيشوف » وتطوره تنسجم مع هذا الاتجاه.

وفي ذات الوقت، لا يمكن محاكمة الرفاق اليهود على هذا الأساس، فهناك جزء قليل من اليهود، الشيوعيين الاقحاح، الذين ما زالوا حتى اللحظة

يناضلون ضمن خندق الأممية، وما زالوا يناضلون بثبات دفاعاً عن نقاوة الماركسية ـــ اللينينية من كل تشويه برجوازي أو « يساري » طفولي.

سادساً : ترافق مع تأسيس العصبة تبلور خط سياسي واقتصادي واجتماعي جديد في الساحة الوطنية الفلسطينية، رافقها نشوء ومن ثم ظهور مفاهيم وتعاليم جديدة، متمايزة كلياً عن تلك المفاهيم والمقولات المتخلفة، التي كانت تروجها القيادات القومية التقليدية البالية.

سابعاً : احتلت الطبقة العاملة الفلسطينية موقعاً مرموقاً في النضال الوطني الفلسطيني بنتيجة ولادة عصبة التحرر الوطني. فبعد أن كانت معزولة مضطهدة، مستغلة من صاحب العمل بغض النظر عن لونه ودينه وجنسيته، أضحت منخرطة في النضال بكل أشكاله من خلال ممثليها الطليعيين ـــ العصبة.

ثامناً : أكدت العصبة على أهمية التحالف الطبقي والسياسي مع الفلاحين وممثليهم، وفي ذات الوقت مع البرجوازية الصغيرة المدينية والمثقفين الثوريين.

تاسعاً : حددت العصبة الحلقة المركزية في نضالها، بالتحرر الوطني والديمقراطي، وهو ما استوجب دعوتها لتشكيل اطار جبهوي عريض يضم كل القوى الطبقية التي لها مصلحة في النضال من أجل تحقيق الاستقلال السياسي، بما في ذلك الاقطاعيين وأشباه الاقطاعيين والبرجوازية الكبيرة.

عاشراً : ربطت العصبة منذ اللحظة الأولى لولادتها ما بين الطبقي والوطني، ومزجت بينهما مزجاً ديالكتيكياً، ففي الوقت الذي حددت فيه انها ممثلة للطبقة العاملة الفلسطينية ودافعت عن قضاياها المطلبية، أدركت أن نضال الطبقة العاملة من أجل التحرر الاجتماعي، لا يمكن أن يتحقق إلّا عندما ينجز التحرر الوطني ـــ الاستقلال السياسي. ولهذا بالذات، أعطت الأولوية للهدف الوطني ووضعت في المرتبة الثانية الهدف الاجتماعي، وطالبت الطبقة العاملة بتقديم تنازلات محدودة لصالح أصحاب المصانع العربية لتطوير الصناعة العربية ومنافستها بالتالي للصناعة في « البيشوف » اليهودي، ولكنها في ذات الوقت لم تهادن البرجوازية العربية في طروحاتهم

العدائية تجاه انتظام الطبقة العاملة في النقابات واشتراكها في الحياة السياسية.

حادي عشر : رغم حملات العداء الساخرة ضد عصبة التحرر الوطني من قبل القيادات التقليدية، لم تتخذ العصبة موقفاً انفعالياً من هذه القيادات، بل انها بقيت تتعامل معها بروح المسؤولية الوطنية الايجابية ولكنها في ذات الوقت، لم تستكن ولم يهدأ لها بال إلّا بفضح كل ممارسات تلك القيادات المتخلفة الخاطئة وسياساتها، وعلى الصعيد العربي طالبت من الجامعة العربية رفع يدها عن القضية الوطنية الفلسطينية لادراكها أن سياسة الجامعة إنما تخدم الانتداب البريطاني ولا تفيد نضالات الجماهير الفلسطينية.

ثاني عشر : على الصعيد النقابي، وقفت العصبة موقفاً مبدئياً من قضايا العمل كافة، وقفت مع كل إضراب، وساندت كل حركة، ولم تتآمر على مصالح العمال، بل ارتقت بنضالاتهم ووعيهم، وأوضحت لهم (للعمال) عن طابع العلاقة الديالكتيكي بين نضالاتهم المطلبية والسياسية، بعكس ما فعل اولئك النقابيون الصغر، الذين ناضلوا نضالاً قوياً من أجل عزل العمال عن السياسة، وكانوا يفتخروا بذلك !!!

ثالث عشر : تتحمل العصبة مسؤولية سلبية في شق صفوف جمعية العمال العربية الفلسطينية، مع الادراك المسبق بأن الحركة النقابية العمالية الفلسطينية كانت ومنذ العام ١٩٤٢ منقسمة بين اتجاهين، الاتجاه الثوري ممثلاً باتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب، واتجاه اصلاحي تمثله جمعية العمال العربية الفلسطينية. لكن ورغم ذلك، كان من واجب العصبة أن لا تساهم بالانقسام الجديد، بل بتوحيد الحركة العمالية، أو بحد أدنى إبقاء الشيوعيين وأنصارهم داخل صفوف الجمعية العمالية من أجل الضغط من الداخل كما من الخارج عليها، وبالتالي التأثير في سياستها وتحويلها ثورياً.

رابع عشر : ناضلت عصبة التحرر الوطني ومنذ تأسيسها نضالاً لا هوادة فيه ضد الانتداب البريطاني، وفضحت كل مشاريعه الاستعمارية، وعرت كل سياساته، التي كانت تصب بهذا الشكل أو ذاك في مصالح المشروع الكولونيالي الصهيوني الاستيطاني « الوطن القومي » !.

وكما بدا واضحاً من العرض، فالعصبة لم تترك مناسبة من المناسبات إلّا وأظهرت سياسة الانتداب على حقيقتها، وفي هذا السياق، طالبت في أكثر من مرة، وفي أكثر من مذكرة القيادة القومية التقليدية بالابتعاد عن سياسة المهادنة وعدم الارتهان لسياسة الانتداب البريطاني.

وأوضحت العصبة بالاستناد الى الوثائق والتصريحات للعديد من وزراء ومسؤولين بريطانيين أوضحت العلاقة ما بين مصالح البريطانيين ومصالح الصهاينة، والتي تقوم على حساب مصالح الجماهير الشعبية العربية.

خامس عشر : بينت العصبة مخاطر وبشاعة الدور الذي تلعبه الحركة الصهيونية العالمية كعدو أساسي لجماهير الشعب الفلسطيني والعربي، من خلال تبيانها مخاطر إقامة مشروعها الكولونيالي الصهيوني، وعرت الصهيونية كحركة عنصرية شوفينية ورجعية صرف، كايديولوجية للبرجوازية اليهودية الكبيرة التي استطاعت من خلال جهازها الاعلامي وبمساعدة الامبرياليين، أن تضلل قسماً لابأس به من اليهود، ومهدت لهم بالتعاون مع الانتداب البريطاني طريق الهجرة لفلسطين « أرض الميعاد » !...

مع كل هذا وقفت العصبة ومنذ البداية، ودعت للتمييز بين الحركة الصهيونية، كحركة رجعية شوفينية، وما بين جماهير اليهود المضللين. وطالبت العصبة اليهود بالابتعاد عن الحركة الصهيونية، وديماغوجيتها، وبالتالي الابتعاد عن مشروعها، وطالبتهم بالنضال المشترك ضد كل الأعداء، وطرحت عليهم حلاً ديمقراطياً للعيش المشترك بسلام وبحقوق متساوية...

سادس عشر : أكدت العصبة، ان المشكلة اليهودية لم تنشأ في فلسطين، بل انها نتاج التطور الاقتصادي الاجتماعي وبالتالي السياسي لدول أوروبا الغربية والشرقية، وبعد صعود الفاشية في كل من المانيا وايطاليا، وبالتالي ليست فلسطين مسؤولة عن حل المشكلة اليهودية، وان هذه المشكلة ذات طابع عالمي، وعلى العالم أن يتحمل مسؤولية حلها من خلال الأمم المتحدة، وبالنضال من أجل تصفية النظم العنصرية والفاشية وإفساح المجال أمام اليهود للعيش بين ظهرانية الشعوب التي ولدوا ونشؤوا في أحضانها.

وأكدت العصبة ان حل المسألة اليهودية لا يكون على حساب الشعوب الأخرى، بل بالاتفاق والانسجام مع مصالح الشعوب. وأشارت الى أن فلسطين بحكم رقعتها الجغرافية المحدودة لا يمكن أن تتسع لكل اليهود. لأن فلسطين لشعبها العربي، ومع ذلك ممكن أن يتم التعايش مع اليهود على أساس الحل الديمقراطي الذي يستند الى : ــ إخراج الجيوش الأجنبية من البلاد وتحديداً جيوش الانتداب البريطاني. ــ ايقاف الهجرة. ــ ايقاف بيع الأراضي لليهود، وبالتالي انتقالها لأيدي الصهاينة. ــ العمل على إقامة نظام ديمقراطي يؤمن العيش الأمن والكريم لكل سكان فلسطين. ولكن هذا الحل لم يَر النور لأن موازين القوى المحلية والعربية والدولية ــ الامبريالية لم تسمح بالتفكير بحل كهذا.

سابع عشر : أخطأت عصبة التحرر الوطني خطأً فادحاً بالموافقة على قرار التقسيم، لأن هذه الموافقة أسهمت في إعطاء الرجعيين العرب الحجة لضرب الشيوعيين العرب، إضافة الى انها، ساهمت في عزل الشيوعيين عن جماهيرهم، وقبل كل هذا لأن الموافقة لم تكن نابعة عن إدراك مصلحة الشعب الفلسطيني، ونتيجة الضعف النظري (الايديولوجي)، والخضوع الكلي لسلطة عبادة الفرد الستالينية، وبنتيجة عدم إدراك الشيوعيين العرب والفلسطينيين بأنه من الممكن أن يبرز أحياناً تباين بين الموقفين القومي والأممي نسبي ومؤقت.

ثامن عشر : حدوث تطور ملموس في موقف الحركة الشيوعية العربية والعالمية من الكيان الصهيوني، وهذا التطور بدأ تلمسه منذ عام ١٩٥٦، حيث انفضح الموقف الحقيقي لذلك الكيان، وأخذ هذا الموقف بالتطور أكثر فأكثر بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وما زال هذا الموقف يتطور وان التباين القائم في صفوف الحركة الشيوعية العربية والعالمية، سيزول لاحقاً بنتيجة ممارسات هذا المركز الأمامي « للقيصرية » الاميركية وسياساته. هذا المركز الفاشي، والذي تربطه بالفاشية صلة رحم...

تاسع عشر : ان الحديث عن تشكلُ « قومية يهودية » قبل تشكل الكيان الصهيوني في فلسطين، هو حديث غير دقيق، ولا يستند للمبادىء التي حددتها الماركسية ــ اللينينية لتشكل القوميات والأمم، ولكن فيما بعد،

(مع ان عوامل كثيرة ما زالت ناقصة) أي بعد تشكل الكيان الصهيوني، ككيان جغرافي سياسي، أخذت هذه القومية في التبلور، ولكنها من نوع القوميات الأكثر رجعية، القوميات المعادية لكل ما هو تقدمي، المعادية للعنصر البشري ككل، انها قومية شوفينية يجب « سحقها » و« تدميرها »، ويجب إنقاذ الجماهير اليهودية من ربقتها وتحريرهم من أوهامها البشعة، وإفساح المجال أمامهم للعيش بين الشعوب، التي نشؤوا بين ظهرانيتها والاندماج فيها.

وليس صحيحاً البته، ولا هو عمل مسؤول، العمل على استمرار وبقاء اليهود في دائرة « الغيتو » معزولين عن العالم. ان هذا العمل لهو من أخطر الأعمال ضد اليهود أنفسهم، لأن في استمرار ذلك ما يخدم السياسة الصهيونية في استثمار اليهود كوقود لمشروعهم الاحتكاري العدواني الاستيطاني.

عشرون : ان الحل المرحلي للنضال الوطني الفلسطيني، والمجمع عليه من الفصائل الفلسطينية كافة، يشكل خطوة هامة وضرورية على طريق انجاز الهدف الاستراتيجي، هدف تحرير فلسطين، وإقامة السلطة الاشتراكية، السلطة التي ستمنح كل السكان بغض النظر عن القومية، أو الدين واللون أو العرق... الخ. كامل الحقوق الانسانية، وتسمح بالتطور الايجابي لشخصية الانسان الفلسطيني، بعيداً عن أي شكل من أشكال الارهاب أو الارغام...

واحد وعشرون : لقد كان الموقف السوفييتي من قرار التقسيم غير دقيق، وحمل في طياته مغالطات كبيرة، أقل ما يمكن أن يقال عنها، انها لا تستند الى مفهوم حق تقرير المصير الماركسي ــ اللينيني.

وما استخدام الكتاب السوفييت والبلغار لتعبير « توفيقي » للموقف السوفييتي من قرار التقسيم إلّا نوعاً من الاقرار المبدئي ولو الخجول من قبل هؤلاء الكتاب بخطأ الموقف السوفييتي.

لكن في الوقت الذي نرى فيه الخطأ، الذي وقع فيه الاتحاد السوفييتي يتوجب علينا رؤية المواقف الأممية الشجاعة لمنظومة الدول الاشتراكية

وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي تجاه كل قضايا شعوب الأرض قاطبة ومن ضمنها قضايا العرب القومية وقضيتنا الفلسطينية على رأسها.

وهذا الحل هو ما تؤكده وتنص عليه المبادرات السوفييتية العديدة، والذي يقوم على أساس عقد مؤتمر دولي كامل الصلاحيات، تتمثل فيه م . ت . ف كممثل شرعي ووحيد للشعب العربي الفلسطيني، ومن مهمة هذا المؤتمر اقرار الحقوق الوطنية الفلسطينية، في حق العودة وتقرير المصير للشعب الفلسطيني وإقامة الدولة المستقلة.

لهذا الحل يجب حشد كل الطاقات الوطنية والقومية والأممية كي نُغير في موازين القوى القائمة من أجل انجازه، وارغام القوى الصهيونية والامبريالية بالموافقة عليه، الأمر الذي يعني، دخول المنطقة لمرحلة جديدة ومنعطف جديد في رقيها وتطورها.

خاتمة

ماذا حل بعصبة التحرر الوطني في فلسطين في ظروف ما بعد إقرار قرار التقسيم من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٤٧ ؟ كما أشرنا آنفاً، انقسمت العصبة بين مؤيد للقرار (وهي الأقلية) وبين معارض له (وهي الأغلبية). وبنتيجة اجحاف القرار المذكور لحقوق الشعب العربي الفلسطيني وتجاهله، وبالتالي شعور الجماهير الفلسطينية وقياداتها الوطنية، ان تراب وطنها التاريخي يسلب منها جهاراً وفي رابعة النهار وعلى مرأى من الهيئة الدولية الأولى، لا بل وبفعل قراراتها، وهي المرة الأولى في التاريخ القديم والوسيط والمعاصر التي ترتكب فيها مثل هذه الجريمة بحق شعب من الشعوب، فيتخذ قرار تحت حجج واهية وكاذبة باستلاب حقوق الشعب الفلسطيني التاريخية في أرضه، دونما أخذ رأي هذا الشعب من خلال الاستفتاء أو حتى باستشارة قياداته الوطنية حول هذه المسألة، التي هي من صميم المسائل الداخلية لهذا الشعب، وإعطاء حقوقه لأناس جاؤوا لممارسة الاغتصاب والسيطرة الاستعمارية على الأرض الفلسطينية هم الصهاينة !! والأنكى من كل ذلك، ان المرحلة التي اتخذ بها القرار (أواسط الأربعينات) شهدت تحولات هامة وذات مدلولات تاريخية، حيث تم هزيمة وسحق الفاشية الالمانية والايطالية والعسكرتاريا اليابانية وترافق مع هذا التطور نهوض ثوري في أصقاع العالم المختلفة، وبدأ أفول الاستعمار يندحر تدريجياً عن أجزاء

واسعة من دول العالم. في هذا الوقت بالذات، تم في الأمم المتحدة وبفعل قراراتها وإرادتها الدولية السامية !! خلق وريث جديد للاستعمار، ومن النوع الأشد سفوراً في رجعيته، الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، وهو ما دفع الجماهير الفلسطينية، لأن تمتشق السلاح دفاعاً عن وطن الآباء والأجداد الأمر الذي أدى، الى انفجار القتال في أرجاء البلاد المختلفة، بحيث أصبحت البلاد عبارة عن ساحة حرب وتقطعت أجزاؤها، وهو ما سحب نفسه على أوضاع العصبة، التي لم تبق أقلية وأغلبية فقط، بل أضحت أكثر من أقلية وأغلبية، وذلك لأكثر من سبب، اشتعال المعارك. أولاً، عدم المقدرة على الاتصال بين مجموعات الفريق الواحد نتيجة القتال. ثانياً، لجوء بعض قادة العصبة من الفريقين للخارج، على سبيل المثال اميل حبيبي (أقلية) واميل توما (أغلبية) (لاحقاً عادوا ثانية الى البلاد). ثالثاً، انخراط العديد من القادة والكوادر والأعضاء من العصبة في القتال ضد الصهاينة كل في منطقته، ودونما التفات لاطار العصبة. رابعاً، حالة الحصار التي فرضتها سلطات الانتداب حتى انتهاء انتدابها في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ والقوات الصهيونية والجيوش العربية، التي جاءت لفلسطين في آذار (مارس) ١٩٤٨ ضد قيادات وكوادر العصبة. هذه العوامل مجتمعة أسهمت فيما آلت اليه حال العصبة من تشرذم وتفكك.

ومن الأمثلة الحسية الشاهدة على ما أوردناه، ان بولس فرح قاد حركة انشقاقية داخل صفوف العصبة في حيفا، حينما أعلن عن تشكيل « عصبة التحرر الوطني إقليم الشمال »؛ وخليل شنير ومحمد نمر عودة قاما في يافا بتنظيم إطار جديد باسم « حركة النقابيين الأحرار » وتمكنوا من تأطير الكثير من العناصر الرافضة لقرار التقسيم؛ كما ان مخلص عمرو وجريس رمانه ومحمد فياض قادة « رابطة المثقفين العرب » شنوا حملة تحريضية واسعة ضد قرار التقسيم في منطقة القدس، وهو ما يمكن اعتباره شكلاً من أشكال الاطر المستقلة آنذاك عن العصبة.

ولم ينحصر عمل هؤلاء الرفاق في إطار التحريض على قرار التقسيم من خلال تشكيلاتهم الجديدة، لا بل انهم اتبعوا أسلوباً أكثر فعالية لمواجهة قرار التقسيم المجافي والمنتقص من حقوقهم، وحقوق شعبهم الفلسطيني،

هو أسلوب الكفاح المسلح أرقى أشكال النضال، حيث شنوا العمليات العسكرية ضد المستوطنات والمواقع الصهيونية. فاميل توما مارس القتال ضد الصهاينة في منطقة المرفأ في مدينة حيفا ضمن منظمة « العصبة الوطنية » التي التحق بها، وأما بولس فرح ونمر عودة فنظما العمل المسلح في الجليل الفلسطيني تحت اسم العصبة ــ اقليم الشمال؛ وفي منطقة غزة انضم الرفاق الى « اللجنة القومية » التي تشكلت آنذاك وعملوا من خلالها.

خلاصة القول، ان كل منطقة أخذت تعمل بشكل منفرد، ودون أن يكون هناك أي تنسيق بالمعنى الدقيق للكلمة بين مجموعات الفريق الواحد من فريقيها الرئيسيين مما جعل أعضاءها بشكل عام ضائعين، تائهين غير مدركين لما يجب أن يفعلوه لمواجهة هول الأحداث وضخامتها تلك التي كانت تجري على الأرض الفلسطينية، بحيث يمكن تشبيه وضعهم آنذاك بمن يركض وراء الأحداث دونما معرفة بما ستؤول اليه عملية الركض غير المنظمة والعفوية.

وهذا الوضع نتيجة طبيعية لعملية التناقض التي شابت مواقف العصبة تجاه قرار التقسيم، وما تلا ذلك من حالة الانفلاش التي سادت صفوف العصبة، إضافة الى فعل العوامل الموضوعية وتأثيرها تلك التي ساعدت على إحداث المزيد من التفسخ في بنية العصبة، الأمر الذي ساهم في ما آلت اليه حالتها آنذاك.

لكن مع تطور الأحداث على الأرض الفلسطينية، انتقلت حالة العصبة من الفوضى والتشرذم الى حالة جديدة، هي حالة التلاشي والاضمحلال نتيجة للاتصالات التي تمت بين الحزب الشيوعي الاسرائيلي وفريق الأقلية من العصبة بعد إقامة الكيان الصهيوني في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، جرى الاتفاق بين الطرفين على عقد « المؤتمر القطري » في ٢٢ و٢٣ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٨، الذي أعاد الوحدة لصفوف الشيوعيين داخل الكيان الصهيوني، ولكن الاتفاق تضمن أيضاً أن يقوم الرفاق العرب بنقد تجربتهم السابقة (تجربة العصبة) سلباً، وهو ما فعله الرفاق الشيوعيين العرب !!.

والمؤسف حقاً، ان الرفاق العرب لم يطلبوا من رفاقهم الشيوعيين اليهود ممارسة النقد السلبي لتجربتهم، ولدورهم التخريبي حين انحازوا كليا « لليشوف » على حساب مصالح عمال وفلاحي وكل كادحي البلاد، وانخرطوا في المشروع الكولونيالي الصهيوني، وحملوا السلاح دفاعاً عنه !!. والتجربة الملموسة أكّدت ان الشيوعيين العرب لم يختاروا طريق الانشقاق وتأسيس العصبة إلّا مرغمين، فكيف يجوز قلب الحقائق ؟

ويجب أن يفهم من هذا الاستخلاص إدانة الوحدة أو رفضها بين الشيوعيين العرب و« اليهود »، لا بالعكس الوحدة كانت ضرورية، خاصة في الظروف التي كانت قائمة آنذاك، والتي نشأت على اثر نكبة ١٩٤٨. ولكن كان يجب أن يتم تقييم شامل لما جرى في الفترة التي سبقت انشقاق الحزب الشيوعي الفلسطيني في سبتمبر ١٩٤٣ والاعلان عن ولادة العصبة. إلّا أن ذلك لم يكن ممكناً في ظل تلك الظروف، حيث بدا العرب ضعيفي الموقف، مما استدعاهم لممارسة النقد السلبي لذاتهم ولتجربتهم. ولبّسوا أنفسهم ثوب لم يلبسوه، حينما اعتبروا تجربة العصبة ميلاً نحو « الشوفينية » ! وهذا غير صحيح، ولا يمت للواقع بصلة، فكل أدبيات وتصريحات قادة العصبة وممارساتهم هي براء من هذه التهمة.

واعتقد جازماً لو ان الرفاق الشيوعيين العرب، كانوا في ظرف آخر، لما أدلوا بتلك الشهادات المغايرة للواقع.

ومن البديهي القول، ان خيار الوحدة، رغم ما شاب اعادتها من مغالطات بحق الشيوعيين العرب وعصبتهم، انه الخيار الأفضل والأسلم. وحتى أولئك الرفاق الذين انتهجوا طريق الكفاح المسلح تعبيراً عن رفضهم لقرار التقسيم ودفاعاً عن حقوق شعبهم المسلوبة، عادوا ثانية الى طريق الوحدة ضمن إطار الحزب الشيوعي الاسرائيلي، ومن أبرزهم اميل توما، الذي مارس أيضاً النقد السلبي لنفسه. وبتقديري السبب في عودة هؤلاء الرفاق الى الحزب، انما يعود الى ضعف أو ضآلة امكانياتهم، ليس هذا فحسب، بل ان قطع الاتصال مع الفلسطينيين أو العرب الموجودين خارج الحدود أضحى شائكاً وصعباً، هذا بالاضافة الى شعورهم، ان القادة العرب ساهموا مباشرة فيما آلت اليه الأحوال في فلسطين، وبالتالي لا يمكن لهم

أن يمدوا يدهم لمن باع قضيتهم؛ كل هذه العوامل دفعتهم للانخراط مجدداً في صفوف الحزب الشيوعي الاسرائيلي.

وهكذا نجد أن البعثرة التي كانت موجودة في الشمال الفلسطيني في صفوف العصبة، تراجعت لصالح الوحدة، ولكن ضمن إطار الحزب الشيوعي الاسرائيلي، مما يعني انتفاء دور العصبة في هذه المنطقة.

وأما على صعيد الضفة الغربية، فحصل أن التقى عدد قليل من الرفاق القدامى من العصبة، وأعادوا تشكيل العصبة، وأجروا اتصالهم بالرفاق في نابلس وجنين وبيت لحم والخليل، وبدأوا باصدار المطبوعات ووزعوها في المدن المذكورة بالاضافة الى غزة التي تم تنظيم الاتصال بينها وبين فرع العصبة في الخليل، حيث كانت تتمركز قيادة العصبة، ولكنها لاحقاً انتقلت الى مدينة القدس، نتيجة احتلال منطقة الفالوجا. وكان من بين المطبوعات، جريدة اسمها « المقاومة الشعبية » ومجلة باسم « صوت الطليعة ».

وكما ذكرنا سابقاً، من أن كوادر العصبة وأعضاؤها كانوا ملاحقين من قبل كل القوى المعادية للشيوعية في البلاد، فقام الصهاينة باعتقال عدد من كوادر العصبة من بينهم علي عاشور وأسعد مكي، وفي ذات الوقت قامت السلطات المصرية باعتقال عودة الأشهب وحسن أبو عيشة، الذين بالمحصلة وقعوا في يد القوات الاسرائيلية عندما احتلوا النقب.

وعلى اثر افتضاح الدور التخريبي للجيوش العربية في فلسطين، خاصة بعد أن سلمت مساحات شاسعة من الأراضي الفلسطينية للكيان الصهيوني الناشيء من دون قتال يُذكر، قامت عصبة التحرر بإصدار بيان وزعته في المدن الفلسطينية وبين صفوف الجيش المصري، تفضح فيه المؤامرة، ودعت الجيوش للخروج من البلاد.

ولقد نظمت العصبة أول مظاهرة جماهيرية واسعة في مدينة نابلس، عندما جرى تسليم المثلث الفلسطيني بموجب اتفاقية رودس في نيسان (ابريل) ١٩٤٩ للكيان الصهيوني، وقامت أجهزة القمع العربية باعتقال[1] (٣٥) شيوعياً، الذين طلب الملك عبدالله نقلهم سيراً على الأقدام من الضفة الغربية الى سجن عمان، وفي أثناء الطريق استشهد روحي زيد الكيلاني،

الذي كان مربوط بحبل طويل مع باقي رفاقه الـ ٣٤، في منطقة الفارعة.

كما تصدت العصبة لمؤتمر اريحا الخياني، الذي عقد عام ١٩٤٩، والذي كان على رأسه سليمان طوقان والشيخ الجعبري، ولم يتجاوز عدد حضوره عن الأربعين شخصية في معظمهم من عملاء بريطانيا، وحضر هذا المؤتمر الرفيق عبد العزيز العطي في محاولة من العصبة لاستكشاف ما يجري داخل المؤتمر، والعمل على رفع الصوت ضد المؤامرة من بداية إعلانها. المهم كانت النتيجة ان ناشد مندوبو المؤتمر الملك عبدالله وبايعوه « لحماية » ما تبقى من أرض فلسطين وقبل انفضاض المؤتمر أرسلوا مذكرة للملك بهذا الخصوص، والذي كان ينتظرهم في قصره في الشونة في الضفة الشرقية.

وعلى اثر ذلك أجرت الحكومة الأردنية إجراءات ضمت الضفة الغربية، وأجرت التعديلات الدستورية اللازمة، وحددت بنتيجة ذلك حصة أعيان الضفة الغربية في البرلمان، ولاحقاً تحديداً في نيسان (ابريل) ١٩٥٠ جرت الانتخابات البرلمانية، التي تصدت لها عصبة التحرر الوطني، حيث دعت الجماهير لاحباطها ورفضها، ووزعت العديد من البيانات والأوراق الصغيرة التي تحمل شعاراتها وتندد بالمؤامرة الجديدة ــ القديمة.

ونجح الشيوعيون في نضالهم بفضح حقيقة الانتخابات، فالجماهير الفلسطينية لم تشارك بالانتخابات، ففي بعض المناطق لم يشارك أكثر من ٥ ٪، وفي أحسن المناطق لم تتجاوز النسبة ٢٠ ٪ رغم إرهاب السلطة. وعلى سبيل المثال، عبدالله الريماوي ــ بعثي قيادي، وهو من بيت ريما، نزل الانتخابات تحت حجة ان ضم الضفة الغربية لامارة شرق الأردن. هو بمثابة خطوة ضرورية من أجل الوحدة العربية !!، ولكن المشاركة بقيت محدودة وضئيلة، ولكنهم عبّؤوا الصناديق وزيفوا الانتخابات. وعلى اثر هذه الانتخابات تم اعتقال كل من عبد العزيز العطي وعبدالله السلفيتي.

كما ان العصبة نظمت في الأول من أيار (مايو) ١٩٥٠ مظاهرات في أريحا وبيت لحم ورام الله ورفعت الشعارات، التي تطالب بانسحاب الجيوش العربية، إضافة للتأكيد على التضامن البروليتاري الأممي بين عمال

العالم أجمع، وعلى اثر ذلك، قامت السلطات الأردنية باعتقال عدد من الشيوعيين من هذه المناطق، وكانت أول مجموعة تصل الى معتقل الجفر.

وعلى ضوء التغيرات السياسية والدستورية التي حصلت في الضفة الغربية، بعد ضمها لامارة شرق الأردن، وقفت اللجنة المركزية للعصبة أمام اسمها، وقررت تغييره الى الحزب الشيوعي الأردني عام ١٩٥١.

ويقول الرفيق عبد العزيز العطي تعليقاً على تغيير الاسم « عز على بعض الرفاق الاسم القديم، ولكن لم يكن هناك اعتراض، المهم أن يكون هناك حزب يعتمد الماركسية ــ اللينينية في نشاطه وتوجهاته ».

وبصدد هذه المسألة، يمكن القول، بقدر ما هو صحيح استخلاص الرفيق عبد العزيز العطي، إلّا انه بذات القدر كان غير كاف، لماذا ؟ لأن أي حزب شيوعي، من المفترض أن يحمل اسم الشعب الذي يمثل هويّته، والاسم الجديد للعصبة، كان يعني بوضوح التخلي عن القضية الام، قضية الشعب الفلسطيني، الذي انبثقت من بين صفوفه العصبة عام ١٩٤٣. وحتى اذا اعتبرنا، أن العامل الرئيسي الذي اعتمد عليه الشيوعيون الفلسطينيون في تسمية حزبهم الجديد ــ باسم الحزب الشيوعي الأردني، الناتج عن ضم الضفة الغربية وربطها اقتصادياً وسياسياً... الخ بالمملكة الأردنية الهاشمية، أي ان اسم الدولة الجديد، هو الذي حتم ذلك التغيير، فاذا اعتبرنا هذا صحيحاً ومنطقياً ولا بد من أخذه بعين الاعتبار، كان أيضاً لا بد على الشيوعيين الفلسطينيين أن يأخذوا بالاعتبار الآتي أولاً، ان الجماهير الفلسطينية تشكل ما نسبته ٧٠ ٪ من النظام السياسي القائم، بغض النظر عن الاسم، ثانياً ان القضية الفلسطينية لم تُحل، وما زالت طرية العود، وكان يهدف الرجعيون العرب بالتعاون مع الامبرياليين والصهاينة الى إلغاء الهوية السياسية للشعب الفلسطيني وتبديد قضيته. لهذا كان يجب على الشيوعيين الفلسطينيين عدم إزالة اسم فلسطين، بل إبقاء الحزب مصبوغاً بهذه الهوية، لكن قيادة الحزب من حيث لا تدري أسهمت في المحذور، ووقعت في الفخ الرجعي.

ومن جانب آخر، ألم يكن بمقدور قيادة الحزب أن تسمي الحزب باسم

ينسجم مع التطورات الجديدة وبما يحافظ على هويته الفلسطينية، كان يدعى مثلاً الحزب الشيوعي الفلسطيني ــ الأردني، اذا كان لا بد لعملية تغيير الاسم.

ان أنكار الصبغة الفلسطينية عن الحزب كان خطأ لا يغتفر للشيوعيين الفلسطينيين آنذاك، رغم انه ذات طابع شكلي، ولكن هذا الطابع الشكلي (الاسم) عكس نفسه على ممارسات الحزب لاحقاً، حيث غرق في النضالات المطلبية ونسي تماماً النضالات القومية. وحتى عندما برزت الى السطح ظاهرة المقاومة الفلسطينية المسلحة المعاصرة في عام ١٩٦٥ وانتشارها لاحقاً بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ للأنظمة العربية، رأينا ان الحزب الشيوعي الأردني تخلف عن استيعاب هذه الظاهرة والانخراط بها والعمل على قيادتها لاحقاً، ليس هذا فحسب، بل انه اتهم الثورة الفلسطينية « بالمغامرة » !.

وعندما حاول اللحاق بها عام ١٩٧٠ بتأسيسه فصيل « الأنصار »، الذي يعتبره خطوة ايجابية، رغم تأخر تأسيسه، حالت الأحداث دون ذلك، أيلول ١٩٧٠ وما تلاها في عام ١٩٧١، وكانت من نتيجة هذه الأحداث انتهاء الظاهرة العلنية للمقاومة الفلسطينية في الأردن، وجدنا أن ظاهرة « الأنصار » انتهت مع انتهاء الظاهرة العلنية، ولم يحاول الحزب أن ينتقل بهذا الفصيل الى حيث التواجد العلني للمقاومة في لبنان وسوريا، وهو ما يعكس استمرار الخطأ القديم عند الحزب، ومن الطبيعي أن نذكر، ان الحزب انقسم على نفسه آنذاك نتيجة تأسيس فصيل « الأنصار ».

وكان من البديهي أن تتشكل فصائل يسارية جديدة في إطار المقاومة الفلسطينية، على اعتبار انها ممثلة للطبقة العاملة الفلسطينية في ظل غياب الحزب الشيوعي، الذي من المفترض انه هو الأجدر بتمثيل هذه الطبقة. ورغم ذلك بقي الحزب واقفاً يراوح في مكانه، دون أن يحاول أن يلحق بالأحداث وبالتالي يساهم في صنع الأحداث والتاريخ في حركة النضال القومي الفلسطينية، واستمرت التفاعلات داخله تعتمل الى أن جاء أخيراً الاعلان عن تأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني في شباط (فبراير)

١٩٨٢، وبغض النظر عن الطريقة التي تم الاعلان من خلالها عن الحزب الجديد، إلّا انها كانت تعتبر خطوة ايجابية ولو انها متأخرة كثيراً.

ولكن يبقى على الحزب الشيوعي الفلسطيني أن يأخذ بعين الاعتبار اليسار الفلسطيني الذي اتضحت هويته، وهو في طريقه للتحول لمواقع الماركسية ــ اللينينية، كي تستقيم لاحقاً تجربة الشيوعيين الفلسطينيين.

وهكذا نجد أن القسم الثاني من العصبة انتقل للعمل في إطار جديد وانتفت العصبة من الخارطة السياسية والحزبية في الضفة الغربية.

أما الجزء الثالث والأخير، هو ذلك الجزء الذي بقي في غزة، والذي كان يقاد من قبل قيادات العصبة التي كانت موجودة في غزة، وكما ذكرنا آنفاً كان هناك اتصال بين الضفة وغزة، حيث كانت تصل المنشورات والرسائل من والى القيادة الى غزة وبالعكس بواسطة الرفاق المراسلين وبواسطة الادلاء. واستمر هذا الاتصال الى ما بعد تغيير اسم العصبة في ١٩٥١ الى اسم الحزب الشيوعي الأردني حتى عام ١٩٥٤ .

وبنتيجة الوضع الصعب والشائك وصلت قيادة الحزب الى قناعة راسخة بضرورة الانفصال خاصة بعد اعتقال العديد من الرفاق حاملي المطبوعات والرسائل من قبل العدو الصهيوني أو أجهزة القمع العربية في غزة أو في الضفة الغربية. وعلى ضوء ذلك أرسلت قيادة الحزب رسالة لمجموعة غزة أبلغتهم فيها باستحالة قيادة الحزب لهم، ونصحهم الحزب أن يحافظوا على منظمتهم واستمراريتها.

وعلى اثر ذلك، أطلقت مجموعة غزة على نفسها اسم الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي لم تعترف به الحركة الشيوعية العالمية ولا حتى العربية، واستمروا في النضال الى أن اندمجوا أخيراً في إطار الحزب الشيوعي الفلسطيني.

وهكذا نجد أن عصبة التحرر الوطني في فلسطين انقسمت بالمحصن الى ثلاثة أجزاء رئيسية، الجزء الذي انضم للحزب الشيوعي الاسرائيلي، والجزء الثاني، الذي انضم للحزب الشيوعي الأردني والجزء الثالث الذي



أعلن عن نفسه الحزب الشيوعي الفلسطيني، وهذا الانقسام جاء منسجماً مع التقسيم الجغرافي لفلسطين، فالأردن ضم الضفة، وغزة وقعت تحت إدارة السلطات المصرية، وأما الجزء الثالث فأقيم عليه الكيان الصهيوني. وبذلك تكون العصبة انتهت من الخارطة السياسية والحزبية في فلسطين، ولكنها ما زالت حاضرة في التاريخ الفلسطيني وفي جزئه الناصع رغم ما شاب مواقفها من أخطاء.

المعلومات الواردة في الخاتمة مقتبسة من كتاب سميح سمارة — العمل الشيوعي في فلسطين — الطبقة والشعب في مواجهة الكولونيالية.

وبشكل أساسي من المقابلة الخاصة مع عبد العزيز العطي (أبو الوليد) عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الأردني، التي تمت في ١٩٨٥/٢/١٦ في مدينة صوفيا — بلغاريا — وبالتحديد في أكاديمية العلوم الاجتماعية وإدارة المجتمع التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري.

ولأهمية هذه الفترة واستثنائيتها في حياة الشعب الفلسطيني،
ونتيجة الخلافات والتناقضات العميقة
بين القوى الوطنية والقومية والتقدمية الفلسطينية والعربية،
وحتى بين المستشرقين الذين اهتموا بتاريخ شعوب المنطقة
انطلاقاً من مواقعهم الايديولوجية والطبقية المختلفة،
ارتأينا اعادة قراءة هذه الفترة ومحاكمتها،
لعلنا نتمكن من تصويب ما حاول الآخرون تحريفه،
وتخطئة ما حاولوا تزيين... مصلحته.

وبعودتنا لدراسة تجربة ...
والتي عالجها أكثر من كاتب، نعود لتقوم تلك التجربة ...

